كتاب المغازي

للواقدي

محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧ هـ

تحقيق

الدكتور مارسدن جونس

الجزء الثالث

عالم الكتب

شأن هدم العُزّى

قال : حدّثنى عبد الله بن يَزيد ، عن سَعيد بن عمرو الهُذَلىّ ، قال : قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة يوم الجمعة لعشر ليالٍ بقين من رمضان ؛ فبثّ السّرايا فى كلّ وجهٍ ، أمرهم أن يُغيروا على من لم يكن على الإسلام . فخرج هِشام بن العاص فى مائتين قِبَل يَلَمْلَم[1] ، وخرج خالد ابن سعيد بن العاص فى ثلثمائة ، قِبَلَ عُرَنَة . وبعث خالدبن الوليد إلى العُزّى يهدمها ، فخرج خالد فى ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها وهدمها ، ثم رجع إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : هُدِمَتْ ؟ قال : نعم يا رسول الله . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هل رأيتَ شيئا مّا ؟ قال : لا . قال : فإنك لم تهدمها ، فارجعْ إليها فاهدمْها . فرجع خالد وهو متغيّظ . فلمّا انتهى إليها جرّد سيفه ، فخرجت إليه امرأةٌ سوداءُ ، عُريانة ، ناشرة الرأس ، فجعل السادِن يصيح بها . قال خالد : وأخذنى اقشعْرارٌ فى ظهرى . فجعل يصيح :

أيا عُزَّ شُدّى[2] شَدّةً لا تُكذّبى   على خالدٍ[3] ألقِى القِناعَ وشَمّرى
أيا عُزَّ إن لم تقتلى المرءَ خالدًا   فبوئى[4] بذَنْبٍ عاجلٍ أو تَنَصّرى

(١) يلملم : موضع على ليلتين من مكة . وقال المرزوقى : هو جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث ، وقيل هو واد هناك . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٥١٤) .
(٢) فى الأصل : « أعزى شددى شدة » ، ولا يستقيم به الوزن . وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٧٩) .
(٣) فى الأصل : « أعزى » ؛ وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٧٩)
(٤) فبوئى : أى ارجعى . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨٤) .

قال : وأقبل خالد بالسيف إليها وهو يقول :

يا عُزَّ كُفْرَانَكِ لاَ سُبْحانَكِ[١]   إنى وجدت[٢] اللهَ قد أهانَكِ

قال : فضربها بالسيف فجزَّلها[٣] باثنين ، ثم رجع إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبره ، فقال : نعم ، تلك العُزَّى وقد يئست أن تُعبَد ببلادكم أبدًا . ثم قال خالد : أى رسولَ الله ! الحمد لله الذى أكرمنا وأنقذنا من الهَلَكَة ! إنى كنت أرى أبى يأتى إلى العُزَّى بِحتره[٤] ؛ مائة من الإبل والغنم ، فيذبحها للعُزَّى ، ويُقيم عندها ثلاثاً ثم ينصرف إلينا مسروراً ، فنظرت إلى ما مات عليه أبى ، وذلك الرأى الذى كان يُعاش فى فضله ، كيف خُدع حتى صار يذبح لحَجَرٍ لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يضرّ ولا ينفع . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ هذا الأمر إلى الله ، فمن يسّره للهُدَى تيسّر ، ومن يسّره للضَّلالة كان فيها . وكان هدْمها لخمس ليالٍ بقين من رمضان سنة ثمان . وكان سادِنها أفلح بن نَضْر الشَّيبانىّ من بنى سُلَيم ، فلمّا حضرته الوفاة دُخل عليه وهو حزين ، فقال له أبو لَهَب : مالى أراك حزيناً ؟ قال : أخاف أن تضيع العُزَّى من بعدى . قال له أبو لَهَب : فلا تَحْزَنْ ، فأنا أقوم عليها بعدك . فجعل كلّ من لقى قال : إن تظهر العُزَّى كنتُ قد اتَّخذتُ يدًا عندها بقيامى عليها . وإن يظهر محمّد على العُزَّى ــ ولا أراه يظهر ــ فابن أخى ! فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾[٥] ؛ ويقال إنه قال هذا فى اللاَّت . وقال حسّان بن ثابت . . . .

(١) فى الأصل : « كفراً بك لا سبحانك » ؛ وما أثبتناه عن ابن كثير ، يرويه عن الواقدى . (البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٣١٦) .

(٢) فى ابن كثير ، عن الواقدى : « إنى رأيت » . (البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٣١٦) .

(٣) فى الأصل : « فجدلها » ؛ والمثبت من ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٥) . وجزل : أى قطع . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٢ ، ص ٤١٥) .

(٤) الحتر ، بالكسر : العطية اليسيرة . وبالفتح : المصدر . (الصحاح ، ص ٦٢٢) .

(٥) سورة ١١١ المسد ١

باب ذكر من قُتل من المسلمين يوم الفتح

رجلان أخطآ الطريق ، كُرز بن جابر الفِهْرىّ . وخالد الأشعر ، من بنى كعب .

وقُتل من المشركين صبرًا بالسيف ابنُ خَطَل ، قتله أبو بَرْزَة ؛ والحُوَيْرِث ابن نُقَيذ[١] ، قتله عَلىّ بن أبى طالب عليه السلام ؛ ومِقْيَس بن صُبابة ، قتله نُمَيلة . وقُتل من المشركين بالخَنْدَمَة أربعة وعشرون قتيلاً .

غزوة بنى جَذيمة

قال : حدّثنى عبد الرحمن بن عبد العَزيز ، عن حَكيم بن عَبّاد بن حُنَيف ، عن أبى جَعفر ، قال : لمّا رجع خالد بن الوليد من هَدْم العُزّى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وهو مُقيم بمكّة ، بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بنى جَذيمة ، وبعثه داعياً لهم إلى الإسلام ولم يبعثه مُقاتلاً . فخرج فى المسلمين منْ المهاجرين والأنصار وبنى سُلَيم ؛ فكانوا ثلثمائة وخمسين رجلاً ، فانتهى إليهم بأسفلِ مكّة ، فقيل لبنى جَذيمة : هذا خالد بن الوليد معه المسلمون . قالوا : ونحن قومٌ مسلمون ، قد صلّينا وصدّقنا بمحمّدٍ ، وبنينا المساجد وأذّنّا فيها . فانتهى إليهم خالد فقال : الإسلام ! قالوا : نحن مسلمون ! قال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إنّ بيننا وبين قومٍ من العرب عَداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح لأن ندفع عن أنفسنا مَن خالف دين الإسلام . قال : فضَعُوا السلاح ! فقال لهم رجلٌ

(١) فى الأصل : « نفيل » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ٩٨) . وعن البلاذرى أيضاً . (أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٣٥٧) .

منهم يقال له جَحْدَم : يا بنى جَذِيمة ، إنه واللهِ خالد ! وما يطلب محمّد من أحدٍ أكثر من أن يُقرّ بالإسلام . ونحن مُقرّون بالإسلام ؛ وهو خالد لا يُريد بنا ما يُراد بالمسلمين ، وإنه ما يَقْدِر مع السلاح إلاّ الإسار ، ثم بعد الإسار السيف ! قالوا : نُذَكِّرك الله . تَسُومنا . فأَبى يُلقى[1] سيفه حتى كلّموه جميعاً فألقى سيفه وقالوا : إنا مسلمون والناس قد أسلموا ، وفتح محمّد مكّة ، فما نخاف من خالد ؟ فقال : أما واللهِ ليأْخذنّكم بما تعلمون من الأَحقاد القديمة . فوضع القوم السلاح . ثم قال لهم خالد : استأْسروا ! فقال جَحْدَم : يا قوم ، ما يُريد من قومٍ مسلمين يستأْسرون ! إنما يُريد ما يُريد ، فقد خالفتمونى وعصيتم أمرى ، وهو واللهِ السيف . فاستأْسر القوم . فأَمر بعضُهم يَكْتِف بعضاً ، فلمّا كُتِفوا دفع إلى كلّ رجلٍ من المسلمين الرجل والرجلين ؛ وباتوا فى وَثاقٍ ، فكانوا إذا جاء وقت الصلاة يُكلّمون المسلمين فيُصلّون ثم يُربَطون . فلمّا كان فى السَّحَر . والمسلمون قد اختلفوا بينهم ، فقائل يقول : ما نُريد بأَسرهم ، نذهب بهم إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . وقائلٌ يقول : ننظر هل يسمعون أو يُطيعون . ونَبْلُوهم ونَخْبُرهم . والناس على هذين القولين ، فلمّا كان فى السَّحَر نادى خالد بن الوليد : من كان معه أسيرٌ فلْيُذَافِّهِ ــ والمُذافّة : الإجهاز عليه بالسيف . فأمّا بنو سُلَيم فقتلوا كلّ مَن كان فى أيديهم . وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أساراهم .

قال : فحدّثنى موسى بن عُبَيدة ، عن إياس بن سلَمَة ، عن أبيه ، قال : كنت مع خالد بن الوليد وكان فى يدى أسير . فأرسلته وقلت : اذهب حيث شئتَ ! وكان مع أُناسٍ من الأنصار أسارى فأرسلوهم .

---

(١) فى الأصل : « فأبى ملق » .

قال : وحدّثنى عبد الله بن نافع ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، قال : وأرسلت أسيرى ، وما أُحبّ أنّى قتلته وأن لى ما طلعت عليه شمس أو غَرَبت ، وأرسل قومى معى من الأنصار أسراهم .

قال : حدّثنى مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، عن سالم ، عن ابن عمر ، قال : لمّا نادى خالد « من كان معه أسير فليُذَافّه » أرسلتُ أسيرى .

قال : حدّثنى عبد الله بن يَزيد ، عن ضَمْرَة بن سَعيد ، قال : سمعت أبا بَشير المازنىّ يقول : كان معى أسير منهم . قال : فلمّا نادى خالد « مَن كان معه أسير فليُذَافّه » أخرجت سيفى لأضربَ عنقه ، فقال لى الأسير : يا أخا الأنصار ، إنّ هذا لا يفوتك ، انظر إلى قومك ! قال : فنظرتُ فإذا الأنصار طُرًّا قد أرسلوا أساراهم . قال : قلت : انطلق حيث شئتَ ! فقال : بارك الله عليكم ، ولكن مَن كان أقربَ رَحِماً منكم قد قتلونا ! بنو سُلَيم .

قال : فحدّثنى إسحاق بن عبد الله ، عن خارجة بن زيد بن ثابت قال : لمّا نادى خالد بن الوليد فى الأسرى يُذَافّون ، وَثَبتْ بنو سُلَيم على أسراهم فذافّوهم — وأمّا المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم — غضب خالدٌ على من أرسل من الأنصار ، فكلّمه يومئذٍ أبو أُسَيد الساعدىّ وقال : اتّقِ اللهَ يا خالد ، واللهِ ما كنّا لنقتلَ قوماً مسلمين ! قال : وما يُدريك ؟ قال : نسمع إقرارهم بالإسلام ، وهذه المساجدُ بساحتهم .

قال : حدّثنى عبد الله بن يزيد بن قُسَيط ، عن أبيه ، عن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبى حَدْرَد ، عن أبيه ، قال : إنا فى الجيش وقد كُتِفت بنو جَذيمة ، أُمِر بعضهم فكَتَف بعضاً . فقال رجلٌ من الأسرى : يا فتى !

فقلت : ما تُريد؟ قال: هل أنت آخذٌ برُمَّتى[١] هذه فمُقدِّمى إلى النِّسيَّات ، ثم رادِّى ففاعلٌ بى ما فُعل بأصحابى ؟ قال : قد سألتَ يسيرًا . قال : وأخذت برُمَّته فانتهيت به إلى النِّسوة . فلمّا انتهى إليهنّ كلَّم امرأةً منهنّ ببعض ما يُريد . قال : ثم رجعتُ به حتى رددته فى الأسرى ، فقام بعضهم فضرب عنقه .

ويقال : إنَّ فتى من بنى جَذيمة أدركه الجيش عشيّةً ، فنادى فى القوم فكُفَّ عنه ، وكان الذين يطلبونه[٢] بنو سُلَيم ، وكانوا عليه متغيّظين فى حروبٍ كانت بينهم ببُرْزَة[٣] وغيرها ، وكانت بنو جَذيمة قد أصابوهم ببُرْزَة وهم مَوتورون يُريدون القَوَد منهم ، فشَجُعوا عليه ، فلمّا لم يرَ إلاّ أنهم يقتلونه شدّ عليهم فقتل منهم رجلاً ، ثم شدّ عليهم ثانيةً فقتل منهم آخر ، ثم جاء الظلام فحال بينهم ، ووجد الفتى فُرْجَة ، حتى إذا كان الغداة جاء وقد قتل من القوم رجلين ، والنساءُ والذُّرِّيّة فى يد خالد ، فاستأمن فعرض فرسه ، فلمّا نظروا إليه قالوا : هذا الذى صنع بالأمس ما صنع ، فناوشوه عامّةَ النهار ثم أعجزهم وكرّ عليهم ، فقال : هل لكم أن أنزل ، على أن تُعطونى عَهْدًا وميثاقاً لتصنعُنّ بى ما تصنعون بالظُّعُن ؛ إن استحييتموهنّ استُحييتُ وإن قتلتموهنّ قُتلت ؟ قالوا : لك ذلك . فنزل بعَهْد الله وميثاقه ، فلمّا نزل قالت بنو سُلَيم : هذا صاحبنا الذى فعل بالأمس ما فعل . قالوا : انطلقوا به إلى الأسرى من الرجال ، فإن قتله خالدٌ فهو إمامٌ ونحن له تَبَعٌ ، وإن عفا عنه كان كأحدهم . فقال بعضهم : إنما جعلنا له العَهْد والميثاق أن يكون مع الظُّعُن ، وأنتم تعلمون

(١) الرمة : قطعة من الحبل . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ١٢٢) .
(٢) فى الأصل : « الذى يطلبونه » .
(٣) فى الأصل : « ببرده » . وبرزة : موضع فى ديار بنى كنانة ، وفى هذا الموضع أوقعت بنو فراس بن مالك من بنى كنانة ببنى سليم . (معجم ما استعجم ، ص ١٥٢) .

أنَّ خالدًا لا يقتل الظُّعُن ، إمّا يقسمهنَّ وإمّا يعفو عنهنَّ . قال الفتى : فإذا فعلتم بى ما فعلتم ، فانطلقوا بى إلى نُسَيّاتٍ هناك ، ثم اصنعوا بى ما بدا لكم . قال : ففعلوا ، وهو مكتوفٌ برُمَّة ، حتى وقف على امرأةٍ منهنَّ ، فأخلد إلى الأرض وقال : أسلِمى حُبَيْش على نَفَد العيش[1]! لا ذَنْبَ لى ! قد قلت شعرًا :

أثيبِى[2] بوُدٍّ قبل أن تَشْحَط[3] النَّوَى ... ويَنْأَى الأَميرُ بالحبيبِ المُفارِقِ
ألم يَكُ حَقًّا أن يُنَوَّلَ عاشِقٌ ... تَكلَّف إدلاجَ[4] السُّرَى والوَدائِقِ[5]
أَلَمْ أكُ قد طالبتُكم فلقيتُكمْ ... بحَلْيَةَ[6] أو أدركتُكم بالخَوانِقِ[7]
فإنِّىَ لا ضيّعتُ سِرَّ أمانة ... ولا راق عينى بعدَكِ اليومَ رائقُ
سوى أنَّ ما نال العشيرةَ شاغلٌ ... لَنا عنكِ إلاَّ أن يكونَ التوامُقُ

أنشدَنيها ابن قُسَيط. وابن أبى الزِّناد .

قال : فحدّثنى عبد الله بن أبى حُرَّة ، عن الوليد ، عن سَعيد ، عن حَنْظَلَة بن عَلِىّ ، قال : أقبلت امرأةٌ يومئذٍ بعد أن ضربتُ عنقه . يقول :

(١) فى الأصل : « أسلم حبيس على بعد العيش » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٧) . وعلى نفد العيش : يريد على تمامه ، من قولك نفد الشىء إذا تم . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨١) .

(٢) فى الأصل : « أبينى » ، وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٧) . وعن ابن إسحاق أيضاً . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٧٦) .

(٣) تشحط : أى تبعد ، والشحط : البعد . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨١) .

(٤) الإدلاج : سير الليل كله . (لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٩٧) .

(٥) الودائق : جمع وديقة ، وهى شدة الحر . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨١) .

(٦) كلمة غامضة فى الأصل ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٧) . وعن ابن إسحاق أيضاً . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٧٦) . وحلية : واد بتهامة ، أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة . (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣١) .

(٧) فى الأصل : « الحوانق » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٧) . وعن ابن إسحاق أيضاً . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٧٦) . والخوانق : بلد فى ديار فهم . (معجم ما استعجم ، ص ٣٢٧) .

ثم وضعتْ فاها على فيه فالتقَمتْه ، فلم تزل تُقبّله حتى ماتت .

قال : حدّثنى عبد الله بن زيد ، عن إياس بن سَلَمَة ، عن أبيه ، قال : لمّا قدم خالد بن الوليد على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عاب عبدُ الرحمن بن عَوْف على خالدٍ ما صنع ، قال : يا خالد ، أخذتَ بأمر الجاهليّة ! قتلتَهم بعمّك الفاكِه ، قاتلك الله ! قال : وأعانه عمر بن الخطّاب على خالد ، فقال خالد : أخذتُهم بقَتْل أبيك ! فقال عبد الرحمن : كذبتَ واللهِ ، لقد قتلتُ قاتل أبى بيدى وأشهدتُ على قَتْله عثمانَ بن عفّان . ثم التفت إلى عثمان فقال : أنشدك اللهَ ، هل علمتَ أنى قتلتُ قاتل أبى ؟ فقال عثمان : اللّهمّ ، نعم . ثم قال عبد الرحمن : وَيْحك يا خالد ، ولو لم أقتل قاتل أبى كنتَ تقتل قوماً مسلمين بأبى فى الجاهليّة ؟ قال خالد : ومَن أخبرك أنهم أسلموا ؟ فقال : أهل السريّة كلّهم يُخبروننا أنك وجدتهم قد بنَوا المساجد وأقرّوا بالإسلام ، ثم حملتَهم على السيف . قال : جاءنى رسولُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أُغير عليهم ، فأغرت بأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . فقال عبد الرحمن : كذبتَ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ! وغالظ عبد الرحمن ، وأعرض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن خالد وغضب عليه ، وبلغه ما صنع بعبد الرحمن فقال : يا خالد ، ذَرُوا لى أصحابى ! متى يُنْكَ أَنْفُ المرء يُنْكَ ! لو كان أُحُدٌ ذَهَباً تُنفقه قيراطاً قيراطاً فى سبيل الله لم تُدرك غَدْوَةً أو رَوْحَةً من غَدَوات أو رَوَحات عبد الرحمن بن عَوْف !

قال : حدّثنى عبد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : قال عمر لخالد : وَيْحك يا خالد ، أخذتَ بنى جَذيمة بالذى كان من أمر الجاهليّة ! أَوَ ليس الإسلام قد محا ما كان قبله فى الجاهليّة ؟ فقال : يا أبا حَفص ، واللهِ ما أخذتُهم إلّا بالحقّ ! أغرتُ على قوم مشركين

وامتنعوا ، فلم يكن لى بُدّ – إذ امتنعوا – من قتالهم ، فأسرتُهم ثم حملتُهم على السيف . فقال عمر : أىّ رجلٍ تعلم عبدَ الله بن عمر ؟ قال : أعلمُه واللهِ رجلاً صالحاً . قال : فهو أخبرنى غير الذى أخبرتَنى ، وكان معك فى ذلك الجيش . قال خالد : فإنى أستغفر اللهَ وأتوب إليه . قال : فانكسر عنه عمر ، وقال : وَيْحك ، ايتِ رسول الله يستغفرْ لك !

قال : حدّثنى يحيى بن عبد الله بن أبى قَتادة ، عن أهله ، عن أبى قَتادة ، وكان فى القوم ، قال : لمّا نادى خالد فى السَّحَر « مَن كان معه أسير فلْيُذَافّه » أرسلتُ أسيرى وقلت لخالد : اتّقِ اللهَ ، فإنك ميّت ! وإنّ هؤلاء قوم مسلمون ! قال : يا أبا قَتادة ، إنه لا عِلْمَ لك بهؤلاء . قال أبو قَتادة : فإنما يُكلّمنى خالدٌ على ما فى نفسه من التِّرَة عليهم .

قالوا : فلما بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ما صنع خالد بن الوليد رفع يديه حتى رُؤى بياضُ إبطَيْه ، وهو يقول : اللّهمّ ، إنى أبْرَأُ إليك ممّا صنع خالد ! وقدم خالد والنبىّ صلّى الله عليه وسلّم عاتبٌ .

قال : حدّثنى مَعْمَر ، عن الزّهرىّ ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عَوْف ، عن أبيه ، قال : كان بين عبد الرحمن بن عَوْف وخالدٍ كلام ، فأعرض عنه عبد الرحمن ، فمشى خالدٌ بعثمان بن عَفّان إلى عبد الرحمن ، فاعتذر إليه حتى رضى عنه فقال : استغفرْ لى يا أبا محمّد !

قالوا : ودخل عَمّار على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله ، لقد حَمَش قوماً[1] قد صلّوا وأسلموا . ثم وقع بخالدٍ عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وخالدٌ جالسٌ لا يتكلّم . فلمّا قام عَمّار وقع به خالدٌ ، فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : مَهْ يا خالد ! لا تقع بأبى اليقظان ، فإنه

(١) حمش القوم : ساقهم بغضب . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٧٠) .

من يُعادِه يُعادِه الله ، ومَن يُبْغِضه يُبْغِضه الله ، ومَن يُسفِّهْه يُسفِّهْه الله .

قالوا : فلمّا فتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة استقرض مالاً بمكّة ، ودعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عَليًّا عليه السلام فأعطاه مالاً ، فقال : انطلق إلى بنى جَذيمة واجعل أمر الجاهليّة تحت قَدَمَيك . فَدِ[1] لهم ما أصاب خالد بن الوليد . فخرج عَلِىٌّ عليه السلام بذلك المال حتى جاءهم ، فَوَدى لهم ما أصاب خالدٌ ، ودفع اليهم مالهم . وبقى لهم بقيّة المال . فبعث علىٌّ عليه السلام أبا رافع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليستزيده ، فزاده مالاً ، فوَدَى لهم كلَّ ما أصاب ، حتى إنه لَيَدِى لهم مِيلَغَة[2] الكلب . حتى إذا لم يبق لهم شىءٌ يطلبونه بقى مع عَلِىٍّ عليه السلام بقيّة من المال . فقال عَلِىٌّ عليه السلام : هذه البقيّة من هذا المال لكم من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا أصاب خالدٌ ، ممّا لا يَعلمه ولا تَعلمونه . فأعطاهم ذلك المال ، ثم انصرف إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبره . ويقال إنما المال الذى بعث به مع عَلِىٍّ عليه السلام كان استقرضه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من ابن أبى رَبيعة ، وصَفوان بن أُمَيّة ، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى ، فبعث مع عَلِىٍّ عليه السلام . فلمّا رجع عَلِىٌّ دخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما صنعتَ يا عَلِىّ ؟ فأخبره وقال : يا رسول الله . قدمنا على قوم مسلمين ، قد بنوا المساجد بساحتهم . فوَدَيت لهم كلّ من قتل خالدٌ حتى مِيلَغَة الكلاب ، ثم بقى معى بقيّة من المال فقلت : هذا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مما لا يَعلمه ولا تَعلمونه . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أصبتَ ! ما أمرتُ خالدا بالقتل . إنما أمرته بالدُّعاء . وكان رسول الله صلّى

(١) فى الأصل : « فدى » .
(٢) فى الأصل : « مبلغة » . والميلغة : الإناء الذى يلغ فيه الكلب . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٣٠) .

الله عليه وسلَّم لا يُقبل على خالد ، ويُعرض عنه ، وخالدٌ يتعرّض لرسول الله صلّى الله عليه وسلَّم ، ويحلف ما قتلهم على تِرَةٍ ولا عَداوة . فلمّا قدم عَلَىٌّ ووَدَاهم أقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على خالد ، فلم يزل عنده من عِلية أصحابه حتى تُوفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم .

قال : حدّثنى عبد الله بن جَعفر ، عن عُثمان بن محمّد الأَخنسىّ ، عن عبد المَلِك بن أبى بكر بن عبد الرحمن ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا تَسُبّوا خالدَ بن الوليد ، فإنما هو سيف من سيوف الله ، سَلّه على المشركين !

قال : وحدّثنى محمّد بن حَرْب ، عن أبى بكر بن عبد الله ، عن أبى الأَحوص ، عن النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، قال : نِعم عبدُ الله خالدُ بن الوليد ، وأخو العشيرة ، وسيفٌ من سيوف الله ، سَلّه على الكُفّار والمنافقين !

قال : وحدّثنى يوسف بن يعقوب بن عُتبة ، عن عثمان بن محمّد الأَخنسىّ ، عن عبد المَلِك بن عبد الرحمن بن الحارث ، قال : أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد يُغير على بنى كِنانة ، إلّا أن يسمع أذاناً أو يعلم إسلاماً ، فخرج حتى انتهى إلى بنى جَذيمة فامتنعوا أشدّ الامتناع ، وقاتلوا وتلبّسوا السلاح ؛ فانتظر بهم صلاة العصر والمغرب والعشاء لا يسمع أذاناً ، ثم حمل عليهم فقتل مَن قتل وأسر مَن أسر ، فادّعَوا بعدُ الإسلامَ . قال عبد المَلِك : وما عتَب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى ذلك [على خالد] ولقد كان المُقَدَّم حتى مات . ولقد خرج معه بعد ذلك إلى حُنَين على مُقدّمته ، وإلى تَبوك ، وبعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى أُكَيْدِر ودُومة الجَنْدَل ، فسَبَى مَن سَبى ثم صالحهم ؛ ولقد بعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى بَلْحارث بن كعب إلى نَجران أميرًا

وداء إلى الله ، ولقد خرج مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى حَجَّة الوداع ، فلمّا حلق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رأْسه أعطاه ناصيته ، فكانت فى مُقدَّم قَلَنْسُوَته ، فكان لا يأتى أحدًا إلاَّ هزمه اللهُ تعالى ؛ ولقد قاتل يومَ اليَرموك فذهبت قَلَنْسُوَته ، فجعل يقول : القَلَنْسُوَة ! القَلَنْسُوَة ! فقيل له بعد ذلك : يا أبا سليمان ، عجبا لطلبك القَلَنْسُوَة وأنت فى حَوْمَة القتال ! فقال : إن فيها ناصيةَ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولم ألق بها أحدًا إلاَّ وَلَّى . ولقد توفّى خالد يوم تُوفّى ، وهو مُجاهد فى سبيل الله ، وَقَبْرُه بحِمْص ؛ فأخبرنى من غسّله وحضر موته ، ونظر إلى ما تحت ثيابه ، ما فيه مَصَحّ ؛ ما بين ضربة بسيفٍ أو طعنةٍ برمْحٍ أو رَمْيَةٍ بسهمٍ . ولقد كان عمر بن الخطّاب الذى بينه وبينه ليس بذلك ، ثم يذكره بعدُ فيترحّم عليه ويتندّم على ما كان صنع فى أمره ، ويقول : سيف من سيوف الله تعالى ! ولقد نزل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حين هبط من لَفْت[1] فى حَجَّته ؛ ومعه رجلٌ ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : مَن هذا ؟ فقال الرجل: فلان . قال : بئس عبدُ الله فلان ! ثم طلع آخر فقال: مَن الرجل؟ فقال: فلان . فقال : بِئسَ عبدُ الله فلان ! ثم طلع خالد بن الوليد فقال : مَن هذا ؟ قال : خالد ابن الوليد . قال : نِعمَ عبدُ الله خالدُ بن الوليد ! وقال رجلٌ من بنى جَذيمة ثُمَّ قال : سمعت خالد بن إلياس يقول : بلغنا أنه قتل منهم قريباً من ثلاثين رجلاً

(معجم البلدان)

غزوة حُنَين

حدّثنا أبو عبد الله محمّد بن شُجاع الثَّلجيّ قال : حدّثنا الواقديّ قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله ، وعبد الله بن جَعفر ، وابن أبى سَبْرَة ، ومحمّد بن صالح ، وأبو مَعْشَر ، وابن أبى حَبيبة ، ومحمّد بن يحيى بن سَهْل ، وعبد الصَّمَد بن محمّد السَّعديّ ، ومُعاذ بن محمّد ، وبُكَير بن مِسمار ، ويحيى بن عبد الله بن أبى قَتادة ؛ فكلٌّ قد حدّثنا بطائفة ، وغير هؤلاء حدّثنا ممّن لم أُسَمِّ . أهل ثقة . فكلٌّ قد حدّثنا بطائفة من هذا الحديث ، وبعضهم أوعى له من بعض . وقد جمعت كلّ ما قد حدّثونى به .

قالوا : لمّا فتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة مشت أشراف هَوازن بعضها إلى بعض ، وثقيفٌ بعضها إلى بعض ، وحَشَدوا وبَغَوْا وأظهروا أن قالوا : واللهِ ما لاقى محمّدٌ قوماً يُحسنون القتال ، فأَجمِعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم . فأَجمعت هَوازِن أمرها وجمعها مالك بن عَوْف[1] ــ وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ــ وكان سيّدًا فيها . وكان مُسْبِلاً[2] ، يفعل فى ماله ويُحمَد . فاجتمعت هوازن كلّها ، وكان فى ثَقيف سيّدان لها يومئذٍ : قارب بن الأَسود بن مَسعود فى الأَحلاف ، هو [الذى] قادها ؛ وفى بنى مالك ذو الخِمار سُبَيع بن الحارث ــ ويقال الأَحمر بن الحارث ــ وهو الذى قادها مُوالياً[3] ثَقيفاً ؛ فأَوعبت كلّها مع هَوازِن ، وقد أجمعوا المسير إلى محمّد ، فوجد ثَقيفاً إلى ذلك سِراعاً ، فقالوا : قد كنّا نَهُمّ بالمسير إليه ، ونكره أن

(١) أى « مالك بن عوف النصرى » كما فى ث ، وسيأتى بعد .

(٢) المسبل : هو الذى يطول ثوبه ويرسله إلى الأرض إذا مشى ، وإنما يفعل ذلك كبراً واختيالا . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٤٥) .

(٣) فى الأصل : « والياً » .

يسير إلينا . ومع ذلك لو سار إلينا لوجد حصناً حصيناً نُقاتل دونه ، وطعاماً كثيراً ، حتى نُصيبه أو ينصرف . ولكنّا لا نُريد ذلك ، ونسير معكم ونكون يداً واحدة . فخرجوا معهم . قال غَيلان بن سَلَمة الثَّقفيّ لبنيه ، وهم عشرة : إنى أُريد أمراً كائنةٌ له أُمور ، لا يشهدها رجلٌ منكم إلّا على فرسه . فشهدها عشرة من ولده على عشرة أفراس ، فلمّا انهزموا بأَوْطاس هربوا ، فدخلوا حصن الطائف فغلّقوه . وقال كِنانة بن عبد ياليل : يا معشر ثَقيف ، إنكم تخرجون من حصنكم وتسيرون إلى رجلٍ لا تدرون أيكون لكم أم عليكم ، فمُروا بحصنكم أن يُرَمّ ما رثّ منه ، فإنكم لا تدرون لعلّكم تحتاجون إليه . فأمروا به أن يُصلَح ، وخلّفوا على مَرَمّته رجلاً وساروا . وشهدها ناسٌ من بنى هِلال ليسوا بكثيرٍ ، ما يبلغون مائة . ولم يحضرها من هوازن كعب ولا كِلاب . ولقد كانت كِلاب قريبة . فقيل لبعضهم : لِمَ تركَتْها كِلاب فلم تَحضرها ؟ فقال : أما واللهِ إن كانت لَقريبة ، ولكن ابن أبى البَراء مشى فنهاها عن الحضور فأطاعته . وقال : والله ، لو ناوأ محمّداً[1] مَن بين المشرق والمغرب لظهر عليه[2] .

ونصرها دُرَيد بن الصِّمّة فى بنى جُشَم ، وهو يومئذٍ ابن ستّين ومائة سنة ، شيخٌ كبيرٌ ليس فيه شىءٌ إلّا التيمّن به ومعرفته بالحرب ، وكان شيخاً مُجَرِّباً ، وقد ذهب بصره يومئذٍ . وجماع الناس ، ثقيف وغيرها من هوازن ، إلى مالك بن عوف النَّصرىّ ، فلمّا أجمع مالك المسير بالناس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمر الناس فجاءوا معهم بأموالهم ونسائهم وأبنائهم حتى نزلوا بأَوْطاس . واجتمع الناس به فعسكروا وأقاموا به . وجعلت الأمداد

(١) فى الأصل : « محمد »

(٢) فى الأصل : « عليها » .

تأْتيهم من كلّ ناحية . ودُرَيد بن الصِّمَّة يومئذ فى شِجارٍ[1] يُقاد به على بعيرٍ ، فمكث على بعيره ، فلمّا نزل الشيخ لمس الأَرض بيده ، فقال : بأَىّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأَوْطاس . قال : نِعم مَجَالُ الخيل ! لاحَزْنٌ ضَرِسٌ[2] ، ولا سَهْلٌ دَهِسٌ[3] ! مالى أَسمعُ رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وثُغاء الشاء ، وخُوار البقر ، وبُكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالِكٌ من الناس أبناءهم ونساءهم وأموالَهم . قال : يا معشر هَوازِن ، أَمعكم من بنى كِلاب بن رَبيعة أحدٌ ؟ قالوا : لا . قال : فمعكم من بنى كعب بن رَبيعة أحدٌ ؟ قالوا : لا . قال : فهل معكم من بنى هِلال بن عامر أحدٌ ؟ قالوا : لا . قال دُرَيد : لو كان خيرًا ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذِكرًا أو شرفاً ما تخلّفوا عنه ؛ فأَطيعونى يا معشر هَوازن ، وارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء ! فأَبَوا عليه . قال: فمَن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعَوف بن عامر . قال : ذانك الجَذَعان[4] من عامر ، لا يَضُرّان ولا يَنفَعان ! ثم قال : أين مالِك؟ قالوا : هذا مالِك . فدعا له فقال : يا مالِك ، إنك تُقاتل رجلاً كريماً ، وقد أصبحتَ رئيس قومك ، وإنّ هذا اليوم كائنٌ لما بعده من الأَيّام ! يا مالِك ، ما لى أسمع رُغاء البعير ، ونُهاق الحمير ، وخُوار البقر ، وبُكاء الصغير ، وثُغاء الشاء ؟ قال مالِك : سقتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم . قال دُرَيد : ولِمَ ؟ قال مالِك : أردت أن أجعل خلفَ كلّ رجلٍ أهله وماله وولده ونساءه حتى

(١) فى الأصل : « شجار » ؛ والتصحيح عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٨٠) . والشجار : مركب مكشوف دون الهودج . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٠٦) .

(٢) الحزن : المرتفع من الأرض . والضرس : الذى فيه حجارة محددة . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨٤) .

(٣) دهس : أى لين ، كثير التراب . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨٤) .

(٤) الجذعان : يريد أنهما ضعيفان فى الحرب ، بمنزلة الجذع فى سنه . (شرح أبى ذر ، ص٣٨٤) .

يُقاتل عنهم[١] . قال : فأنقض[٢] بيده . ثم قال : راعى ضأنٍ . ما له وللحرب ؟ وهل يردّ المُنهزِمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلاّ رجلٌ بسيفه ورمحه . وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلك ومالك ! ثم قال : ما فعلتْ كعبٌ وكِلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحدٌ . قال : غابَ الجدّ والحَدّ . ولو كان يوم رِفْعَةٍ وعَلاءٍ لم تَغِبْ عنه كعبٌ ولا كِلاب . يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديم بَيْضَة[٣] هَوازِن إلى نُحور الخيل شيئاً . فإذا صنعتَ ما صنعتَ فلا تَعصِنى فى هذه الخُطَّة : ارفعْهم إلى مُمْتَنَع بلادهم وعُلْيا قومهم وعزهم ، ثم الْقَ القوم على مُتون الخيل . فإن كانت[٤] لك لَحِق بك مَن وراءك ، وكان أهلُك لا خَوْف عليهم . وإن كانت عليك ألْفاك ذلك وقد أحرزتَ أهلَك ومالَك . فغضب مالِكٌ من قوله وقال : واللهِ لا أفعل ، ولا أُغيّر أمرًا صنعتُه . إنك قد كَبِرتَ وكَبِر عِلْمُك . وحدث بعدك مَن هو أبصر بالحرب منك ! قال دُرَيد : يا معشرَ هَوازِن . واللهِ ما هذا لكم برأى ! هذا فاضِحكم فى عَورتكم ومُمكِّنٌ منكم عدوَّكم . ولاحقٌ بحصن ثقيف وتارككم . فانصرفوا واتركوه ! فسلَّ مالِكٌ سيفه ، ثم نكَّسه[٥] . ثم قال : يا معشرَ هَوازِن . واللهِ لَتُطيعُنَّنِى أو لأتّكِئَنَّ على السيف حتى يخرج من ظَهْرى ! وكره مالِكٌ أن يكون لدُرَيد فيها ذِكْرٌ ورَأْىٌ . فمشى بعضهم إلى بعضٍ فقالوا : واللهِ ، لئن عصَينا مالِكاً ، وهو شابٌ ، ليقتلنَّ نفسه ونبقى

---

(١) فى الأصل : « حتى يقاتلوا عنه » .

(٢) أى صفق بإحدى يديه على الأخرى حتى يسمع لهما نقيض ، أى صوت . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٧١) .

(٣) بيضة هوازن : جماعتهم . (شرح أبى ذر ، ص ٣٨٥) .

(٤) فى الأصل : « فإن كان لك » .

(٥) نكسه : أى قلبه . (الصحاح ، ص ٩٠٣) .

مع دُرَيد ، شيخ كبير لا قتال فيه ، ابن ستّين ومائة سنة ، وأجمعوا أمرهم مع مالِك ، فلمّا رأى ذلك دُرَيد وأنهم قد خالفوه ، قال : هذا يومٌ لم أشهده ولم أغِبْ عنه :

يا لَيْتَنِى فيها جَذَعْ أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

وكان دُرَيد قد ذُكر بالفروسيّة والشجاعة ، ولم يكن له عشرون سنة ، وكان سيّدَ بنى جُشَم وأوسطَهم نَسَباً ، ولكنّ السِّنَّ أدركته حتّى فَنِىَ فَنَاءً — وهو دُرَيد بن الصِّمَّة بن بكر بن عَلقمة .

قال : حدّثنى مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، قال : افتتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة لثلاث عشرة مضت من رمضان ، وأنزل الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ ﴾[1] قالوا : وكان فتح مكّة يوم الجمعة لعشرٍ بقين من رمضان ، فأقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكّة خمسَ عشرةَ يصلّى ركعتين ، ثم غدا يوم السبت لستّ ليال خلون من شوّال ، واستعمل على مكّة عتّاب بن أسيد يُصلّى بهم ، ومُعاذ بن جَبَل يعلّمهم السُّنَن والفِقْه .

قالوا : وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، عشرة آلاف من أهل المدينة ، وألفين من أهل مكّة ، فلمّا فَصَل[2] قال رجلٌ من أصحابه : لو لقينا بنى شَيبان ما بالَيْنا[3] ، ولا يغلبنا اليومَ أحدٌ من قلّة ، فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾[4] الآية

(١) سورة ١١٠ النصر ١

(٢) فصل : أى خرج . (الصحاح ، ص ١٧٩٠) .

(٣) بالى بالشىء يبالى إذا اهتمّ به . (لسان العرب ، ج ١٨ ، ص ٩١) .

(٤) سورة ٩ التوبة ٢٥

قال : حدّثنى إسماعيل بن إبراهيم ، عن موسى بن عُقبة ، عن الزُّهرىّ ، عن سَعيد بن المُسيِّب ، قال : قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : يا رسول الله ، لا نُغلَب اليومَ من قِلّة . فأنزل الله عزّ وجلّ فى ذلك : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ . . ﴾ الآية .

قال : حدّثنى محمّد بن عبد الله ، عن الزُّهرىّ ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ابن عُتبة ، عن ابن عبّاس ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : خير الأصحاب أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، ولا تُغلَب اثنا عشر ألفًا من قِلّة — كَلِمَتهم واحدة .

قالوا : وخرج مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ناسٌ من المشركين كثيرٌ ، منهم صَفوان بن أُمَيّة ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد استعار منه مائة دِرْعٍ بأداتها كاملة . فقال : يا محمّد ، طوعاً أو كرهاً ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : عاريةٌ مُؤَدَّاة ! وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لصَفوان : اكفِنا حَمْلَها . فحملها صَفوان على إبله حتى انتهَوْا إلى أَوْطاس ، فدفعها إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

حدّثنا مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، عن سِنان بن أبى سِنان الدِّيلىّ ، عن أبى واقد اللَّيثىّ — وهو الحارث بن مالك — قال : خرجنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى حُنَين ، وكانت الكفّار قُرَيش ومَن سواهم من العرب شجرةٌ عظيمةٌ خضراءُ يقال لها ذات أَنْواط[1] ، يأتونها كلَّ سنة يُعلّقون عليها أسلحتهم ، ويذبحون عندها ، يَعكُفون عليها يوماً . قال : فرأينا يوماً ، ونحن نسير مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، شجرةً عظيمةً خضراءَ ، فسترتنا[2]

(١) فى الأصل : « ذات أنوط » . وما أثبتناه هو قراءة ث ، وهو كذلك فى كل المراجع .
(٢) فى الأصل : « فساترتنا » .

من جانب الطريق ، فقلنا : يا رسول الله ، اجعلْ لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال : فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : الله أكبر ! الله أكبر ! قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى : ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١) إنها لَلسنَن . سنَن مَن كان قبلكم .

حدّثنى ابن أبى حَبيبة ، عن داود بن الحُصَين ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه ، قال : كانت ذات أنواط شجرةً عظيمة ، أهل الجاهليّة يذبحون بها ويَعكُفون عليها يوماً . وكان مَن حجّ منهم وضع رداءه عندها ، ويدخل بغير رداء تعظيماً لها ، فلمّا مرّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى حُنَين قال له رَهْطٌ من أصحابه ، فيهم الحارث بن مالك : يا رسول الله ، اجعلْ لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فكبّر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثلاثاً ، وقال : هكذا فعل قوم موسى بموسى .

قال : قال أبو بُرْدَة بن نِيار : لمّا كنّا دون أوطاس نزلنا تحت شجرة ونظرنا إلى شجرة عظيمة ، فنزل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحتها ، وعلّق بها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم سيفه وقوسه . قال : وكنت من أقرب أصحابه إليه . قال : فما أفزعنى إلَّا صوتُه : يا أبا بُرْدَة ! فقلت : لبّيك ! فأقبلتُ سريعاً ، فإذا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم جالسٌ وعنده رجلٌ جالس ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ هذا الرجل جاء وأنا نائمٌ ، فسلّ سيفى ثم قام به على رأسى ففَزِعتُ به ، وهو يقول : يا محمّد ، مَن يُؤمّنك منّى اليوم ؟ قلت : اللهُ ! قال أبو بُرْدَة : فوثبت إلى سيفى فسللته ، فقال

(١) سورة ٧ الأعراف ١٣٨

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : شِمْ[1] سيفك ! قال : قلت : يا رسول الله ، دعنى أضرب عُنُقَ عدوّ الله ؛ فإنَّ هذا من عيون المشركين . قال : فقال لى : اسكت يا أبا بُرْدَة . قال : فما قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شيئاً ولا عاقبه . قال : فجعلت أصيح به فى العسكر ليشهدَه الناس فيقتله قاتلٌ بغير أمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فأمّا أنا فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد كفّنى عن قتله . فجعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : الهُ عن الرجل يا أبا بُرْدَة ! قال : فرجعت إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال : يا أبا بُرْدَة ، إنَّ الله مانِعى وحافِظى حتّى يُظهرَ دينه على الدين كلّه .

قالوا : وانتهى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى حُنَيْن مساء ليلة الثلاثاء لعشر ليالٍ خلون من شوّال . وبعث مالكُ بن عَوف رجالاً من هَوازِن ينظرون إلى محمّد وأصحابه — ثلاثة نَفَر — وأمرهم أن يتفرّقوا فى العسكر ، فرجعوا إليه وقد تفرّقت أوصالُهم . فقال : ما شأْنكم ويلَكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْقٍ ، فوالله ما تماسكْنا أن أصابنا ما ترَى ! وقالوا له : ما نُقاتل أهل الأرض ، إن نُقاتل [إلّا] أهل السموات — وإنَّ أفئدة عيونه تخفُق — وإن أطعتَنا رجعتَ بقومك ، فإنَّ الناس إن رأوا مثل ما رأينا أصابهم مثلُ الذى أصابنا . قال : أُفٍّ لكم ! بل أنتم قومٌ أجبن أهل العسكر . فحبسهم عنده فَرَقاً أن يشيع ذلك الرُّعْب فى العسكر . وقال : دُلّونى على رجلٍ شجاع . فأجمعوا له على رجلٍ ، فخرج ، ثم رجع إليه وقد أصابه نحو ما أصاب مَن قبله منهم ، فقال : ما رأيت ؟ قال : رأيت رجالاً بيضاً على

(١) شم سيفك : أى أغمده . (الصحاح ، ص ١٩٦٣) .

خيلٍ بُلْقٍ ، ما يُطاق النظر إليهم ؛ فوالله ما تماسكتُ أن أصابنى ما ترى ! فلم يَثْنِه ذلك عن وَجهه .

قالوا : ودعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ابن أبى حَدْرَد[1] الأسلمىّ فقال : انطلق فادخل فى الناس حتّى تأتى بخبرٍ منهم . وما يقول مالكٌ. فخرج عبد الله فطاف فى عسكرهم ، ثم انتهى إلى ابن عَوْف فيجد عنده رؤساء هَوازِن ، فسمعه يقول لأصحابه : إنّ محمّدًا لم يُقاتل قطّ قبل هذه المرّة ، وإنما كان يلقى قوماً أغمارًا لا عِلمَ لهم بالحرب فيُنصَر عليهم ؛ فإذا كان فى السَّحَر فصُفّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم مِن ورائكم . ثم صفّوا صفوفكم . ثم تكون الحملة منكم ، واكسِروا جُفون[2] سيوفكم فتلقَونه بعشرين ألف سيف مكسور الجَفْن[3] ، واحملوا حملةَ رجلٍ واحدٍ . واعلموا أنّ الغلبة لمن حمل أوّلاً ! فلما وعى ذلك عبد الله بن أبى حَدْرَد رجع إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبر بكلّ ما سمع . فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فأخبره بما قال . فقال : كذب ابن أبى حَدْرَد . فقال ابن أبى حَدْرَد : لئن كذّبتَنى لربّما كذّبت بالحقّ ! فقال : يا رسول الله ، اسمعْ[4] ما يقول ابن أبى حَدْرَد ! قال : صدق . كنتَ ضالًّا فهداك الله !

قالوا : وكان سَهل بن الحَنظليّة الأنصارىّ يقول : سرنا مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى غزوة هَوازِن ، فأسرع السير حتى أتاه رجلٌ فقال :

---

(١) فى الأصل : « أبى جدرد » . وما أثبتناه عن كل مراجع السيرة الأخرى .

(٢) جفون : جمع جفن ، وهو غمد السيف . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٠٩) .

(٣) فى الزرقانى ، عن الواقدى : « مكسورة الجفون » . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٨) .

(٤) فى الزرقانى ، عن الواقدى : « ألا تسمع » . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٩) .

يا رسول الله ، قد تقطّعوا من ورائك ! فنزل فصلّى العصر ، وأوى إليه الناس فأمرهم فنزلوا ، وجاءه فارسٌ فقال : يا رسول الله ، إنى انطلقت [من] بين أيديكم على جبل كذا وكذا . فإذا بهوازن على بَكْرَة أبيها[١] بظُعُنها ونسائها ونَعَمها فى وادى حُنَين . فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال : تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله ! ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ألا فارسٌ يَحرُسنا الليلة ؟ إذ أقبل أُنَيس بن أبى مَرْثَد الغَنَوىّ على فرسه ، فقال : أنا ذا يا رسول الله . فقال : انطلق حتى تقف على جبل كذا وكذا ، فلا تنزلنّ إلّا مُصلّيًا أو قاضىَ حاجة ، ولا تُغَرَّنّ مَن خلفك ! قال : وبتنا حتى أضاء الفجر ، وحضرنا الصلاة ، فخرج علينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : أأحسستم فارسكم الليلة ؟ قلنا : لا والله ! فأُقيمت الصلاة فصلّى بنا ، فلمّا سلّم رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينظر خلال الشجر ، فقال : أبشروا ، قد جاء فارسكم ! وجاء فقال : يا رسول الله ، إنّى وقفت على الجبل كما أمرتنى ، فلم أنزل عن فرسى إلّا مُصلّيًا أو قاضىَ حاجة حتى أصبحت ، فلم أحسّ أحدًا . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : انطلق فانزل عن فرسك ، وأقبِل علينا . فقال : ما على هذا ألاّ يعمل بعد هذا عملاً ؟

قالوا : وخرج رجالٌ من مكّة مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فلم يُغادر منهم أحدًا[٢] — على غيرِ دِين — رُكباناً ومُشاةً ، ينظرون لِمَن تكون

(١) على بكرة أبيها : هذه كلمة للعرب يريدون بها الكثرة وتوفر العدد وأنهم جاءوا جميعاً لم يتخلف منهم أحد . وليس هناك بكرة فى الحقيقة ، وهى التى يستقى عليها الماء ، فاستعيرت فى هذا الموضع (النهاية ، ج١ ، ص ٩١) .

(٢) فى الأصل : « فلم يتغادر منهم أحداً » .

الدائرة فيُصيبون من الغنائم ، ولا يكرهون أن تكون الصَّدْمَة[1] لمحمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه . وخرج أبو سُفيان بن حَرب فى أثر العسكر ، كلّما مرّ بتُرْسٍ ساقطٍ أو رمحٍ أو متاعٍ من متاعِ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم حمله ، والأزْلام فى كِنانته . حتّى أوقر[2] جمله . وخرج صَفوان ولم يُسلم ، وهو فى المُدّة التى جعل له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فاضطرب خَلْفَ الناس . ومعه حَكيم بن حِزام ، وحُوَيْطِب بن عبد العُزّى ، وسُهَيل بن عمرو ، وأبو سُفيان بن حَرب ، والحارث بن هِشام ، وعبد الله بن أبى رَبيعة ، ينظرون لمن تكون الدائرة ، واضطربوا خَلْفَ الناس والناس يقتتلون ، فمرّ به رجلٌ فقال : أبشرْ أبا وَهب ! هُزِم محمّدٌ وأصحابه ! فقال له صَفوان : إنّ ربًّا من قُرَيش أحبّ إلىّ من ربٍّ من هَوازن إن كنتُ مَربوباً .

قالوا : ولمّا كان من الليل عَمَد مالِك بن عَوْف إلى أصحابه فعبّأهم فى وادى حُنَين — وهو وادٍ أجوف ، ذو شِعابٍ ومَضايق — وفرّق الناس فيه ، وأوعز إلى الناس أن يحملوا على محمّدٍ وأصحابه حملةً واحدة . وعبّأ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابه وصفّهم صفوفاً فى السَّحَر ، ووضع الألوية والرايات فى أهلها ؛ مع المهاجرين لِواءٌ يحمله عَلىٌّ عليه السلام ، وراية يحملها سعد بن أبى وَقّاص ، وراية يحملها عمر بن الخَطّاب رضى الله عنه ؛ وفى الأنصار رايات ؛ مع الخزرج لواءٌ يحمله الحُباب بن المُنذِر — ويقال لواءُ الخزرج الأكبر مع سعد بن عُبادة — ولواءُ الأوس مع أُسَيد بن حُضَير ، وفى كلّ بَطْنٍ من الأوس والخزرج لواءٌ أو رايةٌ . وفى بنى عبد الأشْهَل رايةٌ يحملها

(١) الصدمة : قوة المصيبة وشدتها . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٦) .
(٢) أوقر جمله : أى حمله وقراً . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٢٤) .

أبو نائلة ، وفى بنى حارثة راية يحملها أبو بُرْدَة بن نِيار ، وفى ظَفَر راية يحملها قَتادة بن النُّعمان ، وراية يحملها جَبْر بن عَتيك فى بنى معاوية ، وراية يحملها هِلال بن أُمَيّة فى بنى واقف ، وراية يحملها أبو لُبابة بن عبد المنذر فى بنى عمرو بن عَوْف ، وراية يحملها أبو أُسَيد الساعدىّ فى بنى ساعدة ، وراية يحملها عُمارة بن حَزْم فى بنى مالِك بن النَّجّار ، وراية يحملها أبو سَليط فى بنى عَدىّ بن النَّجّار ، وراية يحملها سَليط بن قَيس فى بنى مازِن . وكانت رايات الأَوس والخزرج فى الجاهليّة خُضر وحُمر ، فلمّا كان الإسلام أقرّوها على ما كانت عليه ؛ وكانت رايات المهاجرين سُود، والألوية بِيض . وكان فى قبائل العرب فى أَسلم رايتان ، إحداهما مع بُرَيدة بن الحُصَيْب ، والأُخرى مع جُنْدُب بن الأَعْجم . وكان فى بنى غِفار راية يحملها أبو ذَرّ ، ومع بنى ضَمْرَة . ولَيث ، وسعد بن لَيث راية يحملها أبو واقد اللَّيْثىّ الحارث بن مالِك . وكان مع كعب بن عمرو رايتان يحمل إحداهما بِشر بن سُفيان ، والأُخرى أبو شُرَيْح . وكان فى بنى مُزَينة ثلاث رايات ؛ راية يحملها بِلال بن الحارث ، وراية يحملها النُّعمان بن مُقرِّن ، وراية يحملها عبد الله بن عمرو بن عَوْف . وكان فى جُهَينة أربع رايات ؛ راية مع رافع بن مَكيث ، وراية مع عبد الله بن يَزيد ، وراية مع أبى زُرْعَة مَعْبَد بن خالد ، وراية مع سُوَيد بن صَخْر . وكانت فى بنى أَشْجَع رايتان ؛ واحدة مع نُعَيم بن مَسعود ، والأُخرى مع مَعْقِل بن سِنان . وكانت فى بنى سُلَيم ثلاث رايات ؛ راية مع العبّاس بن مِرداس ، وراية مع خُفاف بن نُدْبَة ، وراية مع الحَجّاج بن عِلاط[1] . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) فى الأصل : « الحجاج بن عيلاط » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠) . وعن البلاذرى أيضاً . (أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٥٣) .

قد قدّم سُلَيماً من يوم خرج من مكّة فجعلهم مُقدِّمة الخيل ، واستعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد ، فلم يزل على مُقدِّمته حتى ورد الجِعِرّانة .

قالوا : وانحدر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأصحابه ، وقد مضت مُقدِّمته وهو على تعبئة فى وادى حُنَين ، فانحدر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم انحدارًا — وهو وادٍ حَدور[1] — وركب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بغلته البيضاء دُلْدُل ، ولبس دِرعين والمِغْفَر والبَيْضَة ، واستقبل الصفوف ، وطاف عليها بعضها خَلْف بعض ينحدرون فى الوادى ، فحضّهم على القتال وبشّرهم بالفتح إن صَدَقوا وصبروا ، فبينا هم على ذلك ينحدرون فى غَلَس[2] الصبح.

فكان أنَس بن مالك يُحدّث يقول : لما انتهينا إلى وادى حُنَين — وهو واد من أودية تِهامة له مَضايق وشعاب — فاستقبلَنا من هوازن شىءٌ ، لا واللهِ ما رأيت مثله فى ذلك الزمان قَطُّ من السواد والكثرة ! قد ساقوا نساءهم وأموالهم وأبناءهم وذراريّهم ثم صفّوا صفوفاً ، فجعلوا النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال ، ثم جاءوا بالإبل والبقر والغنم فجعلوها وراء ذلك ؛ لئلا يفرّوا بزعمهم . فلما رأينا ذلك السواد حسبناه رجالاً كلّهم ، فلمّا تحدّرنا فى الوادى ، فبينا نحن فيه غَلَسَ الصبح ، إن شعرنا إلّا بالكتائبِ قد خرجت علينا من مَضيق الوادى وشِعْبه فحملوا حملةً واحدة ، فانكشف أوّل الخيل — خيل سُلَيم — مُولِّيةً فولّوا ، وتبعهم أهل مكّة وتبعهم الناس مُنهزمين ، ما يَلْوُون على شىء . قال أنَس : فسمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والتفتَ عن يمينه ويساره والناس مُنهزِمون ، وهو يقول : يا أنصارَ الله وأنصارَ

---

(١) فى الأصل : « وهو وادى حذور » ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه . والحدور : المكان ينحدر منه . (لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٢٤٤) .

(٢) الغلس : ظلمة آخر الليل . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٦٦) .

رسوله ! أنا عبد الله ورسولُه صابر ! قال : ثم تقدم بحَرْبَته أمام الناس ، فوالّذى بعثه بالحقّ ، ما ضربنا بسيفٍ ولا طعنّا برمحٍ حتى هزمهم الله ، ثم رجع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إلى العسكر وأمر أن يُقتَل مَن قُدِر عليه منهم ، وجعلت هَوازن تُولّى وثاب مَن انهزم من المسلمين .

قال : حدّثنى مَعْمَر، ومحمّد بن عبد الله، عن الزُّهرىّ ، عن كثير بن العبّاس بن عبد المطّلب ، عن أبيه ، قال : لما كان يوم حُنَين التقى المسلمون والمشركون ، فولّى المسلمون يومئذ ، فلقد رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما معه إلاّ أبو سُفيان بن الحارث بن عبد المطّلب آخذًا بثَفَر[1] بغلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والنبىّ صلّى الله عليه وسلّم لا يألو ما أسرع نحو المشركين . قال : فأتيتُه حتى أخذت بحَكَمَة[2] بغلته ، وهو على بغلة له شهباء ، فشَجَرْتُها[3] بالحَكَمَة . وكنت رجلاً صَيِّتاً . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين رأى من الناس ما رأى ، لا يَلْوُون على شىء ، قال : يا عبّاس ، اصرخْ : يا مَعْشَرَ الأنصار ! يا أصحابَ السَّمُرَة[4] ! فناديت : يا معشر الأنصار ! يا أصحاب السَّمُرَة ! قال : فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت إلى أولادها ، يقولون : يا لَبّيك ! يا لَبّيك ! فيذهب الرجل

(١) فى الأصل : « بثفر » . والثفر ، بالتحريك : السير فى مؤخر السرج . (القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٣٨٣) .

(٢) الحكمة : ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه وفيها العذاران . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٩٨) .

(٣) فى الأصل : « فسجرها بالحكمة » ؛ وشجرتها : أى ضربتها بلجامها أكفها . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٥٦) .

(٤) فى الأصل : « يا أصحاب الشجرة » ؛ وما أثبتناه عن الطبرى . (تاريخ ، ص ١٦٦١) . والسمرة : الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٨١) .

منهم فيثنى بعيره فلا يقدر على ذلك . فيأخذ دِرْعه فيقذفها فى عُنُقه ، ويأخذ تُرْسه وسيفه ثم يقتحم عن بعيره فَيُخَلِّى سبيله فى الناس ، ويَؤُمّ الصوتَ حتى ينتهى إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى إذا ثاب إليه الناس اجتمعوا . فكانت الدعوة أولاً : ياَلَلأنصار ! ثم قُصرت الدعوة فنادوا : يا لَلخزرج ! قال : وكانوا صُبُرًا عند اللقاء ، صُدُقاً عند الحرب . قال : فأشرف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كالمُتطاول فى ركائبه ، فنظر إلى قتالهم فقال : الآن حمِى الوَطيس ! ثم أخذ بيده من الحصى فرماهم ، ثم قال : انهزموا . ورب الكعبة ! فوالله ما زلت أرى أمرهم مُدبرًا . وحَدّهم كليلاً حتى هزمهم الله . وكأنى أنظر إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يركض خَلْفَهم على بَغلته . ويقال : إنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال للعبّاس : نادِ : يا أصحاب السَّمُرة ! » فرجعت الأنصار وهم يقولون : الكَرَّة بعد الفَرَّة. قال : فعطفوا عطْفَةَ البقر على أولادها ، قد شرعوا الرماح حتى إنى لأخاف على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رماحهم أشدّ من خوفى رماحَ المشركين ، يؤمّون الصوت ويقولون : يا لَبيَّك ! يا لَبيَّك ! فلمّا اختلطوا واجتلدوا(١) ، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قائمٌ على بَغْلته فى ركائبه ، يقول : اللّهمّ ، إنى أسألك(٢) وعدك . لا ينبغى لهم أن يظهروا . ثم قال للعبّاس : ناولنى حَصيات ! فناوله حَصيات من الأرض ، ثم قال : شاهت الوجوه ! ورمى بها وجوه المشركين ، وقال : انهزموا . وربِّ الكعبة !

قال : حدثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عاصم بن عمرو بن

---

(١) اجتلد : أى ضرب بالسيف . (لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٩٨) .

(٢) سألت أسأل ، وسلت أسل بمعنى . (لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٣٣٨) .

قَتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : لما انكشف الناس واللهِ ما رجعت راجعةُ هزيمتهم حتى وُجد الأسرى عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مكتَّفين . قال : والتفت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ إلى أبي سُفيان بن الحارث وهو مُقنَّع في الحديد ، وكان ممّن صبر يومئذ ، وهو آخذٌ بثَفَر بغلة النبي صلّى الله عليه وسلّم قال : مَن هذا ؟ قال : ابن أمّك يا رسول الله . ويقال إنه قال : مَن أنت ؟ قال : أخوك — فداك أبي وأمّي — أبو سفيان بن الحارث . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : نعم أخي ، ناولْني حصىً من الأرض ! فناولته فرمى بها في أعينهم كلّهم ، وانهزموا .

قالوا : فلما انكشف الناس انحاز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذاتَ اليمين ، وهو واقف على دابّته لم ينزل ، إلاّ أنه قد جرد سيفه وطرح غِمْده وبقى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في نَفَرٍ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ؛ العباس ، وعَلىّ ، والفَضل بن عبّاس ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة ابن الحارث ، وأَيْمَن بن عُبَيد الخزرجيّ ، وأسامة بن زيد ، وأبو بكر ، وعمر عليهم السلام . ويقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما انكشف الناس ، قال لحارثة بن النّعمان : يا حارثة ، كم تُرى الذين ثَبَتوا ؟ قال : فلما التفتُّ ورائى تحرّجاً[1] ، فنظرت عن يمينى وشمالى فحزرتُهم مائة ، فقلت : يا رسول الله ، هم مائة ! حتى كان يوم مررتُ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وهو يُناجى جبريل عليه السلام عند باب المسجد . فقال

(١) تحرج فلان إذا فعل فعلا يخرج به من الحرج : الإثم والضيق . ([illegible] ، [illegible] ص ٢١٣) .

جبريل عليه السلام : من هذا يا محمّد ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : حارثة بن النعمان . فقال جبريل عليه السلام : هذا أحد المائة الصابرة يوم حُنين ، لو سلّم لرددتُ عليه السلام . فأخبره[1] النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما كنت أظنّه إلّا دِحْيَة الكَلبيّ واقفٌ معك .

وكان دعاءُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ حين انكشف الناس عنه ولم يبق إلّا المائة الصابرة : اللّهمّ ، لك الحمد ، وإليك المُشْتكَى ، وأنت المُستَعان ! قال له جبريل : لقد لَقِنْتَ[2] الكلمات التي لَقَّن الله موسى يوم فَلَق البحر أمامه وفرعونُ خَلْفَه .

قال : حدّثني مَعْمَر بن راشد ، عن الزّهريّ ، عن عُروة ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : إنّ حارثة بن النّعمان مرّ بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو يُناجى جبريل عليه السلام وهما قائمان ، فسلّم عليهما حارثة ، فلما كان بعد ذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هل رأيتَ الرجل ؟ قال حارثة : نعم ، ولا أدرى مَن هو . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هو جبريل عليه السلام ، وقد ردّ عليك السلام . ويقال : إنّ المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعة وستّون من الأنصار ، والعبّاس ، وأبو سُفيان ؛ العبّاس آخِذٌ بلِجام بَغْلَته ، وأبو سُفيان عن يمينه ، وحفّ به المهاجرون والأنصار . وكان ابن عبّاس يُحدّث قال : مرّ جبريل ، وحارثة بن النّعمان مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم واقف ، فقال : مَن هذا يا محمّد ؟ فقال : حارثة بن النّعمان . فقال جبريل عليه السلام : هذا أحد الثمانين الصابرة ، وقد تكفّل الله لهم بأرزاقهم وأرزاق عِيالهم فى الجنّة . وكان ابن عبّاس

(١) فى الأصل : « فأخبر » .

(٢) لقن : فهم . (لسان العرب ، ج ١٧ ، ص ٢٧٥) .

يقول : وكان أبو سفيان بن الحارث من الذين تكفّل الله بأرزاقهم وأرزاق عِيالهم فى الجنّة .

قالوا : وكان البَراء بن عازب يقول : واللهِ الذى لا إله إلاّ هو ، ما ولّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . ولكنه وقف واستنصر . ثم نزل وهو يقول :

أنا النّبيّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عَبْدِ المُطّلِبْ

فأنزل الله عليه نصره . وكَبَت عدوّه . وأفلج حُجّته .

قالوا : وكان رجلٌ من هَوازِن على جملٍ أحمر . بيده راية سوداء فى رأس رمحٍ له طويلٍ أمام الناس . إذا أدرك طَعَن . قد أكثر فى المسلمين القتل ، فيَصْمُد له أبو دُجانة فعَرْقَب جمله . فسمع خَرْخَرَة[١] جمله واكْتَسَع الجمل . ويشدّ عَلىٌّ وأبو دُجانة عليه . فيقطع عَلىٌّ يده اليمنى ، ويقطع أبو دُجانة يده الأُخرى . وأقبلا يضربانه بسيفَيهما جميعاً حتى تثلّم سيفاهما ، فكفّ أحدهما وأجهز الآخر عليه . ثم قال أحدهما لصاحبه : امضِ ، لا تُعرِّجْ على سَلَبه ! فمضيا يضربان أمام النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ويعترض لهما فارسٌ من هَوازِن بيده رايةٌ حمراءُ ، فضرب أحدهما يد الفرس ووقع لوجهه ، ثم ضرباه بأسيافهما فمضيا على سَلَبه . ويمرّ أبو طَلحة فسلب الأوّل ومرّ بالآخَر فسلبه . وكان عثمان بن عفّان ، وعَلىٌّ ، وأبو دُجانة ، وأيْمَن بن عُبَيد يُقاتلون بين يدىْ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال : حدّثنى سُلَيمان بن بِلال ، عن عُمارة بن غَزِيّة ، قال : قالت أُمّ عُمارة : لمّا كان يومئذٍ والناس مُنهزمون فى كلّ وجه ، وأنا وأربع نسوة ، فى يدى سيفٌ لى صارمٌ ، وأمّ سُلَيم معها خَنْجَرٌ قد حَزَمَتْه على وسطها — وهى يومئذٍ حامل بعبد الله بن أبى طَلحة — وأمّ سَليط ، وأمّ الحارث . قالوا :

(١) الخرخرة : سرعة الجرير فى القصب . (لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٣١٦) .

فجعلت تسُلّه (١) وتصيح بالأنصار : أيّة عادةٍ هذه (٢) ! ما لكم وللفِرار ! قالت : وأنظرُ إلى رجلٍ من هَوازن على جملٍ أوْرق ، معه لواءٌ ، يوضِع جمله فى أثر المسلمين ، فأعترضُ له فأضرب عُرْقوب الجمل ، وكان جملاً مُشرِفاً (٣) ، فوقع على عَجُزه ، وأشدُّ عليه ، فلم أزل أضربه حتّى أثبتُّه ، وأخذت سيفاً له وتركت الجمل يُخَرْخِر ، يتصفّق (٤) ظهرًا لبطن . ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم قائمٌ مُصْلِتٌ السيفَ بيده ، قد طرح غِمْدَه ، يُنادى : يا أصحاب سورة البَقَرة ! قال : وكرّ المسلمون ، فجعلوا يقولون : يا بنى عبد الرحمن ! يا بنى عُبَيد الله ! يا خيل الله ! وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد سمّى خيله خيل الله ، وجعل شِعار المهاجرين بنى عبد الرحمن ، وجعل شِعار الأوس بنى عُبَيد الله . فكرّت الأنصار ، ووقفتْ هَوازن حَلْبَ ناقةٍ فَتوحٍ (٥) ، ثم كانت إيّاها ، فوالله ما رأيت هزيمةً كانت مثلها ، ذهبوا فى كلّ وجه ، فرجع ابناى إلىّ — حَبيب وعبد الله ابنا زيد — بأسارى مُكتَّفين ، فأقوم إليهم من الغيظ ، فأضرب عُنُقَ واحدٍ منهم ؛ وجعل الناس يأتون بالأسارى ، فرأيت فى بنى مازن بن النَّجّار ثلاثين أسيرًا . وكان المسلمون قد بلغ أقصى هزيمتهم مكّة ، ثم كرّوا بعدُ وتراجعوا ، فأسهم لهم النبىّ صلّى الله عليه وسلّم جميعاً .

فكان أنَس بن مالِك يقول : إنّ أمّ سُلَيم ، أمّى ابنة مِلحان جعلت تقول : يا رسول الله ، أرأيت هؤلاء الذين أسلموك وفرّوا عنك وخذلوك ! لا تَعْفُ

(١) فى الأصل : « تسبه » .
(٢) فى الأصل : « أنت عاده هذه » .
(٣) جمل مشرف : أى عال . (الصحاح ، ص ١٣٨٥) .
(٤) تصفق : أى انقلب . (لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٧١) .
(٥) الفتوح من النوق : الواسعة الإحليل . (الصحاح ، ص ٣٨٩) .

عنهم إذا أمكنك الله منهم ، فاقتلهم كما تقتل هؤلاء المشركين ! فقال : يا أمّ سُلَيم ، قد كفى الله ! عافيةُ الله أوسع ! ومعها يومئذٍ جمل أبي طَلحة قد خشيت أن يغلبها ، فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خِزامته مع الخِطام ، وهي شادّة وسطها ببُرْدٍ لها ، ومعها خَنْجَرٌ في يدها . فقال لها أبو طَلحة : ما هذا معك يا أمّ سُلَيم؟ قالت : خَنْجَرٌ أخذته معي . إن دنا مني أحدٌ من المشركين بَعَجْتُه[1] به . قال أبو طَلحة : ما تسمع يا رسول الله ، ما تقول أمّ سُلَيم ؟

وكانت أمّ الحارث الأنصاريّة آخذت بخِطام جمل أبي الحارث زوجها ، وكان جمله يُسمّى المِجسار ، فقالت : يا حارِ ، تترك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ! فأخذت بخِطام الجمل ، والجمل يُريد أن يلحق بأُلّافه[2] ، والناسُ يُولّون مُنهزمين ، وهي لا تُفارقه . فقالت أمّ الحارث : فمرّ بي عمر ابن الخطّاب رضي الله عنه ، فقالت أمّ الحارث : يا عمر ، ما هذا ؟ فقال عمر : أمْر الله . وجعلت أمّ الحارث تقول : يا رسول الله ، مَن جاوز بعيري فأقتلُه ، واللهِ إن رأيت كاليوم ما صنع هؤلاء القوم بنا ! تعني بني سُلَيم وأهلَ مكّة الذين انهزموا بالناس .

حدّثني ابن أبي سَبْرَة قال : حدّثني محمّد بن عبد الله بن أبي صَعْصَعَة أنّ سعد بن عُبادة يصيح يومئذٍ بالخزرج : يا لَلخزرج ! يا لَلخزرج ! وأسَيد بن حُضير : يا لَلأوس ! ثلاثاً . فثابوا واللهِ من كلّ ناحية كأنّهم النحل تأوي إلى يَعْسُوبها[3] . قال : فحَنِق المسلمون عليهم فقتلوهم حتّى

(١) بعج بطنه بالسكين : أي شقه . (الصحاح ، ص ٣٠٠) .
(٢) في الأصل : « باللافه » .
(٣) هو مقدمها وسيدها . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٦٦) .

أسرع المسلمون فى قتل الذرّيّة ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما بالُ أقوامٍ ذهب بهم القَتْل حتى بلغ الذرّيّة ! ألا لا تُقتَل الذرّيّة ! ثلاثاً . قال أُسَيد بن حُضَير : يا رسول الله ، أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أوَليس خِيارُكم أولاد المشركين ؟ كلّ نَسَمَة تُولَد على الفِطْرَة حتى يُعرب عنها لِسانُها . فأبواها يُهوّدانها أو يُنصّرانها .

قال : حدّثنى عبد الله بن عَلِيّ ، عن سَعيد بن مُحمّد بن جُبَير بن مُطعِم ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : لمّا تراءينا نحن والقوم رأينا سَوادًا لم نَرَ مثله قطّ . كثرةً ، وإنما ذلك السّواد نَعَمٌ ، فحملوا النساء عليه . قال : فأقبل مثلُ الظُّلّةِ السوداء من السماء حتى أظلّتْ علينا وعليهم وسَدّت الأُفُق ، فنظرت فإذا وادى حُنَين يسيل بالنَّمْل ، نَمْل أسودَ مَبثوثٍ ، لم أشكّ أنه نَصْرٌ أيّدَنا الله به . فهَزَمهم الله عزّ وجلّ .

قال : حدّثنى ابن أبى سَبْرَة قال : حدّثنى عبد الله بن أبى بكر بن حَزم ، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن ، عن شيوخٍ من قومه من الأنصار ، قالوا : رأينا يومئذٍ كالبُجُد[1] السود هَوَت من السماء رُكاماً[2] ، فنظرنا فإذا نَمْلٌ مَبثوثٌ ، فإن كنا لَننفضه عن ثيابنا ، فكان نصرٌ أيّدَنا الله به .

وكان سِيما الملائكة يومَ حُنَين عمائم حُمرًا قد أرخَوْها بين أكتافهم ، وكان الرُّعْب الذى قَذَف الله فى قلوب المشركين يوم حُنَين [كوقع الحَصَى

(١) فى الأصل : « كالنحل » . وما أثبتناه عن الزرقانى يروى عن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص١٨) . والبجد: جمع البجاد ، وهو كساء مخطط من أكسية الأعراب . (الصحاح ، ص ٤٤٠) .

(٢) الركام : السحاب المتراكب بعضه فوق بعض . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

فى الطست][1]. فكان سُوَيد بن عامر السُّوائىّ يُحدّث . وكان قد حضر يومئذ فسُئِل عن الرُّعب ، فكان يأخذ الحَصاة فيرمى بها فى الطست فيَطِنّ ، فقال : إن كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا .

وكان مالِك بن أوْس بن الحَدَثان يقول : حدّثنى عدّةٌ من قومى شهدوا ذلك اليوم يقولون : لقد رمى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتلك الكفّ من الحَصَيات ، فما منّا أحدٌ إلاّ يشكو القَذَى فى عينَيه ؛ ولقد كنّا نجد فى صدورنا خفقاناً كوقع الحَصَى فى الطِّساس ، ما يَهدأ ذلك الخفقان عنّا ؛ ولقد رأينا يومئذٍ رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْق ، عليهم عمائم حُمر قد أرخَوْها بين أكتافهم ، بين السماء والأرض كتائبَ كتائبَ[2] ما يُليقون[3] شيئاً ، ولا نستطيع أن نُقاتلهم[4] من الرُّعب منهم .

قال : حدّثنى عبد الله بن عمرو بن زُهَير ، عن عمر بن عبد الله العَبْسىّ ، عمّن أخبره ، عن رَبيعة ، قال : حدّثنى نَفَرٌ من قومنا حضروا يومئذٍ قالوا : كَمَنّا لهم فى المضايق والشِّعاب ، ثم حملنا عليهم حَملةً ركبنا أكتافهم حتى انتهينا إلى صاحب بَغْلَةٍ شهباء ، وحوله رجالٌ بيضٌ حِسان الوجوه ، فقال : شاهت الوجوه ، ارجعوا ! فانهزمنا ،وركب المسلمون أكتافنا وكانت إيّاها ، وجعلنا نلتفت وراءنا ننظر إليهم يَكِدوننا[5] ، فتفرّقت

---

(١) الزيادة عن الزرقانى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٤ ، ص ٢٥) .

(٢) فى الأصل : « كتائب كتائب » ؛ والمثبت عن الزرقانى ، يروى عن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج٣ ، ص ٢١) .

(٣) فى الأصل : « ما يلتفون » ؛وما أثبتناه عن الزرقانى،يروىعن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج٣،ص ٢١) . ويقال فلان ما يليق شيأ من سخائه ، أى ما يمسك . (لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ٢١٠) .

(٤) فى الأصل : « ولا يستطيع أن تتأملهم » ؛ وما أثبتناه عن الزرقانى ، يروى عن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٢١) .

(٥) فى الأصل: « يكدونا » . ووكد فلان أمراً إذا قصده وطلبه . (النهاية، ج ٤ ، ص ٢٢٧).

جماعتنا فى كلّ وجه ، وجعلت الرِّعْدَة تَسحقنا حتى لحقْنا بعَلْياء بلادنا ، فإن كان لَيُحكَى عنَّا الكلامُ ما كنّا ندرى به ، ممّا كان بنا من الرُّعب ، فقذف الله الإسلام فى قلوبنا .

وكانت راية الأَحْلاف من ثَقيفٍ مع قارِب بن الأَسود بن مَسعود ، فلمّا انهزم الناس أسند رايته إلى شجرةٍ وهرب هو وبنو عمّه من الأَحْلاف ، فلم يُقتل منهم إلاّ رجلان ، من بنى غِيَرَة[1] ، وَهْبٌ واللَّجْلاج[2] . وقال النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حين بلغه قتل اللَّجْلاج : قُتل اليوم سيّد شبّان ثَقيف ، إلّا ما كان من ابن هُنَيدة . وكانت راية بنى مالِك مع ذى الخِمار ، فلمّا انهزمت هَوازن تبعهم المسلمون ، ويُستحصَى القتلى[3] من ثَقِيفٍ ببنى مالِك ، فقُتل منهم قريبٌ من مائة رجل تحت رايتهم ، فيهم عُثمان بن عبد الله ، فقاتل بها مَلِيًّا ، وجعل يحثّ ثقيفاً وهَوازن على القتال حتى قُتل ؛ وكان اللَّجْلاج رجلاً من بنى كُنَّة . وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأخى بنى كُنَّة : هذا سيّد شبّان كُنَّة إلاّ ابن هُنَيدة ــ الحارث بن عبد الله بن يَعْمَر بن إياس ابن أوس بن رَبيعة بن الحارث ، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يضحك . وكانت كُنَّة امرأةً من غامِد يمانيّة قد وُلدت فى قبائل العرب وكانت أَمَةً ، فأَعتق الحارث كلّ مَملوك من بنى كُنَّة ، فقال له عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فى خلافته : أيسرّك أنّ أهل بيت عامر بن الطُّفَيل وَعَلْقَمَة بن عُلاثة مكان كُنَّة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لوددت أنّ ذلك

(١) فى الأصل : « بنو عره » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٣ ، ص ٣٧٧) . وعن ابن إسحاق أيضاً . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٣) .

(٢) هكذا فى الأصل . وفى ابن إسحاق : « الجلاح » . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٣) .

(٣) فى الأصل : « القتل » .

كذلك . فقال عمر : ليت أُمى كُنَّة وأَنَّ الله رزقنى من برِّها ما رزقك . وكان أبرّ الناس بأُمّه . ما كانت تأْكل طعاماً إلاَّ مَن يده . ولا يغسل رأسها إلاَّ هو ، ولا يُسرِّح[1] رأسها إلاَّ هو .

قالوا : وهربت ثقيف ، فقال شيوخ منهم — أسلَموا بعدُ ، كانوا قد حضروا ذلك اليوم — قالوا : ما زال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى طلبنا فيما نرى . ونحن مُولّون حتى إنَّ الرجل منا ليدخل حِصْن الطائف وإنه ليظنّ أنه على أثره ، من رُعْب الهزيمة .

وكان أبو قَتادة يُحدث قال : لمّا التقينا كانت للمسلمين جَولة . فرأيت رجلين يقتتلان ، مسلماً ومشركاً ، قد علاه المشرك ، فاستدرت له حتى أتيته من ورائه فضربته على حَبْل عاتقه ، وأقبل عَلَىّ فضمّنى ضمّةً وجدت منها ريح الموت . وكاد أن يقتلنى لولا أنَّ الدم نزفه ، فسقط ، وذفّفتُ عليه ومضيت وتركت عليه سَلَبه . فلحقت عمر بن الخطّاب فقلت : ما بال الناس ؟ قال : أمْر الله . ثم إنَّ الناس رجعوا ، وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : من قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سَلَبه . قال : فقمت فقلت : مَن يشهد لى ؟ ثم جلست ، ثم قال : مَن قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سَلَبه . فقمت فقلت : مَن يشهد لى ؟ ثم جلست ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : مَن قتل قتيلاً له عليه بيّنة فله سَلَبه .

فقام عبد الله بن أُنيس فشهد لى ، ثم لقيت الأسود بن الخُزاعىّ فشهد لى ، وإذا صاحبى الذى أخذ السَّلَب لا يُنكر أنّى قتلتُه — وقد قصصت على النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم القصّة — فقال : يا رسول الله ، سَلَبُ ذلك القتيل عندى فأرضِه منّى . فقال أبو بكر رضى الله عنه : لاهَا اللهِ إذًا[2] .

(١) تسريح الشعر : إرساله قبل المشط . (لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٣٠٨) .
(٢) قال ابن الأثير : هكذا جاء الحديث « لا ها الله إذا » ؛ والصواب : « لاها الله ذا » بحذف الهمزة . ومعناه : لا والله لا يكون ذا ، أو لا والله الأمر ذا ، فحذف تخفيفاً . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٣٦) .

لا تَعمِد إلى أَسَدٍ من أُسْد الله يُقاتل عن الله وعن رسوله ، يُعطيك سَلَبه ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : صدق ، فأَعطِه إيّاه . قال أبو قَتادة : فأعطانيه ، فقال لى حاطب بن أبي بَلْتَعَة : يا أبا قَتادة ، أتَبيع السلاح ؟ فبعته منه بسبع أواقٍ ، فأتيت المدينة فاشتريت به مَخْرَفاً[1] فى بنى سَلِمَة يقال له الرُّدَينىّ ، فإنه لَأَوّلُ مالٍ لى نِلْته فى الإسلام ، فلم نزل نعيش منه إلى يومنا هذا .

وكان شَيبة بن عُثْمان بن أبي طَلحة قد تعاهد هو وصَفوان بن أُمَيَّة حين وجّه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى حُنَين — وكان أُمَيّة بن خَلَف قُتل يوم بدر ، وكان عُثْمان بن أبي طَلحة قُتِل يوم أُحُد — فكانا تعاهدا إن رأيا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دائرةً أن يكونا عليه . وهما خَلْفَه . قال شَيبة : فأدخل الله الإيمان قلوبنا . قال شَيبة : لقد هممتُ بقَتْله ، فأقبل شيءٌ حتى تغشّى فُؤادى فلم أطِق ذلك ، وعلمتُ أنه قد مُنع منّى . ويقال : قال : غشيتنى ظُلْمَةٌ حتى لا أبصر ، فعرفت أنه مُمتنِعٌ منّى وأيقنت بالإسلام . وقد سمعت فى قصّة شَيبة وجهاً آخر ؛ كان شَيبة بن عُثْمان يقول : لمّا رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غزا مكّة فظَفِر بها وخرج إلى هَوازِن ؛ قلت : أخرجُ لعلّى أدرك ثأرى ! وذكرت قتل أبي يوم أُحُد ، قتله حمزة ، وعمّى قتله علىٌّ . قال : فلمّا انهزم أصحابه جئته عن يمينه ، فإذا العبّاس قائمٌ ، عليه دِرْعٌ بيضاء كالفِضّة ينكشف عنها العَجاج[2] ، فقلت : عمّه لن يخذُله ! قال : ثم جئته عن يساره فإذا بأبي سفيان ابن عمّه ، فقلت :

---

(١) المخرف : الحائط من النخل . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٨٩) .

(٢) العجاج : الغبار . (الصحاح ، ص ٣٢٧) .

ابن عمّه لن يخذُله ! فجئته من خَلْفه فلم يبق إلاَّ أسوّره[١] بالسيف إذ رُفع ما بيني وبينه شُواظٌ[٢] من نارٍ كأنّه بَرْقٌ ، وخفت أن يَمْحَشَني[٣] ووضعت يدى على بصرى ومشيتُ القَهْقَرَى ، والتفت إلىّ فقال : يا شَيْبُ ، ادنُ منّى ! فوضع يده على صدرى وقال : اللّهمّ ، أذهب عنه الشيطان ! قال : فرفعت إليه رأسى وهو أحبّ إلىّ من سمعى وبصرى وقلبى ، ثمّ قال : يا شَيْبُ ، قاتلِ الكُفّار ! فقال : فتقدّمتُ بين يديه أحِبّ واللهِ أقِيه بنفسى وبكلّ شىء ، فلمّا انهزمت هَوازِن رجع إلى منزله ، ودخلتُ عليه فقال : الحمد لله الذى أراد بك خيرًا ممّا أردتَ . ثم حدّثنى بما هممتُ به .

فلمّا كانت الهزيمة حيث كانت ، والدائرة على المسلمين ، فتكلّموا بما فى أنفسهم من الكفر والضِّغْن والغِشّ ؛ قال أبو سفيان بن حَرْب : لا تَنتهى هزيمتُهم دون البحر ! قال : يقول رجلٌ من أسْلَم يقال له أبو مُقَيت : أما واللهِ ، لولا أنّى سمعت رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ينهَى عن قَتْلِك لقتلتك ! وقال : صرخ كَلَدَة بن الحَنْبَل[٤] ، وهو كَلَدَة بن الحَنْبَل أخو صَفوان لأمّه ، أسودٌ من سُودان مكّة : ألا بطل السِّحْر اليوم ! فقال صفوان : اسكت ، فضّ الله فاك ! لأن يَرُبَّنى ربٌّ من قُرَيش أحبّ إلىّ من أن يَرُبَّنى ربٌّ من هَوازِن . قال : وقال سُهَيل بن عمرو : لا يَجْتَبِرُها[٥] محمّدٌ

(١) سوره : أى علاه . (لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٥٢) .

(٢) الشواظ : اللهب الذى لا دخان له . (الصحاح ، ص ١١٧٣) .

(٣) فى الأصل : « أن ينحشنى » ؛ والتصحيح عن ابن سيد الناس ، يروى عن الواقدى . (عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ١٩١) . ويمحشنى : أى يحرقنى (الصحاح ، ص ١٠١٨) .

(٤) فى الأصل : « كلدة بن حنبل » ؛ وما أثبتناه عن ابن هشام . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٨٦) . وكذا فى ابن عبد البر أيضاً . (الاستيعاب ، ص ١٣٣٢) .

(٥) فى الأصل : « تحتبرها » . واستجبر واجتبر : أصابته مصيبة لا يجتبرها ، أى لا يجبر منها . (لسان العرب ، ج ٥ ، ص ١٨٥) .

وأصحابه ! قال : يقول له عِكْرِمَة : هذا ليس بقَوْلٍ ، وإنما الأمر بيَدِ الله ، وليس إلى محمّدٍ من الأمر شىءٌ ! إن أُديل عليه اليوم فإنّ له العاقبةَ غدًا . قال : يقول سُهَيل : إنّ عهدك بخِلافه لَحديثٌ ! قال : يا أبا يزيد ، إنّا كنّا واللهِ نُوضِع فى غير شىءٍ وعُقولُنا عُقولُنا ؛ نَعبُد الحجر لا ينفع ولا يَضُرّ !

قال : حدّثنى عبد الله بن يَزيد ، عن يَعقوب بن عُتبة ، قال : حضرها عثمان بن عبد الله بأفراسٍ وعَبيدٍ ومَوالٍ ، فقُتلوا يومئذٍ معه ، وقُتل معه غلامٌ له نصرانىّ أغْرَلُ[1] ؛ فبينا طَلحة يَسلُب القتلى من ثَقيف إذ مرّ به فوجده أغْرَل ، فصاح : يا معشرَ الأنصار ، أحلف باللهِ أنّ ثَقيفاً غُرْلٌ ما تختتن[2] ! قال المُغيرة بن شُعبة : وسمعتها وخشيت أن يذهب علينا من العرب ، فقلت : لا تفعل ، فِداك أبى وأمّى ، إنما هو غلامٌ لنا نصرانىّ ! ثم جعلت أكشف له عن قتلى ثَقيف ، فأقول : ألا تراهم مُختَتنين ؟ ويقال : إنّ العبد كان لذى الخِمار وكان نصرانيًّا أزرق ، فقُتل مع سيّده يومئذٍ . وكان أبو طَلحة يَسلُب القتلى ، فجرّده فإذا هو أغْرَل ، فنادى بأعلى صوته للأنصار فأقبلوا إليه ، فقال : أحلف بالله ما تختتن ثَقيفٌ ! وسمعها المُغيرة بن شُعبة فوجد فى نفسه . قال : فقال : أُريك يا أبا طَلحة ! فجرّد له عُثمانَ بن عبد الله بن رَبيعة ، فقال : هذا سيّد ثَقيف ! ثم أتى إلى ذى الخِمار سيّد العبد ، فإذا هو مُختتن . قال المُغيرة : وجاءنى أمرٌ قطعنى ، وخشيت أن تسير علينا فى العرب ، حتى أبصر القوم وعرفوا أنه عبدٌ لهم نصرانىّ . وكان الذى قتل عثمانَ بن عبد الله عبدُ الله بن أبى أميّة . فبلغ النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال :

(١) الأغرل : الأقلف ، أى غير مختتن . (الصحاح ، ص ١٧٨٠) .
(٢) فى الأصل : « ما كنى » .

يرحم الله عبد الله بن أبي أُمَيّة ! وأبعد الله عُثْمان بن عبد الله بن رَبيعة ، فإنه كان يُبغض قُرَيشاً !

قال : وكان دعاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لعبد الله برحمة الله ، فبلغه فقال : إنى لأرجو أن يرزقنى الله الشهادة فى وجهى هذا ! فقُتل فى حصار الطائف . وقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم حُنَين : لولا ابنُ جَذّامة الأصغر لفُضحت الخيل اليوم . وقالت امرأةٌ من خُزاعة يوم حُنَين :

إنّ ماءَ حُنَيْنٍ لَنَا فخلّوهْ إن تشربوا منه فلَن تَعلوهْ
هذا رسول الله لَنْ يعلوهْ

أنشدنيها ابن جعفر. [وقالت امرأة من المسلمين . . .] (١)

غلبت خَيلُ اللهِ خيلَ اللاّتِ والله أحَقُّ بالثّبـاتِ

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد قدّم سُلَيماً فى مُقدّمته ، عليها خالد بن الوليد ، فمرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بامرأةٍ مقتولةٍ والناس مجتمعون عليها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : امرأةٌ قتلها خالد بن الوليد . فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رجلاً يُدرك خالدًا فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ينهاك أن تَقتُل امرأةً أو عَسيفاً (٢) . ورأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم امرأةً أخرى فسأل عنها فقال رجلٌ : أنا قتلتها يا رسول الله ، أردفتها ورائى فأرادت قتلى فقتلتها . فأمر بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدُفنت .

قالوا : لمّا هزم الله تعالى هَوازِن اتّبعهم المسلمون يقتلونهم . فنادت بنو سُلَيم بينها : ارفعوا عن بنى أمّكم القَتْلَ ! فرفعوا الرّماح وكفّوا عن القتل — وأمّ سُلَيم : بُكْمَة ابنة مُرّة أخت تَميم بن مُرّة — فلما رأى رسول الله

(١) زيادة من ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٢) .
(٢) العسيف : الشيخ الفانى ، وقيل العبد . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٩٦) .

صلّى الله عليه وسلّم الذى صنعوا قال : اللّهمّ ، عليك ببنى بُكْمَة ـ ولا يشعرون أنّ لهم أُمًّا اسمها بُكْمَة ـ أمّا فى قومى فوضعوا السّلاح وَضْعاً ، وأمّا عن قومهم فرفعوا رفعاً ! وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بطلب القوم ، ثم قال لخيله : إن قدرتم على بِجادٍ فلا يُفلِتنّ منكم ! وقد كان أحدث حَدَثاً عظيماً ، وكان من بنى سعد ، وكان قد أتاه رجلٌ مسلمٌ ، فأخذه بِجادٌ فقطّعه عُضْوًا عُضْوًا ثم حرّقه بالنار ، فكان قد عرف جُرْمه فهرب . فأخذته الخيلُ ، فضمّوه إلى الشّيماء[1] بنت الحارث بن عبد العُزّى أُخت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الرضاعة ، فعَنُفُوا عليها فى السِّياق ، فجعلت الشّيْماء بنت الحارث تقول : إنى واللهِ أُخت صاحبكم ! ولا يُصدّقوها ، وأخذها طائفةٌ من الأنصار ، وكانوا أشدّ الناس على هَوازِن ، حتى أتوا بها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالت : يا محمّد ، إنى أُختك ! قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : وما علامة ذلك ؟ فأرته عَضّة [وقالت] : عضضتَنيها وأنا مُتورِّكَتُك[2] بوادى السِّرَر[3] ، ونحن يومئذٍ برِعائهم ، أبوك أبى وأمّك أُمّى ، قد نازعتُك الثّدْى ، وتذَكّرْ يا رسول الله . . .[4] فعرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العلامة ، فوثب قائماً فبسط رداءه ، ثم قال : اجلسى عليه ! ورحّب بها ، ودمعت عيناه ، وسألها عن أمّه وأبيه من الرضاعة ، فأخبرته بموتهما فى الزمان . ثم قال : إن أحببتِ فأقيمى عندنا مُحَبّةً مُكْرَمَة ، وإن أحببتِ أن ترجعى

---

(١) فى الأصل : « الشماء بنت الحرث » ؛ وما أثبتناه عن البلاذرى . (أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٩٣) . وهكذا فى ابن إسحاق أيضاً . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٠٠) .

(٢) متوركة : أى حاملته على وركها . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٠٦) .

(٣) فى الأصل : « وادى سور » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٩) . والسرر على أربعة أميال من مكة . (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٨) .

(٤) جملة غامضة ، شكلها فى الأصل : « حلال لك غير أبيك إطلال » . ولم يظهر لها معنى فى نظرنا .

إلى قومك وَصِلَتِكِ رجعتِ إلى قومك . قالت : أرجع إلى قومى . وأسلمت فأعطاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثلاثة أعبُدٍ وجارية ، أحدهم يقال له : مَكحول ، فزوّجوه الجارية .

قال عبد الصَّمَد : أخبرنى أبى أنه أدرك نَسْلها فى بنى سعد ؛ ورجعت الشَّيماءُ إلى منزلها وكلّمها النسوة فى بِجادٍ ، فرجعت إليه فكلّمته أنه يَهَبه لها ويعفو عنه . ففعل ثم أمر لها ببعيرٍ أو بعيرَين . وسألها : مَن بقى منهم ؟ فأخبرته بأُختها وأخيها وبعمّها أبى بُرقان ، وأخبرته بقومٍ سألها عنهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ثم قال لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ارجعى إلى الجعِرّانة تكونين مع قومك ، فإنى أمضى إلى الطائف . فرجعت إلى الجعِرّانة ، وأتاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالجعِرّانة فأعطاها نَعَماً وشاءً لها ، ولمَن بقى من أهل بيتها .

قالوا : ولمّا انهزم الناس أتوا الطائف ، وعسكر عَسْكرٌ بأَوْطاس ، وتوجّه بعضهم نحو نَخْلَة ولم يكن فيمن توجّه [إلى] نَخْلَة إلّا بنو عَنَزَة من ثَقيف . فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خيلاً تتبع مَن سلك نَخْلَة ، ولم تتبع مَن سلك الثّنايا . ويُدرك ربيعةُ بن رُفَيع بن أهبان بن ثَعلبة بن رَبيعة بن يَربوع بن سَمّال[1] بن عَوف بن امرئ القيس من بنى سُلَيم دُرَيدَ بن الصِّمَّة ، فأخذ بخِطام جمله وهو يظنُّ أنه امرأة . وذلك أنه كان فى شِجارٍ[2] له ،

(١) فى الأصل : « سهيل بن عوف » ، وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٥) . وعن ابن حزم أيضا . (جوامع السيرة ، ص ٢٤٠) .

(٢) الشجار : مركب مكشوف دون الهودج . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٠٦) .

فإذا هو رجلٌ فأناخ به ، وهو شيخٌ كبيرٌ ابن ستّين ومائة سنة ، فإذا هو دُرَيد ولا يعرفه الغلام . قال الفتى : ما أُريد إلى غيره ممّن هو على مثل دينه . قال له دُرَيد: مَن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفَيع السُّلَمى . قال : فضربه بسيفه فلم يُغْنِ شيئاً. قال دُرَيد : بِئْسَ ما سَلَّحَتْك أُمّك ! خُذ سيفى من وراء الرَّحْل فى الشّجار فاضرب به ، وارفعْ عن الطعام واخفضْ عن الدِّماغ ، فإنى كنت كذلك أقتل الرجال ، ثم إذا أتيتَ أُمّك فأخبرها أنّك قتلتَ دُرَيد بن الصِّمّة ، فرُبَّ يوم قد منعتُ[١] فيه نساءك ! زعمت بنو سُلَيم أنّ ربيعة لمّا ضربه تَكَشَّف للموت عِجانُه[٢] ، وبطونُ فَخِذَيه مثل القَراطيس من ركوب الخيل. فلمّا رجع رَبيعة إلى أُمّه أخبرها بقتله إيّاه فقالت : واللهِ لقد أعتق أُمّهاتٍ لك ثلاثاً فى غداةٍ واحدة ، وجزّ ناصية أبيك . قال الفتى : لم أشعر .

قالوا : وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد بعث أبا عامر الأشْعَرىّ فى آثار مَن توجّه إلى أَوْطاس، وعقد له لواءً ، فكان معه فى ذلك البعث سَلَمَة بن الأكوع ، فكان يُحدّث يقول : لمّا انهزمت هَوازِن عسكروا بأَوْطاس عسكرًا عظيماً ، تفرّق منهم من تفرق ، وقُتل من قُتل ، وأُسِر من أُسر ، فانتهينا إلى عسكرهم فإذا هم مُمتنعون[٣] ، فبرز رجلٌ فقال : مَن يُبارِز ؟ فبرز له أبو عامر ، فقال : اللّهمّ اشهدْ ! فقتله أبو عامر حتى قتل تسعةً كذلك ، فلمّا كان التاسع برز له رجلٌ مُعلِمٌ يَنحَب[٤] للقتال ، وبرز له أبو عامر فقتله ، فلمّا كان العاشر برز رجلٌ مُعلِمٌ بعمامةٍ صفراء ، فقال أبو عامر : اللّهمّ

(١) فى الأصل : « ضيعت » ؛ وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٥) .
(٢) العجان : الدبر ؛ وقيل ما بين القبل والدبر . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٧١) .
(٣) فى الأصل « متمتعون » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٠٩) .
(٤) نحب : أى أجهد السير . (الصحاح ، ص ٢٢٢) .

اشهدْ ! قال : يقول الرجل : اللّهمّ لا تشهد ! فضرب أبا عامر فأثبته ، فاحتملناه وبه رَمَقٌ ، واستخلف أبا موسى الأشْعَرِىّ . وأخبر أبو عامر أبا موسى أنّ قاتله صاحب العمامة الصفراء . قالوا : وأوصى أبو عامر إلى أبى موسى ، ودفع إليه الراية وقال : ادفع فرسى وسلاحى للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم. فقاتلهم أبو موسى حتى فتح الله عليه ، وقتل قاتل أبى عامر ، وجاء بسلاحه وتَرِكَته وفرسه إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وقال : إنّ أبا عامر أمرنى بذلك ، وقال : قل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستغفر لى . فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فصلّى ركعتين ثم قال : اللّهمّ اغفر لأبى عامر ، واجعله من أعلى أمّتى فى الجنّة ! وأمر بتَرِكَة أبى عامر فدُفعت إلى ابنه . قال : فقال أبو موسى : يا رسول الله ، إنى أعلم أنّ الله قد غفر لأبى عامر ، قُتل شهيدًا ، فادعُ الله لى . فقال : اللّهمّ اغفر لأبى موسى ، واجعله فى أعلى أمّتى ! فيرون أنّ ذلك وقع يوم الحَكَمَين .

قالوا : واستحرّ القَتْل فى بنى نَصر ، ثم فى بنى رِباب[1] ، فجعل عبد الله بن قيس — وكان مُسلماً — يقول : يا رسول الله ، هلكت بنو رِباب. قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اللّهمّ ، اجبرْ مُصيبتهم ! ووقف مالِك بن عَوف على ثنيّةٍ من الثنايا معه فُرسان من أصحابه ، فقال : قفوا حتى يمضى ضعفاؤكم تَلتئم أُخراكم . وقال : انظروا ماذا ترون . قالوا : نرى قوماً على خيولهم واضعين رماحهم على آذان خيولهم . قال : أولئك إخوانكم بنو سُلَيم ، وليس عليكم منهم بأس ، انظروا ماذا ترون . قالوا :

(١) فى الأصل : « فى بنى ركاب » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد. (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١١٠).

نرى رجالاً أكفالاً[١] ، قد وضعوا رماحهم على أكفال[٢] خيولهم . قال : تلك الخزرج ، وليس عليكم منهم بأْس ، وهم سالكون طريق إخوانهم . قال : انظروا ماذا ترون . قالوا : نرى أقواماً كأنهم الأصنام على الخيل . قال : تلك كعب بن لُؤَىّ ، وهم مُقاتلوكم ! فلمّا غشيته الخيل نزل عن فرسه مخافةَ أن يُؤْسَر ، ثم طَفِق يلوذ بالشجر حتى سلك فى يَسومَ ، جبلٍ بأعلى نَخْلَة ، فأعجزهم هارباً . ويقال : قال : ما ترون ؟ قالوا : نرى رجلاً بين رجلين مُعلِماً بعصابة صفراء ، يخبط برجليه فى الأرض ، واضعاً رمحه على عاتقه . قال : ذلك ابن صَفيّة ، الزُّبَير ، وَايمُ اللهِ ليُزيلنَّكم عن مكانكم ! فلمّا بَصُر بهم الزُّبَير حمل عليهم حتى أهبطهم من الثَّنِيّة ، وهرب مالِك بن عَوْف فتحصّن فى قصرٍ بِلِيّة[٣] . ويقال : دخل حصن ثَقيف .

وذُكر للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنّ رجلاً كان بِحُنَين قاتل قتالاً شديدًا حتى اشتدّ به الجراح . فذُكر للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : مِن أهل النار ! فارتاب المسلمون من ذلك ، ووقع فى أنفسهم ما الله به عليمٌ ، فلمّا اشتدّ به الجراح أخذ مِشْقَصاً[٤] من كِنانته فانتحر به ، فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بِلالاً أن يُنادى : ألا لا دخل الجنّة إلاّ مؤمن ، وأنّ الله يُؤيّد الدين بالرجل الفاجر .

قالوا : وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالغنائم تُجمَع ، ونادى مُناديه :

(١) الكفل من الرجال : الذى يكون فى مؤخر الحرب ، والجمع أكفال . (لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ١٠٨) .

(٢) الأكفال : جمع الكفل بالتحريك ، وهو العجز ، وقيل ردف العجز . (لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ١٠٧) .

(٣) فى الأصل : « فى قصر بنيه » . ولية : من نواحى الطائف . (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣٤٨) .

(٤) المشقص من النصال : ما طال وعرض . (الصحاح ، ص ١٠٤٢) .

مَن كان يُؤْمِن بالله واليوم الآخر . فلا يَغُلّ ! وجعل الناس غنائمهم فى موضعٍ حتى استعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليها . وكان عَقيل بن أبى طالب دخل على زوجته وسيفُه مُتلطِّخ دماً ، فقالت : إنى قد علمت أنك قد قاتلت المشركين ، فماذا أصبتَ من غنائمهم ؟ قال : هذه الإبرة تَخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، وهى فاطمة بنت الوليد بن عُتبة بن رَبيعة . فسُمع مُنادى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : مَن أصاب شيئاً من المَغْنم فليردّه . فرجع عَقيل فقال : واللهِ ما أرى إبرتكِ إلاّ قد ذهبت . فألقاها فى الغنائم .

قال : حدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن عُمارة بن غَزِيّة ، أنّ عبد الله بن زيد المازنىّ أخذ يومئذٍ قوساً فرمى عليها المشركين ، ثم ردّها فى المَغْنم . وجاء رجلٌ إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بكُبّة(١) شَعَرٍ ، فقال : يا رسول الله ، اضرب بهذه ! أى دعها(٢) لى . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطّلب فهو لك . وجاءه رجلٌ فقال : يا رسول الله ، هذا الحَبْل وجدته حيث انهزم العدوّ فأَشُدّ به على رَحْلى ؟ قال : نصيبى منه لك ، وكيف تصنع بأنْصِباء المسلمين ؟

قال : فحدّثنى مالِك بن أنَس ، عن يحيى بن سَعيد ، عن عبد الله ابن المُغيرة بن أبى بُرْدَة ، أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أتى الناس عام حُنَين فى قبائلهم يدعو لهم ، وأنه نزل قبيلةً من القبائل وجدوا فى بَرْذَعَة(٣) رجل منهم عِقدًا من جَزْعٍ غُلولاً . فأتاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) كبة الغزل : ما جمع منه . (لسان العرب ، ج ٢ ، ص ١٩٠) .
(٢) فى الأصل : « دعه لى » .
(٣) البرذعة : الحلس الذى يلقى تحت الرحل . (الصحاح ، ص ١١٨٤) .

فكبّر عليهم كما يُكبّر على الميّت .

قال : حدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن عُمارة بن غَزِيّة ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجد فى رَحْل رجلٍ من أصحابه غُلولاً فبكّته ولامه : ولم يُعاقبه ولم يخرق رَحْله .

قالوا : وأصاب المسلمون سَبايا يومئذٍ ، فكانوا يَكرَهون يَقعوا عليهن ولهنّ أزواجٌ ، فسألوا النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك فأنزل الله : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[1]. وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ : لا تُوطَأُ حاملٌ من السَّبْى حتى تَضَع حَمْلَها ، ولا غيرُ ذات حَمْل حتى تَحيض حَيضة . وسألوا النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ عن العَزْل ، فقال : ليس من كلّ الماء يكون الولد ، وإذا أراد اللهُ أن يَخلُق شيئاً لم يمنعه شىءٌ .

قالوا : وصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الظُّهْر يوماً بحُنَين ، ثم تنحّى إلى شجرةٍ فجلس إليها ، فقام إليه عُيَيْنَة بن حِصْن بن حُذيفة بن بَدْر يطلب بدم عامر بن الأضْبَط الأشجعىّ — وهو يومئذٍ سيّد قُرَيش — ومعه الأقْرَع بن حابس ، يدفع عن مُحَلِّم بن جَثّامة لمكانه من خِنْدِف ، فاختصما بين يدى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وعُيَيْنَة يقول : يا رسول الله ، لا واللهِ لا أدعه حتى أُدخل على نسائه من الحرب والحزن ما أدخل على نسائى . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : تأْخذ الدِّيَة ؟ ويأْبى عُيَيْنَة ، فارتفعت الأصوات وكثر اللَّغَط . إلى أن قام رجلٌ من بنى لَيْث يقال له مُكَيْتَل ، قصيرٌ ، مُجتمِعٌ ، عليه شِكّةٌ[2] كاملة ، ودَرَقَةٌ فى يده ، فقال : يا رسول

(١) سورة ٤ النساء ٢٤

(٢) الشكة : السلاح . (الصحاح ، ص ١٥٩٤) .

الله ، إنِّى لم أجد لِما فعل هذا شبهاً فى غُرَّة[١] الإسلام إلاَّ غَنَماً وَرَدَتْ فَرُمِيتْ أولاها ،فنَفَرَتْ أُخراها[٢] ، فاسْنُن اليوم وغَيِّرْ غدًا[٣]. فرفع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يده فقال : تقبلون الدِّيَة خمسين فى فَوْرنا هذا وخمسين إذا رجعنا المدينة ! فلم يزل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالقوم حتى قبلوها . ومُحَلِّم بن جَثَّامة القاتل فى طَرَف الناس ، فلم يزالوا يرونه ويقولون : ايتِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يستغفر لك . فقام مُحَلِّم فقام رجلٌ طويل ، آدَمُ[٤] ، مُحْمَرٌ بالحِنَّاء ، عليه حُلَّة ، قد كان تهيَّأ فيها للقتل للقِصاص ، حتى جلس بين يدى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وعيناه تدمعان . فقال : يا رسول الله ، قد كان من الأمر الذى بلغكم . فإنى أتوب إلى الله تعالى فاستغفرْ لى . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : ما اسمك ؟ قال : أنا مُحَلِّم بن جَثَّامة . قال : قتلتَه بسلاحك فى غُرَّة الإسلام ! اللَّهمّ ، لا تغفر لمُحَلِّم ! بصوتٍ عالٍ يتفقَّد به الناس . قال ، فقال : يا رسول الله ، قد كان الذى بلغك ، وإنى أتوب إلى الله تعالى فاستغفرْ لى . فعاد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بصوتٍ عالٍ يتفقَّد به الناس : اللَّهمّ ، لا تغفر لمُحَلِّم ! حتى كانت الثالثة . قال : فعاد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لمقالته . ثم قال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : قُم ! فقام من بين يدى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وهو يتلقَّى دَمعه بفضل ردائه . وكان ضَمْرَة

(١) غرة الإسلام : أوله . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٥٥) .

(٢) فى الأصل : « فرميت فنفر أحدها » ؛ وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢٧٦) .

(٣) أى اعمل بسنتك التى سننتها فى القصاص ، ثم بعد ذلك إذا شئت أن تغير فغير . (النهاية ج ٢ ، ص ١٨٦) .

(٤) الآدم من الناس : الأسمر . (الصحاح ، ص ١٨٥٩)

السُّلَمىّ يُحدّث وكان قد حضر ذلك اليوم ، قال : كنّا نتحدّث فيما بيننا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حرّك شفتَيه باستغفارٍ له ، ولكنّه أراد أن يُعلِم قدرَ الدم عند الله .

قال : حدّثنى عبد الرحمن بن أبى الزِّناد ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن الحسن البَصرىّ ، قال : لمّا مات مُحَلِّم بن جَثّامة دفنه قومُه فلَفِظته الأَرض ، ثم دفنوه فلَفِظته الأَرض ، ثم دفنوه فلَفِظته الأَرض ، فطرحوه بين صخرتين فأكلته السِّباع .

قال : حدّثنى محمّد بن حَرْب ، عن محمّد بن الوليد ، عن لُقمان ابن عامر ، عن سُوَيد بن جَبَلَة ، قال : لمّا حضر مُحَلِّمَ بن جَثّامة الموتُ أتاه عَوْف بن مالِك الأَشْجَعِىّ ، فقال : يا مُحَلِّم ، إن استطعتَ أن ترجع إلينا فتُخبرنا بما رأيتم ولقيتم . قال : فأتاه بعد ذلك بعامٍ أو ما شاء الله ، فقال له : كيف أنتم يا مُحَلِّم ؟ قال : نحن بخير ، وجدنا ربًّا رحيماً غفر لنا . قال عَوْف : أكلّكم ؟ قال : كلّنا غير الأَحْراض . قال : وما الأَحْراض ؟ قال : الذين يُشار إليهم بالأَصابع[1] . واللهِ ، ما من شىء استنفقه الله لى إلاّ وقد وُفّيت أجره ، حتّى إنّ قِطّة لأَهلى هلكت فلقد أُعطيتُ أجرها . قال عَوْف : فقلت : واللهِ إنّ تصديق رؤياى أن أنطلق إلى أهل مُحَلِّم فأسألهم عن هذه القِطّة . فأتاهم فقال : عَوْف يستأذن ! فأذنوا ، فلمّا دخل قالوا[2] : واللهِ ، ما كنتَ لنا بزَوّار ! قال : كيف أنتم ؟ قالوا : نحن بخير ، وهذه بنت أخيك أمست وليس بها بأس ، وهى هذه ! لِما بها ، ولقد فارقَنا أبوها الليلة قال : قلت : هل هلكت لكم قِطّة ؟ قالوا : نعم . [قال :] فهل حسستموها

(١) أى اشتهروا بالشر ، وقيل : هم الذين أسرفوا فى الذنوب فأهلكوا أنفسهم ، وقيل : أراد الذين فسدت مذاهبهم . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢١٨) .

(٢) فى الأصل : « فقال فأذنوا لعوف فلما دخل قالوا » .

يا عَوف ؟ قال : لقد أُنبئت نبأها فاحتسبوها .

قال : حدّثني أُسامة بن زَيد ، عن الزُّهريّ ، عن عبد الرحمن بن أزهر ، قال : رأيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بحُنَين يتخلّل الرجال يسأل عن منزل خالد بن الوليد ، وأنا معه ؛ فأُتى يومئذٍ بشابٍّ فأمر مَن عنده فضربوه بما كان فى أيديهم وحثا عليه التراب .

تسمية من استُشهِد بحُنَين

أَيْمَن بن عُبَيد وهو ابن أُمّ أَيْمَن ، وهو من الأنصار من بلحارث بن الخزرج ، وموالى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ؛ ومن الأنصار سُراقة بن الحارث ، ورُقَيم بن ثابت بن ثَعْلَبَة بن زيد بن لَوْذان[1] ، وأبو عامر الأشعَرىّ أُصيب بأَوْطاس ؛ فجميع مَن قُتل أربعة .

شأن غزوة الطائف

قال : حدّثنا عبد الله بن جَعفر ، وابن أبى سَبْرَة ، وابن مَوْهَب ، وعبد الله بن يَزيد ، وعبد الصَّمَد بن محمّد السَّعدىّ ، ومحمّد بن عبد الله ، عن الزُّهرىّ ، وأسامة بن زيد ، وأبو مَعْشَر ، وعبد الرحمن بن عبد العَزيز ، ومحمّد بن يحيى بن سَهل ؛ وغير هؤلاء ممّن لم يُسَمّ ، أهل ثِقات ؛ فكلٌّ قد حدّثنى بهذا الحديث بطائفة ، وقد كتبتُ كلّ ما حدّثونى به .

قالوا : لمّا افتتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حُنَيناً وأراد المسير إلى

(١) فى الأصل : « ورقيم بن ثعلبة بن زيد بن كردان » ؛ وما أثبتناه عن ابن حزم . (جوامع السيرة ، ص ٢٤٤) .

الطائف. بعث الطُّفَيل بن عمرو إلى ذى الكَفَّين ـ صنم عمرو بن حُمَمَة[١] ـ يَهدِمه ، وأمره أن يَستمِدّ قومَه ويُوافيه بالطائف . فقال الطُّفيل: يا رسول الله أوصِنى . قال : أفْشِ السلام ، وابذُل الطعام ، واسْتَحْىِ من الله كما يَستحيِى الرجل ذو الهَيْئة من أهله . إذا أسأتَ فأحسِن ؛ ﴿إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرَى لِلذّاكِرِينَ﴾[٢] . قال : فخرج الطُّفَيل سريعاً إلى قومه ، فهَدَم ذا الكَفَّين ، وجعل يَحشو النار فى جوفه ويقول :

يا ذا الكَفَيْنِ لستُ من عُبّادِكا ... مِيلادُنا أقْدَمُ مِن مِيلادِكا

أنا حَشَوتُ[٣] النّارَ فى فُؤادِكا

وأسرع معه قومه ، انحدر معه أربعمائة من قومه ، فوافوا النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بالطائف بعد مُقامِه بأربعة أيّام ، فقدم بِدَبّابَة ومَنْجَنيق ، وقال : يا معشر الأَزْد ، مَن يحمل رايتكم ؟ قال الطُّفَيل : مَن كان يحملها فى الجاهليّة . قال : أصبتم ! وهو النُّعمان بن الزَّرافة اللِّهْبِىّ[٤] .

وقدّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد من حُنَين على مُقدِّمته ، وأخذ من يسلك به من الأَدلّاء إلى الطائف ، فانتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أمر[٥] بالسَّبْى أن يُوَجَّهوا إلى الجِعِرّانة . واستعمل عليهم بُدَيل بن وَرْقاء الخُزاعىّ ،

---

(١) فى الأصل : « عمرو بن حثمة دوسى » ؛ والتصحيح عن كل مراجع السيرة الأخرى .

(٢) سورة ١١ هود ١١٤

(٣) فى الأصل : « حشيت » ؛ والتصحيح عن الزرقانى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٣٣) .

(٤) هكذا فى الأصل ، ولعله النعمان بن الزراع عريف الأزد ، ذكره ابن عبد البر . (الاستيعاب ، ص ١٥٠٠) . وفى ابن سعد : « النعمان بن بازية اللهبى » . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١١٤) .

(٥) فى الأصل : « أمرنا » .

وأمر بالغنائم فسِيقت إلى الجِعِرّانة والرُّثّة . ومضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف ، وكانت ثَقيف قد رَمُّوا[1] حِصْنهم ، ودخلوا فيه منهزمين من أَوْطاس وأغلقوه عليهم — وهو حِصْن على مدينتهم له بابان — وصنعوا الصنائع للقتال وتهيّأوا ، وأدخلوا حِصْنَهم ما يُصلحهم لسنة لو حُصِروا وكان عُروة بن مَسعود ، وغَيْلان بن سَلَمَة بجُرَش يتعلّمان عمل الدَّبّابات والمَنْجَنيق ، يُريدان أن ينصباه على حِصْن الطائف ، وكانا لم يحضرا حُنَيناً ولا حصار الطائف. وسار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أَوْطاس ، فسلك على نَخْلَة اليَمانيّة[2] ، ثم على قَرْن[3] ، ثم على المُلَيح[4] ، ثم على بَحْرَة الرُّغاء[5] من لِيّة ، فابتنى بها مسجدًا فصلّى فيه .

قال : حدّثني عبد الله بن يَزيد ، عن سَعيد بن عمرو ، قال : حدّثني مَن رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبنى بيده مسجدًا بلِيّة ، وأصحابه ينقلون إليه الحجارة . وأُتِي يومئذ إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم برجلٍ من بنى لَيْث قَتَل رجلاً من هُذَيل ، فاختصموا عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اللَّيْثيّ إلى الهذليّين فقدّموه فضربوا عُنُقه ، فكان أوّل دم أُقيد به فى الإسلام . وصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الظهر بلِيّة ، ورأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ قصرًا فسأل عنه ، فقالوا : هذا قصر مالكِ بن عَوْف . فقال : أين مالِك ؟ قالوا : هو يراك الآن فى

(١) رموا : أى أصلحوا . (الصحاح ، ص ١٩٣٦) .
(٢) نخلة اليمانية : واد يصب فيه يدعان وبه مسجد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبه عسكرت هوازن يوم حنين . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٢٧٥) .
(٣) قرن : قرية بينها وبين مكة أحد وخمسون ميلا . (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٦٤) .
(٤) المليح : واد بالطائف . (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ١٥٦) .
(٥) بحرة الرغاء : موضع فى لية من ديار بنى نصر . (معجم ما استعجم ، ص ١٤٠) .

حِصْن ثَقيف . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : مَن فى قصره ؟ قالوا : ما فيه أحدٌ . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : حَرِّقوه ! فحُرِق من حين العصر إلى أن غابت الشمس . ونظر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قبر أبى أُحَيْحَة سعيد بن العاص ، وهو عند ماله وهو قبرٌ مُشرِف . قال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : لعن الله صاحبَ هذا القبر ، فإنّه كان ممّن يُحادّ الله ورسوله ! فقال ابناه عمرو بن سعيد ، وأبان بن سعيد ، وهما مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لعن الله أبا قُحافة ، فإنه كان لا يُقرى الضيف ولا يمنع الضَيْم . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ سَبَّ الأموات يُؤذى الأحياء ، فإن شئتم المشركين فعُمّوا . ثم مضى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من لِيَّة فسلك طريقاً يقال لها : الضَّيْقَة ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : بَل هى اليُسرى . ثم خرج على نَخِب[1] حتّى نزل تحت سِدْرَة الصادرة عند مال رجلٍ من ثَقيف ، فأرسل إليه النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : إمّا أن تخرج وإمّا أن نحرق عليك حائطك ! فأبى أن يخرج ، فأمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بإحراق حائطه وما فيه . ومضى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتّى نزل قريباً من حصن الطائف ، فيضرب عسكره هناك ، فساعةَ حلّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه جاءه الحُباب بن المُنْذِر فقال : يا رسول الله ، إنّا قد دنونا من الحِصْن ، فإن كان عن أمْرٍ سلّمنا ، وإن كان عن الرأى فالتأخُّر عن حِصْنهم . قال : فأسكت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

فكان عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرىّ يُحدّث يقول : لقد طلع علينا من

(١) نخب : واد بالطائف . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٢٧٢) .

نَبْلهم ساعةَ نزلنا شىءٌ الله به عليمٌ ، كأنه رِجْلٌ[1] من جراد ـ وترّسنا لهم ـ حتى أُصِيب ناسٌ من المسلمين بجِراحة ، ودعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الحُباب فقال : انْظُرْ مكاناً مرتفعاً مستأْخرًا عن القوم . فخرج الحُباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارجٍ من القرية ، فجاء إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبره فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابَه أن يتحوّلوا . قال عمرو بن أُمَيّة : إنّى لأنظر إلى أبى مِحْجَن يرمى من فوق الحِصْن بعِشْرَتِه[2] بمَعابِلَ[3] كأنّها الرماح ، ما يسقط له سهم . قالوا : وارتفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند مسجد الطائف اليوم . قالوا : وأخرجوا امرأةً ساحرةً ، فاستقبلت الجيشَ بعَوْرَتِها ـ وذلك حين نزل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ـ يدفعون بذلك عن حِصْنهم . فلمّا نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأَكَمَة ، ومعه امرأتان[4] من نسائه أُمّ سَلَمَة ، وزَيْنَب ، وثار المسلمون إلى الحِصْن ، فخرج قدّام الناس يزيد بن زَمْعَة[5] بن الأسود على فرسه ، فسأل ثقيفاً الأمان يُريد يُكلّمهم ، فأعطوه الأمان . فلمّا دنا منهم رموه بالنّبل فقتلوه . وخرج هُذَيل بن أبى الصَّلْت أخو أُمَيّة بن أبى الصَّلْت من باب الحِصْن ، ولا يرى أنّ عنده أحدًا . ويقال : إنّ يَعقوب بن زَمعة كمن له فأسره حتى أتى به النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . فقال : قاتل أخى يا رسول الله ! فسرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين أتى به إليه ، فأمكنه

---

(١) فى الأصل : « زجل من جراد » ، وما أثبتناه عن الزرقانى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٣٥) . والرجل : الكثير . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٧٠) .

(٢) العشرة : الصحبة . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٩٨) .

(٣) المعابل : نصال عراض طوال ، الواحدة معبلة . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٦٣) .

(٤) فى الأصل : « امرأتين » .

(٥) فى الأصل : « يريدون ربيعة بن الأسود » .

النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فضرب عنقه .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد ضرب لزوجتيه قُبّتَين ، ثم كان يُصلّى بين القُبّتَين حِصارَ الطائف كلّه . وقد اختُلِف علينا فى حِصاره ، فقال قائلٌ : ثمانيةَ عشرَ يوماً ؛ وقال قائلٌ : تسعةَ عشرَ يوماً ؛ وقال قائلٌ : خمسَةَ عشَرَ يوماً ، وكلّ ذلك وهو يُصلّى بين القُبّتَين ركعتَين . فلمّا أسلمت ثَقيف ، بَنَى أُمَيّة بن عمرو بن وَهْب بن مُعَتِّب بن مالِك على مُصَلّى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بالمسجد ، وكانت فيه ساريةٌ لا تَطلُع الشمس عليها من الدهر إلاّ يُسْمَع لها نَقيضٌ[1] أكثر من عشر مِرارٍ ، فكانوا يَرون أنّ ذلك تسبيح .

فنصب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم المَنْجَنيق . قال : وشاور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أصحابه . فقال له سَلمان الفارسىّ : يا رسول الله ، أرى أن تَنصب المَنْجَنيق على حِصْنهم . فإنّا كنّا بأرض فارس نَنصب المَنْجَنيقات على الحصون وتُنْصَب علينا ، فنُصيب من عدوّنا ويُصيب منّا بالمَنْجَنيق ، وإن لم يكن المَنْجَنيق طال الثَّواء[2] . فأمره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعمل مَنْجَنيقاً بيده ، فنصبه على حِصْن الطائف . ويقال : قَدِم بالمَنْجَنيق يزيد بن زَمعة ودَبّابتَين ؛ ويقال : الطُّفَيل بن عمرو ؛ ويقال : خالد بن سعيد قَدِم من جُرَش بمَنْجَنيق ودَبّابتَين . ونَثَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الحَسَك[3] شِقّتَين ــ حَسَك من عيدان ــ حول حِصْنهم ، ودخل المسلمون تحت الدَّبّابة ، وهى من جلود البقر ــ وذلك يومٌ يقال له الشَّدْخَة .

(١) النقيض : الصوت . (الصحاح ، ص ١١١١) .

(٢) الثواء : الإقامة . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٣٧) .

(٣) الحسك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم ، يعمل على مثال شوكه أداة الحرب من حديد أو قصب فيلقى حول العسكر ويسمى باسمه . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٢٩٨) .

قيل : وما الشَّدْخة ؟ قال : ما قُتل من المسلمين ـ دخلوا تحتها ، ثم زَحَفوا بها إلى جِدار الحِصْن لِيَحْفِروه .فأرسلت عليهم ثَقيفٌ سِكّاك الحَديد مُحْماةً بالنار فَحرَّقت الدَّبَّابة ، فخرج المسلمون من تحتها وقد أُصيب منهم مَن أُصيب ، فرمتهم ثَقيفٌ بالنَّبل فقُتل منهم رجال .

قال : فأمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم بقَطْع أعنابهم وتحريقها ، وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم : مَن قطع حَبَلَةً[1] فله حَبَلَةٌ فى الجنَّة . فقال عُيَيْنَة بن بدر ليَعْلَى بن مُرَّة الثَّقَفىّ : أقَطْعُ ذلك أجرى ؟ ففعل يَعْلَى بن مُرَّة ، ثم جاءه فقال يَعْلَى : نعم . فقال عُيَيْنَة : لك النار ! فبلغ ذلك رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلّم فقال : عُيَيْنَة أولَى بالنار من يَعْلَى . وجعل المسلمون يقطعون قَطْعاً ذريعاً .

قال : ونادى عمرُ بن الخطَّاب رضى الله عنه سُفيانَ بن عبد الله الثَّقَفىّ : واللهِ لنقطعنَّ أبا عيالك . فقال سُفيان : إذًا لا تذهبون بالماء والتراب ! فلما رأى القَطْع نادى سُفيان : يا محمَّد ، لِمَ تقطع أموالنا ؟ إمَّا أن تأخذها إن ظهرتَ علينا ، وإمّا أن تدعها لله وللرَّحِم كما زعمتَ ! قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم : فإنّى أدَعُها لله وللرَّحِم[2] . فتركها رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم . وحدّث أبو وَجْزَة السَّعدىّ قال : أمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم أن يقطع كلّ رجلٍ من أعنابهم خمس حَبَلات. فأتى عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول

(١) الحبلة : من شجر العنب . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

(٢) أى للرحم التى بينى وبينهم ، لأن أمه آمنة أمها برة بنت عبد العزى بن قصى ، وأم برة هذه أم حبيب بنت أسعد ، وأمها برة بنت عوف ، وأمهاقلابة بنت الحارث ،وأم قلابة هند بنت يربوع من ثقيف . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٣٧) .

اللهِ، إنه عمٌّ[١] لم يؤكل ثمره . فأمر أن يقطعوا ما أكلوا ثمره. قال : فجعلوا يقطعون الأوّل فالأوّل .

قال : وتقدّم أبو سفيان بن حَرْب ، والمُغيرة بن شُعْبَة إلى ثَقيف فقالا : أمِّنوا حتى نتكلّم . فأمّنوهما ، فدَعَوَا نساءً من قُرَيش ليخرجْن إليهما — وهم يخافون السِّباء[٢] — منهم ابنة أبي سُفيان بن حَرْب ، كانت تحت عُروة بن مَسعود، لها منه ولدٌ ، داود بن عُروة ، والفِراسِيّة بنت سُوَيد بن عمرو بن ثَعْلَبَة — كانت عند قارب ابن الأسود ، لها منه عبد الرحمن بن قارب — وامرأة أخرى . فلما أبَيْن عليهما قال لهما بنو الأسود بن مَسعود: يا أبا سُفيان ويا مُغيرة ، ألا ندلّكما على خيرٍ ممّا جئتما له ! إنَّ مال بني الأسود حيث قد علمتما — وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بينهم وبين الطائف نازلاً بوادٍ يقال له العَمْق[٣] — ليس بالطائف مالٌ أبعد رِشاءً ، ولا أشدّ مُونةً منه ، ولا أبعد عمارةً — وإنّ محمدًا إن قطعه لم يُعَمَّر أبدًا ، فكلّماه ليأخذه لنفسه أو ليدعه لله وللرَّحِم ، فإنّ بيننا وبينه من القرابة ما لا يجهل . فكلّماه فتركه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وكان رجلٌ يقوم على الحِصْن فيقول : رُوحوا رِعاءَ الشاء ! رُوحوا جَلابيب محمّد ! رُوحوا عَبيد محمّد ! أترونا نتباءس على أحْبُلٍ[٤] أصبتموها من كرومنا؟! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اللّهمّ ، روِّحْ مُرَوِّحاً إلى النار ! قال سعد بن أبي وَقّاص : فأهوى له بسهمٍ فوقع في نحره ، وهَوَى من الحِصْن

(١) نخل عم : أي تام في طوله . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٢٩) .

(٢) في الأصل : « النساء » ؛ وما أثبتناه عن الطبري ، يروى عن الواقدي . (التاريخ ، ص ١٦٧٢) .

(٣) العمق : واد من أودية الطائف . (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٢٢٣) .

(٤) أحبل : جمع حبلة ، وهي الأصل أو القضيب من شجر الأعناب . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٩٨) .

ميِّتًا . قال : فرأيت النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد سُرَّ بذلك. قال : وجعلوا يقولون على حِصْنهم : هذا قبر أبي رِغال[1] . قال لعليٍّ عليه السلام : أتدرى يا عليّ ما هذا ؟ قبر أبي رِغال ، وهم قوم ثمود !

قالوا : وكان أبو مِحْجَن على رأس الحِصْن يرمى بمَعابِلَ والمسلمون يُرامونهم ، فقال رجلٌ من مُزَينة لصاحبه : إن افتتحنا الطائف فعليك بنساء بنى قارب ، فإنَّهنّ أجمل إن أمسكتَ ، وأكثر فِداءً إن فاديتَ . فسمعه المُغيرة بن شُعْبَة فقال : يا أخا مُزَينة ! قال : لَبَّيك ! قال : ارمِ ذلك الرجل . يعنى أبا مِحْجَن . وإنما غار المُغيرة حين ذكر المُزَنيّ النساء ، وعرف أنّ أبا مِحْجَن رجلٌ رامٍ لا يسقط له سهم . فرماه المُزَنيّ فلم يصنع سهمه شيئاً ، وفوّق له أبو مِحْجَن بمِعْبَلَةٍ ، فتَقَع فى نحره فقتلته[2]. قال ، يقول المُغيرة : مَنَّى الرجالَ بنساء بنى قارب . قال له عبد الله بن عمرو بن عوْف المُزَنيّ ، وهو يسمع كلامه أوّلَه وآخرَه : قاتلك الله يا مُغيرة ! أنت والله عرّضتَه لهذا ، وإن كان الله تبارك وتعالى قد ساق له الشهادة . أنت والله مُنافق ، واللهِ لولا الإسلام ما تركتك حتى أغتالك ! وجعل المُزَنيّ يقول : إنّ معنا الدّاهية وما نشعر ، واللهِ لا أكلّمك أبدًا ! قال : طلب المغيرة إلى المُزَنى أن يكتم ذلك عليه . قال : لا واللهِ أبدًا! قال : فبلغت عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه — وهو[3] فى عَمَل عمر بالكوفة — فقال : واللهِ ، ما كان المُغيرة بأهلٍ أن يُوَلَّى وهذا فِعْلُه ! قال : ورمى أبو مِحْجَن يوم الطائف عبد الله بن أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه بسهم ، فدَمِل الجرح حتى بغَى[4] .

(١) انظر ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٤٩) .

(٢) فى الأصل : « فيقع فى نحره فقتله » .

(٣) أى المغيرة .

(٤) بغى الجرح : ورم وترامى إلى فساد . (الصحاح ، ص ٢٢٨١) .

وخرج السهم من الجُرْح فأمسكه أبو بكر عنده. وتُوفِّي عبد الله بن أبي بكر فى خلافة أبي بكر رضى الله عنه. وقدم أبو مِحْجَن فى خلافة أبي بكر، فذكر أبو بكر المِشْقَص[1] فأخرجه، فقال: يا أبا مِحْجَن، هل تعرف هذا المِشْقَص؟ قال: وكيف لا أعرفه وأنا بَرَيْتُ قِدْحَه وريّشته ورصفته، ورميت به ابنك؟ فالحمد لله الذى أكرمه على يدىَّ ولم يُهِنِّى على يديه.

ونادى مُنادى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيّما عبدٍ نزل من الحِصْن وخرج إلينا فهو حُرٌّ! فخرج من الحِصْن رجالٌ. بضعةَ عشرَ رجلاً: أبو بَكْرَة، والمُنْبَعَث، وكان اسمه المُضْطَجَع فسمّاه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم المُنْبَعَث حين أسلم، وكان عبدًا لعُثمان بن عمّار بن مُعَتِّب؛ والأزرق ابن عُقْبَة بن الأزرق، وكان عبدًا للكَلَدَة الثَّقَفىّ من بنى مالِك، ثم صار حليفاً فى بنى أُمَيّة فنكحوا إليه وأنكحوه؛ ووَرْدان، عبدٌ لعبد الله بن ربيعة الثَّقَفىّ جَدّ الفُرات بن زيد بن وَرْدان؛ ويُحَنَّس النَّبّال، وكان عبدًا ليَسار ابن مالِك، فأسلم سيّده بعدُ، فردّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم إليه ولاءه؛ — فهم [أعبُد] الطائف — وإبراهيم بن جابر، كان عبدًا لخَرَشَة الثَّقَفىّ؛ ويَسَار، عبدٌ لعُثمان بن عبد الله لم يُعقِب؛ وأبو بَكْرَة[2] نُفَيع بن مَسروح، وكان للحارث بن كَلَدَة، وإنما كُنّى بأبى بَكْرَة أنّه نزل فى بَكْرَة[3] من الحِصْن؛ ونافع أبو السائب، عبدٌ لغَيْلان بن سَلَمَة. فأسلم غَيْلان

(١) المشقص من النصال: ما طال وعرض. (الصحاح، ص ١٠٤٣).

(٢) فى الأصل: «أبو بكرة بن نفيع»؛ وما أثبتناه عن الزرقانى يروى عن الواقدى. (شرح على المواهب اللدنية، ج ٣، ص ٣٧). وعن ابن عبد البر أيضاً. (الاستيعاب، ص ١٦١٤).

(٣) بكرة البئر: ما يستقى عليها، وهى خشبة مستديرة فى وسطها محز للحبل وفى جوفها محور تدور عليه. (لسان العرب، ج ٥، ص ١٤٦).

بعدُ ، فردّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليه ولاءه؛ ومرزوق غلامٌ لعُثمان . لا عَقِبَ له . كلّ هؤلاء أعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ودفع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلّ رجلٍ منهم إلى رجلٍ من المسلمين يَمُونُه[1] ويحمله . فكان أبو بَكْرَة إلى عمرو بن سَعيد بن العاص . وكان الأزرق إلى خالد ابن سَعيد ، وكان وَرْدان إلى أبان بن سَعيد . وكان يُحَنَّس النَّبّال إلى عُثمان ابن عَفّان رضى الله عنه . وكان يَسار بن مالِك إلى سعد بن عُبادة . وإبراهيم ابن جابر إلى أُسَيد بن الحُضَير . وأمرهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يُقرِئوهم القرآن ويُعلّموهم السُّنَن . فلمّا أسلمت ثَقيفٌ تكلّمت أشرافهم فى هؤلاء المُعْتَقين ، فيهم الحارث بن كَلَدَة ، يردّوهم فى الرِّقّ . فقال رسول الله صَلّى الله عليه وسلّم : أولئك عُتَقاءُ الله ، لا سبيلَ إليهم ! وبلغ ذلك من أهل الطائف مَشقّةً شديدةً ، واغتاظوا على غلمانهم .

قالوا : وقال عُيَيْنة : يا رسول الله ، ايذن لى حتى آتى حِصْن الطائف فأُكلّمهم . فأذن له ، فجاءه فقال : أدنو منكم وأنا آمن ؟ قالوا : نعم . وعرفه أبو مِحْجَن فقال : ادْنُ . فدنا . فقال : ادخُلْ . فدخل عليهم الحِصْن ، فقال : فداءكم أبى وأمّى ! والله لقد سرّنى ما رأيتُ منكم . والله لو أنّ فى العرب أحدًا غيركم ! والله ما لاقَى محمّدٌ مثلَكم قطُّ ، ولقد ملّ المُقام ، فاثبتوا فى حِصْنكم ، فإنّ حِصْنكم حَصينٌ ، وسلاحكم كثيرٌ ، وماءكم واتِنٌ ، لاتخافون قَطْعَه ! قال : فلما خرج قالت ثقيف لأبى مِحْجَن : فإنّا كرهنا دخوله ، وخشينا أن يُخبر محمّدًا بخَلَل إن رآه فينا أو فى حِصْننا . قال أبو مِحْجَن : أنا كنت أعْرَفَ له ، ليس منّا أحدٌ أشدّ على محمّد منه وإن كان معه . فلمّا رجع إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال له : ما قلتَ لهم ؟ قال : قلتُ ادخلوا

(١) يمونه : يتحمل مؤونته ويقوم بكفايته . (الصحاح ، ص ٢٢٠٩) .

فى الإسلام . والله لا يبرح محمّد عُقْرَ داركم حتى تنزلوا . فخذوا لأنفسكم أماناً . قد نزل بساحة أهل الحصون قبلكم : قَيْنُقاع ، والنَّضير ، وقُرَيْظَة ، وخَيْبَر أهل الحلْقَة والعُدّة والآطام . فخذَّلتُهم ما استطعتُ . ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساكتٌ عنه . حتى إذا فرغ من حديثه . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلّم : كذبتَ ! قلتَ لهم كذا وكذا ! للذى قال . قال عُيَيْنَة : أستغفر الله ! فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ، دعنى أُقدّمه فأضرب عُنُقه . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا يتحدّث الناس أنّى أقتل أصحابى . ويقال : إنّ أبا بكر رضى الله عنه أغلظ له يومئذ وقال : ويحك يا عُيَيْنَة ! إنما أنت أبدًا تُوضع فى الباطل ؛ كم لنا منك من يوم بنى النَّضير ، وقُرَيْظَة ، وخيبر . تُجلب علينا وتُقاتلنا بسيفك ، ثم أسلمتَ كما زعمتَ فتُحرِّض علينا عدوّنا ! قال : أستغفر الله يا أبا بكر وأتوب إليه ، لا أعودُ أبدًا !

قالوا : وكان مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مولًى لخالته فاختَة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، يقال له : ماتعٌ ، وآخر يقال له : هِيتٌ . وكان ماتعٌ يدخل فى بُيوته ، لا يرى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه يَفطُن لشىء من أمر النساء ممّا يَفطُن له الرجال ، ولا يرى أنّ له فى ذلك إرْبَةً[١] ، فسمعه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يقول لخالد بن الوليد ، ويقال لعبد الله بن أبى أُميّة بن المُغيرة : إن افتتح رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الطائف غدًا فلا تُفلتنّ منك بادية بنت غَيْلان ، فإنّها تُقبل بأربع[٢] وتُدبر بثمان ، وإذا جلست تثنّت ، وإذا تكلّمت تغنّت ، وإذا اضطجعت تمنّت ، وبين رجليها مثل الإناء المكفوء ، مع ثغر كأنّه الأُقْحُوان ، كما قال الخطيم :

(١) الإربة : الحاجة . (الصحاح ، ص ٨٧) .

(٢) ... قوله تقبل بأربع وتدبر بثمان ، يعنى عكن بطنها فإنها تكون أربعا ... واحدة تثنى إذا أدبرت . (النهاية ، ج ... ، ص ٣٤٩) .

بين شُكولِ[١] النِّساء خِلْقَتُها نَصْبٌ فلا جَبْلَةٌ[٢] ولا قَضَفُ
تَغْتَرِقُ[٣] الطَّرْفَ وهْى لاهيةٌ[٤] كأنَّما شَفَّ وَجْهَها نُزُفُ[٥]

فسمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كلامه فقال : ألا أرى هذا الخبيثَ يفطُن للجَمال إذا خرجتُ إلى العَقيق ! والحَيْل لا يُمْسَكُ[٦] لِما أسمعُ ! وقال : لا يدخلنَّ على نساءِ عبد المطَّلب ! ويقال : قال : لا يدخلنَّ على أحدٍ من نسائكم ! وغَرَّبهما رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الحِمى ، فشكيا الحاجة ، فأذِن لهما أن ينزلا كلَّ جُمُعَةٍ يسألان ثم يرجعان إلى مكانهما ، إلى أن تُوفِّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . فلمّا توفِّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم دخلا مع الناس . فلمّا ولى أبو بكر رضى الله عنه قال : أخرجكما رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأُدخِلكما ؟ فأخرجهما إلى موضعهما . فلمّا مات أبو بكر رضى الله عنه دخلا مع الناس ، فلمّا ولى عمر رضى الله عنه قال : أخرجكما رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأبو بكر وأُدخِلكما ؟ اخرجا إلى موضعكما ! فأخرجهما إلى موضعهما . فلمّا قُتل عمر دخلا مع الناس .

(١) فى الأصل : « سكول » ؛ والتصحيح عن ديوان قيس بن الخطيم ص ٥٤ ، وكتاب الأغانى ، (ج ٢ ، ص ١٦٨) . والشكول : الضروب . (الصحاح ، ص ١٧٣٦) .
(٢) هكذا فى الأصل . وفى ديوان قيس بن الخطيم والأغانى : « قصد فلا جبلة » . وجبلة : أى غليظة . والقضف : الدقة . (الصحاح ، ص ١٦٥٠ ؛ ١٤١٧) .
(٣) قال ابن السكيت : من نظر إليها استغرقت طرفه وبصره وشغلته عن النظر إلى غيرها . (ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٥) .
(٤) وهى لاهية : غير محتفلة ، وأراد أنها عتيقة الوجه ليست بكثيرة اللحم . (ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٩) .
(٥) قال ابن السكيت : النزف خروج الدم . وقال العدوى : أراد أن فى لونها مع البياض صفرة وذلك أحسن . (ديوان قيس بن الخطيم ، ص ٥٦) .
(٦) فى الأصل : « والحيل عن يمسك » ، ولعل الصواب ما أثبتناه . والحيل : القوة . (النهاية ،

قالوا : قال أبو مِحْجَن بن حُبَيب بن عمرو بن عُمَير الثَّقَفِيّ ، وهو على حِصْن الطَّائف : يا عَبيدَ محمّد ، إنَّكم واللهِ ما لاقيتم أحدًا يُحسِن قتالكم غيرنا ؛ تُقيمون ما أقمتم بشَرٍّ مَحْبِس ، ثم تنصرفون لَمْ تُدْرِكوا شيئاً ممَّا تُريدون ؛ نحن قَسِيٌّ وأبونا قَسا[1] ، واللهِ لا نُسلِّم ما حَيينا ، وقد بَنَيْنا طائفاً حَصيناً ! فناداه عمر : يا ابنَ حُبَيب . واللهِ لنقطعنَّ عليك معاشَك حتى تخرج من جُحْرِك هذا ، إنما أنت ثعلب فى جُحْرٍ يُوشِك أن يخرج . فقال أبو مِحْجَن : إن قطعتم يا ابنَ الخطَّاب حَبَلات عنب ، فإنَّ فى الماء والتراب ما يُعيد ذلك . فقال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماءٍ ولا تراب ؛ لن نبرح عن باب جُحْرك حتى تموت ! قال : يقول أبو بكر : يا عمر لا تَقُلْ هذا ، فإنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لم يُؤْذَن له فى فتح الطَّائف . فقال عمر : وهل قال لك هذا رسولُ الله ؟ فقال : نعم . فجاء عمر إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال : لم يُؤْذَن لك يا رسول الله فى فتحها ؟ قال : لا .

وجاءت خَوْلَة بنت حَكيم بن أُمَيّة بن الأَوْقَص السُّلَمِيّة ، وهى امرأة عثمان بن مَظعون . فقالت : يا رسول الله ، أعطِنى إن فتح الله عليك حُلِيّ الفارعة بنت الخُزاعىّ . أو بادية بنت غَيلان ـ وكانتا من أجمل نساء ثَقيف . فقال لها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : وإن كان لم يُؤْذَن لنا فى ثَقيف يا خَوْلَة ؟ قال : فخرجتْ خَوْلَة فذكرتْ ذلك لعمر ، فدخل عمر على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال : يا رسول الله ، حدّثتَ خَوْلَة ما حدّثتْنى أنّك قلتَه ؟ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : قد قلتُه . قال : يا رسول الله . أوَلَمْ يُؤْذَن لك فيهم ؟ قال : لا . قال : أفلا أُؤذّن فى

(١) قسى : لقب ثقيف . قال أبو عبيد : لأنه مر على أبى رغال وكان مصدقاً فقتله ، فقيل قسا قلبه ، فسمى قسياً . (لسان العرب ، ج ٢٠ ، ص ٤٢) .

الناس بالرَّحيل! قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : بلى . فأذَّن عمر بالرحيل. فجعل المسلمون يتكلَّمون ، يمشى بعضهم إلى بعض . فقالوا : ننصرف ولا نفتح الطَّائف ! لا نبرح حتّى يفتح الله علينا ، والله إنّهم لأذلّ وأقلّ مَن لاقينا ، قد لقينا جمع مكّة وجمع هوازن . ففرّق اللهُ تلك الجموع! وإنما هؤلاء ثعلب فى جُحْر، او حصرناهم لماتوا فى حِصْنهم هذا ! وكثر القولُ بينهم والاختلاف . فمشّوا إلى أبى بكر فتكلّموا . فقال أبو بكر رضى الله عنه : الله ورسوله أعلم . والأمر ينزل عليه من السماء . فكلّموا عمرَ فأبى وقال : قد رأينا الحُدَيبية . ودخلنى فى الحُدَيبية من الشك ما لا يعلمه إلاّ الله . وراجعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ بكلامٍ ليت أنّى لم أفعل . وأنّ أهلى ومالى ذهبا ! ثم كانت الخِيرة لنا من الله فيما صنع ، فلم يكن فتح كان خيرًا للناس من صلح الحُدَيبية — بلا سيف . دخل فيه من أهل الإسلام مثل مَن كان دخل — من يوم بُعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى يوم كُتب الكتاب . فاتّهموا الرأى . والخِيرة فيما صنع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ولن أراجعه فى شىء من ذلك الأمر أبدًا ! والأمر أمر الله . وهو يُوحى إلى نبيّه ما يشاءُ !

وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد قال لأبى بكر : إنى رأيت أنّى أُهديتُ لى قَعْبَة[1] مملوءة زُبْدًا . فنقرها ديكٌ فأهراق ما فيها . قال أبو بكر رضى الله عنه : ما أظن أن تُدرك منهم يارسولَ الله يومك هذا ما تُريد . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : وأنا لا أرى ذلك .

قال : حدّثنى كُثَيِّر بن زيد ، عن الوليد بن رِياح ، عن أبى هُرَيرة رضى الله عنه ، قال : لمّا مضت خمس عشرةَ ليلة من حِصارهم استشار

(١) القعبة : القدح . (شرح أبى ذر ، ص ٤٠٩) .

رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم نَوْفَل بن مُعاوية الدِّيليّ فقال : يا نَوْفَل ، ما تقول ؟ أو تَرَى[1] . فقال نَوْفَل : يا رسول الله ، ثَعْلَبٌ فى جُحْرٍ ، إن أقمتَ عليه أخذتَه ، وإن تركتَه لم يضرّك شيئاً . قال أبو هُرَيرة : ولم يُؤْذَن لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى فتحها . قال : فأمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عمر وأذَّن فى الناس بالرَّحيل . قال : فجعل الناس يضجّون من ذلك . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : فاغدوا على القتال . فغدَوا فأصابت المسلمين جراحات . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنّا قافلون إن شاء الله ! فسُرّوا بذلك وأذعنوا[2] . وجعلوا يرحلون والنبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم يضحك . فلمّا استقلّ الناس لوجههم نادى سعد بن عُبَيد بن أسيد بن عمرو ابن عِلاج الثَّقَفىّ قال : ألا إنَّ الحيَّ مُقيم . قال : يقول عُيَينة بن حِصْن : أجل واللهِ ، مَجَدَةٌ كِرام ! فقال عمرو بن العاص : قاتلك الله ، تمدح قوماً مشركين بالامتناع من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقد جئت تنصره ؟ فقال : إنّى واللهِ ما جئتُ معكم أُقاتل ثَقيفاً ، ولكن أردتُ أن يفتح محمّد الطائف فأُصيبَ جارية من ثَقيفٍ فأَطأها لعلَّها تَلِد لى رجلاً ، فإنَّ ثَقيفاً قوم مُبارَكون . فأخبر عمر النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمقالته ، فتبسّم صلَّى الله عليه وسلَّم ثم قال : هذا الحُمْق المُطاع ! وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابه حين أرادوا أن يرتحلوا : قولوا لا إله إلاّ الله وحده ، صَدَق وَعْدَه ، ونَصَر عَبْدَه ، وهَزَم الأحزاب وَحْدَه ! فلمّا ارتحلوا واستقلّوا قال : قولوا آئبون إن شاء الله ، عابدون ، لربّنا حامدون ! ولمّا ظعن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من الطائف قيل : يا رسول الله ، ادعُ الله على ثَقيفٍ . قال : اللّهمّ اهدِ ثَقيفاً وائتِ بهم !

---

(١) فى الطبرى ، يروى عن الواقدى : « ما ترى فى المقام عليهم » . (التاريخ ، ص ١٦٧٣) .
(٢) أذعن : أسرع فى الطاعة . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٢٥) .

تسمية من استُشهِد بالطائف

من بنى أُمَيّة : سَعيد بن سَعيد بن أُمَيّة ، وعُرْفُطَة بن الحُباب بن حَبيب بن عبد مَناف بن سعد بن الحارث بن كِنانة بن خُزَيمة بن مازن بن عمرو بن عامر بن ثَعْلَبَة بن حارثة بن امرئ القيس ، حليفٌ لهم .

ومن بنى أَسَد : يزيد بن زَمعة بن الأَسْوَد ، جَمَح به فَرَسُه — وكان يقال له : الجَناح — إلى حِصْن الطائف فقتلوه . ويقال : قال لهم : أَمّنونى حتى أُكلِّمكم . فأَمَّنوه ثم رمَوه بالنَّبل حتى قتلوه .

ومن بنى تَيْم : عبد الله بن أبى بكر بن أبى قُحافة ، رُمِى بسهم فلم يزل منه جريحاً ، فمات بالمدينة بعد وفاة النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم .

ومن بنى مَخزوم : عبد الله بن أبى أُمَيّة بن المُغيرة ، رُمِى من الحِصْن .

ومن بنى عَدِىّ : عبد الله بن عامر بن رَبيعة العَنَزِىّ ، حليفٌ لهم .

ومن بنى سَهم : السائب بن الحارث بن قيس ، وأخوه عبد الله بن الحارث .

ومن بنى سعد بن لَيث : جُلَيْحَة بن عبد الله بن مُحارب بن الضَّيْحان ابن ناشب بن سعد بن لَيث .

ومن الأنصار : ثابت بن الجَذَع — واسم الجَذَع ثَعْلَبَة — والحارث بن سَهل بن أبى صَعْصَعَة ، والمُنْذِر بن عبد الله بن نَوْفَل . فذلك اثنا عشر رجلاً .

شأْن مسير النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الجِعِرّانة على عشرة أميال من مكّة

قالوا : خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الطّائف فأخذ على دَحْنا[١] ثم على قَرْن المَنازل[٢] ، ثم على نَخْلَة حتى خرج إلى الجِعِرّانة ، فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسير وأبو رُهْم الغِفارىّ إلى جنب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ناقةٍ له ، وفى رجلَيه نَعْلان له غليظتان ، إذ زَحَمَتْ ناقتُه ناقةَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويقع حَرْفُ نَعْله على ساقِه فأوجعَه ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أوجعتَنى ، أَخِّرْ رِجْلَك ! وقرع رِجْلَه بالسَّوْط . قال : فأخذنى من أمرى ما تقدّم وما تأخّر ، وخشيتُ أن ينزل فىّ القرآن لعظيم ما صنعتُ ؛ فلمّا أصبحنا بالجِعِرّانة ، خرجتُ أرعى الظَّهْرَ وما هو يومى ، فَرَقاً أن يأتى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يطلبنى ، فلما روّحتُ الرِّكابَ سألتُ فقالوا : طلبك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . فجئته وأنا أترقّب فقال : إنّك أوجعتَنى برِجْلِك فقرعتك بالسَّوْط ، فخُذْ هذه الغَنَم عِوَضاً من ضربتى . قال أبو رُهْم : فرِضاهُ عنّى كان أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها .

وكان عبد الله بن أبى حَدْرَد الأسْلَمىّ يقول : كنت مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى مسيره وهو يُحادثنى . فجعلتْ ناقتى تَلصِق بناقته ، وكانت ناقتى ناقة شَهْمَة[٣] ، فجعلت أريد أن أُنحّيها فلا تُطاوعنى ، فلصقت بناقة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأصيبت رجلُه فقال : أَخْ ! أوجعتَنى ! فرفع رِجْلَه

(١) دحنا : من مخاليف الطائف . (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٣) .
(٢) قرن المنازل : جبيل قرب مكة يحرم منه حاج نجد . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ١٦٣) .
(٣) ناقة شهمة : أى جلدة . (الصحاح ، ص ١٩٦٣) .

من الغَرْز كأنَّها جُمّارَة[١] ، ودفع رِجْلِي بمِخْجَنٍ فى يده . فمكث ساعة لا يتحدّث ، فواللهِ ما نزلتُ حتى ظننت أنْ سينزل فىّ عَذابٌ . قال : فلمّا نزلنا قلتُ لأصحابى : إنِّى أرعى لكم ! ولم يكن ذلك يوم رِعْيَتِى ، فلمّا أرحتُ الظَّهْرَ عليهم قلت : هل جاء أحدٌ يبغينى ؟ فقالوا : رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم جاء يبغيك . فقلت فى نفسى : هى واللهِ هى ! قلت : مَن جاء ؟ قالوا : رجلٌ من الأنصار . قال : فكان أكره إلىّ . وذلك أنّ الأنصار كانت فيهم علينا غِلْظَة . قال : ثم جاء بَعْدُ رجلٌ من قُرَيْشٍ يبتغينى . قال : فخرجتُ خائفاً حتى واجهتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فجعل يبتسم فى وجهى وقال : أوجعتُك بمِخْجَنِى البارحة . ثم قال : خُذْ هذه القطعة من الغَنَم . قال : فأخذتُها فوجدتّها ثمانين شاةً ضائنةً[٢] .

وكان أبو زُرْعَة الجُهَنِىّ يقول : لمّا أراد صلَّى الله عليه وسلَّم أن يركب من قَرْنٍ راحلتَه القَصْواء وطئتُ له على يدَيها ، والزِّمام فى يدى مَطوِىّ ، فركب على الرَّحْل وناولتُه الزِّمامَ ، ودرتُ من خَلْفِه فخَلَّف[٣] الناقة بالسَّوْط ، كلّ ذلك يُصيبنى ، فالتفت إلىّ فقال : أصابك السَّوْطُ ؟ قلت : نعم بأبى وأُمّى ! قال : فلمّا نزل الجِعِرّانة إذا رِبْضَةٌ[٤] من الغَنَم ناحيةً من الغنائم ، فسأل عنها صاحب الغنائم فخبّره عنها بشىء لا أحفظه ، ثم صاح : أين أبو زُرْعَة؟ قال : قلت : ها أنا ذا ! قال : خُذْ هذه الغَنَم بالذى أصابك من السَّوْط أمس . قال : فعددتّها فوجدتّها عشرين ومائة رأس . قال : فتأثَّلتُ[٥] بها مالاً .

---

(١) الجمارة : قلب النخلة وشحمتها ، شبه ساقه ببياضها . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٧٥)
(٢) الضائن من الغنم : ذو الصوف ، والأنثى ضائنة . (لسان العرب ، ج ١٧ ، ص ١١٩) .
(٣) أى ضربها بسوطه على خلفها .
(٤) الربضة : الجماعة . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٣٣١) .
(٥) تأثل مالا : اكتسبه واتخذه وثمره . (لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٨) .

وقال سُراقة بن جُعْشُم : لقيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو منحدرٌ من الطّائف إلى الجِعِرّانة فتحصّلتُ(١) ، والناس يمضون أمامه أرْسالاً(٢) ، فوقعت فى مِقْنَبٍ(٣) من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعوننى بالرِّماح ويقولون : إليك ! إليك ! ما أنت؟ وأنكرونى . حتى إذا دنوت وعرفت أنّه يسمع صوتى أخذت الكتاب الذى كتبه أبوبكر ، فجعلته بين إصبعَين من أصابعى ، ثم رفعتُ يدى وناديتُ : أنا سُراقة بن جُعْشُم ، وهذا كتابى ! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يوم وَفاء ، أدنوه ! فأُدْنِيت منه ، فكأنّى أنظر إلى ساق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى غَرْزِه كأنّها جُمّارَة ، فلمّا انتهيتُ إليه سلّمت ، وسقتُ إليه الصّدَقة . فما ذكرت شيئاً أسأله عنه إلّا أنّى قلت : يا رسول الله ، أرأيتَ الضالّة من الإبل تَغشى حِياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل لى من أجرٍ إن أسقيتُها ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : نعم ، فى كلّ ذاتِ كَبِدٍ حَرَّى(٤) أجرٌ .

قال : حدّثنى عبد الله بن عمرو بن زُهَير ، عن المَقْبُرىّ ، عن أبى هُرَيرة رضى الله عنه ، قال : اعترض لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رجلٌ من أسْلَم معه غَنَمٌ ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على راحلته ، فقال : يا رسول الله ، هذه هَدِيَّة قد أهديتُها لك . قال : وممّن أنت ؟ قال : رجلٌ من أسْلَم . قال : إنّى لا أقبل هَدِيَّة مُشرِك ، قال : يا رسول الله ، إنّى مؤمن بالله وبرسوله ؛ قد سقتُ الصَّدَقَة إلى بُرَيدة بن الحُصَيب

(١) تحصل : تجمع وثبت . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٣٥٧) .
(٢) أى أفواجاً وفرقاً متقطعة يتبع بعضهم بعضا ، واحدهم رسل . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٨٠) .
(٣) المقنب : ما بين الثلاثين إلى الأربعين من الخيل . (الصحاح ، ص ٢٠٦) .
(٤) الحرى : فعلى من الحر ، والمعنى أن فى سق كل ذى كبد حرى أجراً . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢١٥) .

لمالى بعينه مُصدِّقاً . قال : وأقبل بُرَيدة فلحق النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : صدق يا رسول الله . هذا من قومى ، شريفٌ[١] ينزل بالصِّفاح[٢] . قال : فما أقدمك إلى نَخْلَة ؟ قال : هى أَمْرَع[٣] من الصِّفاح اليوم . ثم قال : نحن على ظَهْرٍ كما تَرَى ، فالحَقْنا بالجِعِرّانة . قال : فخرج يعدو عِراضَ[٤] ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يقول : يا رسول الله ، فأسوق الغَنَم معى إلى الجِعِرّانة ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا تَسُقْها ، ولكن تَقدَّم علينا الجِعِرّانة فنُعطيك غَنَمًا أُخرى إن شاء الله ! قال : يا رسول الله ، تُدرِكنى الصلاةُ وأنا فى عَطَن[٥] الإبل . أفأُصلّى فيه ؟ قال : لا . قال : فتُدرِكنى وأنا فى مُراح الغَنَم ، أفأُصلّى فيه ؟ قال : نعم . قال : يا رسول الله ، رُبّما تباعد منّا الماء ومع الرجل زوجته فيدنو منها ؟ قال : نعم ، ويتيمّم . قال : يا رسول الله ، وتكون فينا الحائض ، قال : تتيمّم . قال : فلحق النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بالجِعِرّانة فأعطاه مائةَ شاةٍ .

قالوا : وجعلت الأعراب فى طريقه يسألونه . وكثّروا عليه حتى اضطرّوه إلى سَمُرَةٍ ، فخَطَفَتْ رداءه فنَزَعَتْه عن مثل شِقّة القمر ، فوقف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يقول : أعطونى ردائى ! أعطونى ردائى ! لو كان عدد هذه العِضاه نَعَماً لقسمتُه بينكم ، ثم لا تجدونى بَخيلاً ولا جبَاناً ولا كَذّاباً !

---

(١) فى الأصل : « شريفاً » .
(٢) الصفاح : موضع بين حنين وأنصاب الحرم على يسرة الداخل إلى مكة من مشاش . (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦٦) .
(٣) المريع : الخصيب . (الصحاح ، ص ١٢٨٣) .
(٤) أى يسير حذاءه معارضا له . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٨٣) .
(٥) العطن : مبرك الإبل حول الحوض . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٤٨) .

ثم لمّا كان عند القَسْم قال : أدّوا الخِياطَ والمِخْيَط(١) ، وإيّاكم والغُلولَ فإنّه عارٌ ونارٌ وشَنارٌ(٢) يوم القيامة ! ثم أخذ وَبَرَةً من جنب بعير فقال : واللهِ ما يحلّ لى ممّا أفاء الله عليكم ولا مِثْلُ هذه الوَبَرَة إلاّ الخُمُس ، والخُمُس مَردودٌ عليكم .

قالوا : وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى الجِعِرّانة ، والسَّبْى والغنائم بها محبوسة ، وقد اتّخذ السَّبْىُ حَظائر(٣) يستظلّون بها من الشمس ، فلمّا نظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى تلك الحظائر سأل عنها فقالوا : يا رسول الله ، هذا سَبْى هَوازِنَ استظلّوا من الشمس . وكان السَّبْى ستّةَ آلاف ، وكانت الإبل أربعةً وعشرين ألف بعير ، وكانت الغَنَم لا يُدْرَى عددها . قد قالوا أربعين ألفاً وأقلّ وأكثر ، فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمَرَ بُسْر(٤) بن سُفيان الخُزاعىّ يَقدَم مكّة فيشترى للسَّبْى ثياباً يكسوها ، ثياب المُعَقَّد(٥) ، فلا يخرج المرءُ(٦) منهم إلاّ كاسياً ، فاشترى بُسْر كسوة فكسا السَّبْى كلّهم ، واستأذنّا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم بالسَّبْى ، وقد كان فرّق منه ، وأعطى رجالاً ؛ عبد الرحمن بن عَوف كانت عنده امرأة منهنّ قد وطِئها بالمِلْك ، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد وهبها له بحُنَين فردّها إلى الجِعِرّانة حتى حاضت فوطِئها ، وأعطى صَفوانَ ابن أُمَيّة أُخرى ، وأعطى عَلىّ بن أبى طالب عليه السلام جارية يقال لها

(١) الخياط هنا : الخيط ، والمخيط : الإبرة . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .
(٢) الشنار : العيب . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٣٨) .
(٣) الحظائر : جمع الحظيرة ، وهى الزرب الذى يصنع للإبل والغنم ليكفها .. وكان السبى فى حظائر مثلها . (شرح أبى ذر ، ص ٤١١) .
(٤) فى الأصل : « بشر » ؛ وما أثبتناه عن كل مراجع السيرة الأخرى .
(٥) المعقد : ضرب من برود هجر . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١١٣) .
(٦) فى الأصل : « الجز » .

رَيْطَة بنت هِلال بن حَيّان بن عُمَيرة . وأعطى عُثْمان بن عَفّان جاريةً يقال لها : زينب بنت حَيّان بن عمرو . فوطِئها عُثْمان فكرهته ، ولم يكن على ولى . وأعطى عمر بن الخطّاب جاريةً . فأعطاها عمر لابنه عبد الله بن عمر . فبعث بها ابن عمر إلى أخواله بمكّة بنى جُمَح ليُصلحوا منها حتى يطوف بالبيت ثم يأتيهم . وكانت جاريةً وضيئةً مُعجبة . [قال عبد الله بن عمر :] (١) فقدمتُ مكّة فطفتُ بالبيت ، فخرجتُ من المسجد وأنا أريد الجارية أن أصيبها ، وأرى الناس يشتدّون فقلت : ما لكم ؟ قالوا : ردّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نساء هَوازِن وأبناءها . قال : قلت : تلك صاحبتكم فى بنى جُمَح . فاذهبوا فخذوها ! فذهبوا فأخذوها . وأعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جُبَير بن مُطعِم جاريةً من سَبْى هَوازِن فلم توطأ . وأعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طَلْحَة بن عُبَيد الله جاريةً فوطئها طَلْحَة . وأعطى سعدَ بن أبى وَقّاص جاريةً . وأعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا عُبَيدة بن الجَرّاح جاريةً فوطئها ، وأعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الزُّبَير بن العَوّام جاريةً ؛ وهذا كلّه بحُنَين . فلمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الجِعِرّانة أقام يتربّص أن يَقدَم عليه وَفْدُهم ، وبدأ بالأموال فقَسَمها ، وأعطى المُؤلَّفة قلوبُهم أوّلَ الناس . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد غَنِم فِضّةً كثيرةً ، أربعة آلاف أوقيّة ، فجُمِعت الغنائمُ بين يدى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فجاء أبو سُفيان بن حَرْب وبين يديه الفِضّة ، فقال : يا رسول الله ، أصبحتَ أكثرَ قُرَيش مالاً ! فتبسّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقال : أعطِنى من هذا المال يا رسول الله ! قال : يا بِلال ، زِن لأبى سُفيان أربعين أوقيّة ، وأعطوه

(١) زيادة يقتضيها السياق .

مائةً من الإبل . قال أبو سُفيان : ابنى يَزيد أعطِه ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : زِنوا ليَزيد أربعين أُوقيّة ، وأعطوه مائةً من الإبل . قال أبو سُفيان : ابنى مُعاوية ، يا رسول الله ! قال : زِن له يا بِلال أربعين أُوقيّة ، وأعطوه مائةً من الإبل . قال أبو سُفيان : إنك الكريم ، فداك أبى وأمّى ! ولقد حاربتُك فنِعمَ المُحارَبُ كنتَ ، ثم سالمتُك فنِعمَ المُسالَمُ أنت . جزاك الله خيرًا ! وأعطى فى بنى أسَد .

قال : حدّثنى مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، عن سَعيد بن المُسَيِّب ، وعُروة بن الزُّبَير . قالا : حدّثنا حَكيم بن حِزام قال : سألت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحُنَين مائةً من الإبل فأعطانيها ، ثم سألته مائةً فأعطانيها ، ثم سألته مائةً فأعطانيها ، ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ياحَكيمَ ابن حِزام ، إنّ هذا المال خَضِرَةٌ حُلوَةٌ ، فمن أخذه بسَخاوَةِ نَفْسٍ بُورِك له فيه ، ومَن أخذه بإشرافِ نَفْسٍ لم يُبارَك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يَشبَع ، واليد العُليا خَيرٌ من السُّفلى ، وَابْدَأْ بِمَن تَعول ! قال : فكان حَكيم يقول : والذى بعثك بالحقّ ، لا أرْزَأُ[1] أحدًا بعدك شيئاً ! فكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يدعوه إلى عطائه فيأبى يأخذه ، فيقول عمر : أيّها الناس ، إنى أُشهِدكم على حَكيم أنى أدعوه إلى عطائه فيأبى أن يأخذه . قال: حدّثنا ابن أبى الزِّناد قال : أخذ حَكيم المائة الأولى ثم ترك .

وفى بنى عبد الدار : النُّضَير . وهو أخو النَّضْر بن الحارث بن كَلَدَة ،

(١) فى الأصل : « لا أرزى آخذا » . ولا أرزأ : أى لا آخذ من أحد . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٧٨) .

مائة من الإبل . وفى بنى زُهْرَة : أسيد بن حارثة حليفٌ لهم . مائة من الإبل. وأعطى العَلاء بن جارية خمسين بعيرًا ، وأعطى مَخْرَمَة بن نَوْفَل خمسين بعيرًا . وقد رأيت عبد الله بن جَعْفَر يُنكِر أن يكون أخذ مَخْرمة فى ذلك ، وقال : ما سمعتُ أحدًا من أهلى يذكر أنّه أُعطى شيئاً . ومن بنى مَخزوم : الحارث بن هشام مائةً من الإبل ، وأعطى سَعيد بن يربوع خمسين من الإبل . وأعطى فى بنى جُمَح صَفوان بن أُميّة مائة بعير . ويقال إنّه طاف مع النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم والنبىّ صلّى الله عليه وسلّم يَتصفّح الغنائم إذ مرّ بشِعْبٍ ممّا أفاء الله عليه، فيه غَنَمٌ وإبلٌ ورِعاؤُها مملوء . فأُعجب صَفوانُ وجعل ينظر إليه . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أعجبك يا أبا وهب هذا الشِّعْب ؟ قال : نعم . قال : هو لك وما فيه . فقال صَفوان : أشهدُ ما طابتْ بهذا نفسُ أحَدٍ قَطُّ إلاّ نبىّ ، وأشهد أنّك رسول الله ! وأعطى قيس بن عَدىّ مائةً من الإبل . وأعطى عُثمان ابن وَهْب خمسين من الإبل . وفى بنى عامر بن لُؤَىّ أعطى سُهيل بن عمرو مائةً من الإبل . وأعطى حُوَيْطِب بن عبد العُزّى مائةً من الإبل ، وأعطى هِشام بن عمر خمسين من الإبل . وأعطى فى العرب الأقْرَع بن حابس التّميمىّ مائةً من الإبل . وأعطى عُيَينة بن بدر الفزارىّ مائةً من الإبل ، وأعطى مالِك بن عَوْف مائةً من الإبل . وأعطى العبّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ أربعاً من الإبل . فعاتب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى شعرٍ قاله :

كانت[1] نِهاباً تَلافَيْتُها ... بِكَرّى على القوم فى الأجْرَعِ[2]

(١) كانت : يعنى الإبل والماشية . والنِّهاب : جمع نَهب ، وهو ما ينهب ويغنم . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .

(٢) الأجرع : المكان السهل . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٣) .

وحَثِّى الجنودَ لكى يُدلِجوا إذا هَجَعَ القومُ لم أَهْجَعِ
فأصبح نَهْبِى ونَهْبُ العُبَيـ ـدِ[1] بينَ عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ
إلاَّ أفائِلَ[2] أُعطِيتُها عَديدَ قوائمِها الأربعِ
وقد كُنْتُ فى الحَرْبِ ذا تُدْرَإٍ[3] فلم أُعْطَ شيئاً ولم أُمْنَعِ
وما كان حِصْنٌ[4] ولا حابِسٌ يَفوقان مِرْداسَ فى المَجْمَعِ
وما كُنْتُ دُونَ امرئ مِنهما ومَن تَضَعِ اليَوْمَ لا يُرْفَعِ

فرفع أبو بكر رضى الله عنه أبياته إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لِلعبّاس : أنت الذى تقول « أصبح نهبى ونهب العُبَيد بين الأقرع وعُيَينة »؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : بأبى وأمّى يا رسول الله ، ليس هكذا ! قال ، قال : كيف ؟ قال : فأنشده أبو بكر كما قال عبّاس . فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : سواء ، ما يضرّك بدأت بالأقرع أم عُيَينة ! فقال أبو بكر رضى الله عنه : بأبى أنت وأمّى ، ما أنت بشاعرٍ ولا راويةٍ ، ولا ينبغى لك . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اقطعوا لِسانه عنّى . فأعطوه مائةً من الإبل ويقال خمسين من الإبل . ففَزِع منها أناسٌ ، وقالوا : أمر بعبّاس يُمثَّل به . وقد اختُلِف علينا فيما أعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذ الناس .

فحدّثنى عبد الله بن جَعْفَر ، عن ابن أبى عَوْن ، عن سعد ، عن

(١) العبيد : فرس عباس بن مرداس . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٣) .
(٢) أفائل : جمع أفيل ، وهى الصغار من الإبل . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٣) .
(٣) ذا تدرإ : أى ذا دفع ، من قولك : درأه إذا دفعه . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٣) .
(٤) فى الأصل : « وما كان بدرا » ؛ وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، [illegible]

إبراهيم ويَعقوب بن عُتبة . قالا : كانت العطايا فارِعَةً[1] من الغنائم. قال : حدّثنى موسى بن إبراهيم ، عن أبيه ، قال : كانت من الخُمُس . فأثبت القولين أنّها من الخُمُس .

قال سعد بن أبى وَقّاص : يا رسول الله ، أعطيتَ عُيَينة بن حِصن والأقرع بن حابس مائةً مائةً وتركتَ جُعَيل بن سُراقة الضَّمْرِىّ ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أما والذى نفسى بيده ، لَجُعَيل بن سُراقة خيرٌ من طِلاع[2] الأرض كلّها مثل عُيَينة والأقرع . ولكنى تألّفتُهما ليُسلما ، ووَكَلْتُ جُعَيلَ بن سُراقة إلى إسلامه .

وجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفى ثوب بِلال فِضّة يُقبضها للناس على ما أراه الله . فأتاه ذو الخُوَيْصِرَةِ التّميمىّ فقال : اعْدِلْ يا رسول الله ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وَيْلَك ! فمَن يَعدِل إذا لم أعدِل ؟ قال عمر : يا رسول الله ، ايذن لى أن أضرب عُنُقه ! قال : دَعْه ، إنّ له أصحاباً ! يَحقِر أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يُجاوِز تَراقِيَهم ، يَمرقُون من الدّين كما يَمرُق السّهم من الرَّمِيَّة ، ينظر [الرامى] فى قُذَذِه[3] فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر فى نَصْله فلا يرى شيئاً ، ثم ينظر فى رِصافِه[4] فلا يرى شيئاً ، قد سَبَق الفَرْثَ والدَّمَ ، يخرجون على فِرْقَةٍ من المسلمين . رأيتُهم إنّ فيهم رجلاً

(١) أى مرتفعة صاعدة من أصلها قبل أن تخمس . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٩٦) .

(٢) طلاع الأرض : أى ما يملؤها حتى يطلع عنه ويسيل . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٤٢) .

(٣) القذذ : ريش السهم . (الصحاح ، ص ٥٦٨) .

(٤) الرصاف : عقب يلوى على مدخل النصل فيه . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٥٣) .

أسود ، إحدى يديه [مثل ثَدْى][١] المرأة أو كَبَضْعَةٍ تَدَرْدَرُ[٢] . فكان أبو سَعيد يقول : أشهد لَسمعت عَليًّا يُحدّث هذا الحديث .

قال عبد الله بن مَسعود : سمعت رجلاً من المنافقين يومئذٍ ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُعطى تلك العَطايا ، وهو يقول : إنها العَطايا ما يُراد بها وَجْهُ الله ! قلت : أما واللهِ لأُبلغنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما قلتَ . فجئتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته ، فتغيّر لونه حتى ندمتُ على ما صنعته ، فوددتُ أنّى لم أُخبِره ، ثم قال : يرحم الله أخى موسى ! قد أُوذِى بأكثرَ من هذا فصبر ! وكان المُتكلّم بهذا مُعَتّب بن قُشَير العَمْرىّ . ثم أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زيد بن ثابت بإحْصاء الناس والغنائم ، ثم فَضَّها[٣] على الناس ، فكانت سِهامهم ؛ لكلّ رجلٍ أربع من الإبل أو أربعون شاة ، فإن كان فارساً أخذ اثنتى عشرة من الإبل ، أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرسٍ واحد لم يُسهَم له .

ذكر وفد هَوازِن

قالوا : فقدم وفد هَوازِن ، وكان فى الوفد عمّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من الرّضاعة ، قال يومئذٍ : يا رسول الله ، إنما فى هذه الحظائر مَن كان يَكفُلك من عَمّاتك وخالاتك وحَواضِنك ، وقد حَضَنّاك فى حُجورنا ،

(١) الزيادة عن مسلم . (الصحيح ، ج ٢ ، ص ٧٤٤) .
(٢) تدردر : أى ترجرج تجىء وتذهب ، والأصل تتدردر ، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٠) .
(٣) فضها : أى فرقها . (الصحاح ، ص ١٠٩٨) .

وأَرضعناك[1] بثُديِّنا ، ولقد رأَيتُك مُرضَعاً فما رأيتُ مُرضَعاً خيرًا منك ، ورأَيتك فَطيماً فما رأَيت فَطيماً خيرًا منك . ثم رأيتك شابًّا فما رأَيْتُ شابًّا خيرًا منك ، وقد تكاملت فيك خِلالُ الخير ، ونحن مع ذلك أَهْلُك وعشيرتك ، فامْنُنْ علينا منّ الله عليك ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد استأْنيتُ بكم حتى ظننتُ أنّكم لاتَقْدَمون ، وقد قُسِم السَّبْى ، وجَرَتْ فيهم السُّهمان . وقدم عليه أَربعة عشر رجلاً من هَوازِن مسلمين ، وجاءوا بإسلام مَن وراءهم من قومهم ، فكان رأسَ القوم والمتكلّم أبو صُرَد زُهَير بن صُرَد ، فقال : يا رسول الله . إنَّا أهْلُك وعَشيرتك ، وقد أصابنا من البَلاء ما لا يَخْفَى عليك . يا رسول الله ، إنما فى هذه الحظائر عَمّاتك وخالاتك وحَواضِنك اللّاتى كُنَّ يَكْفُلْنك . ولو أنّا مَلَحْنا[2] للحارث بن أبى شِمْر وللنُّعمان بن المُنذِر ، ثم نزلا منّا بمثل الذى نزلتَ به ، رَجَوْنا عَطْفَهما وعائِدَتَهما[3] ، وأنت خير المَكفولين . ويقال : إنّه قال يومئذٍ أبو صُرَد : إنما فى هذه الحظائر أخواتك وعَمّاتك وبنات عَمّاتك وخالاتك وبنات خالاتك ، وأبعدهنّ قريبٌ منك . يا رسول الله ! بأبى أنت وأمّى . إنهنّ حَضَنّك فى حُجورهنّ ، وأرضعنك بثُديّهنّ ، وتورّكنك على أوراكهنّ ، وأنت خير المَكفولين ! وقال :

أُمْنُنْ علينا رسولَ الله فى كَرَمٍ ... فإنَّك المَرْءُ نَرجوه ونَدّخِـرُ
أُمْنُنْ على نِسْوَةٍ قدعاقها[4] قَدَرٌ ... مُمزَّقٌ شَمْلُها فى دهرها غِيَرُ

(١) فى الأصل : « رضعناك » .

(٢) فى الأصل : « ملجأنا » . ولو أن ملحنا : أى لو كنا أرضعنا لهما . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٠٥) .

(٣) العائدة : الفضل . (شرح أبى ذر ، ص ٤١١) .

(٤) فى الأصل : [illegible] (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص [illegible]) .

أُمْنُنْ على نِسْوَةٍ قد كنتَ تَرْضَعُها ... إذ فوكَ مملوءةٌ من مَحْضِها الدِّرَرُ(١)

اللَّائي إذ كنتَ طِفْلاً كنتَ تَرْضَعها ... وإذ يزينكَ(٢) ما تَأْتي وما تَذَرُ

ألا تَدارَكها نَعْماءُ تَنْشُرُها ... يا أَرْجَحَ الناسِ حتى حِينَ يُخْتَبَرُ

لا تجعلنَّا كمن شالتْ نَعامَتُه(٣) ... واستبقِ منَّا فإنَّا مَعشرٌ زُهُرُ

إنَّا لَنَشْكُر آلاءً وإن قَدُمَتْ ... وعندنا بَعْدَ هذا اليوم مُدَّخَرُ

فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ أحسن الحديث أصدقُه ، وعندى مَن تَرَون من المسلمين ؛ فأَبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ قالوا : يا رسول الله ، خَيَّرتَنا بين أحسابنا وبين أموالنا ، وما كنَّا نَعدِل بالأحساب شيئاً . فرُدَّ علينا أبناءَنا ونساءَنا ! فقال النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : أمّا ما لى ولبنى عبد المطَّلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ؛ وإذا صلَّيتُ الظُّهْر بالناس فقولوا : إنَّا لنَسْتَشْفِع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ! فإنِّى سأقول لكم : ما كان لى ولبنى عبد المطَّلب فهو لكم ، وسأطلب لكم إلى الناس . فلمّا صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الظُّهْر بالناس قاموا فتكلَّموا بالذى أمرهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا : إنَّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطَّلب فهو لكم . فقال المهاجرون : فما كان لنا فهو لرسول الله ! وقالت الأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ! قال الأقْرَع بن حابس : أمّا أنا وبنو تَميمٍ فلا ! وقال عُيَينة بن حِصْن :

(١) أى الدفعات الكثيرة من اللبن . (السيرة الحلبية ، ج ٢ ، ص ٢٥٠) .

(٢) فى الأصل : « يريبك » وأثبتنا ما فى السهيلى . (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٣٠٦) . وانظر أيضاً ابن كثير . (البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٣٥٣) .

(٣) أى تفرقت كلمتهم ، أو ذهب عزهم . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٤٠٤) .

أمّا أنا وفَزارة فلا ! وقال عبّاس بن مِرْداس السُّلَمى : أمّا أنا وبنو سُلَيم فلا ! قالت بنو سُلَيم : ما كان لنا فهو لرسول الله ! فقال العبّاس : وَهَنْتُمونى[1] ! ثم قام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى الناس خطيباً فقال : إنّ هؤلاء القوم جاءوا مسلمين . وقد كنتُ استأنيتُ بهم فخَيَّرتُهم بين النساء والأبناء والأموال . فلم يَعدِلوا بالنساء والأبناء . فمَن كان عنده منهنّ شىءٌ فطابت نفسه أن يردّه فليُرسِل . ومَن أبى منكم وتمسّك بِحَقّه فَلْيَرُدَّ عليهم . ولْيَكُن فَرْضاً علينا ستّ فرائض من أوّل ما يُفِىءُ اللهُ به علينا ! قالوا : يا رسول الله . رَضِينا وسَلَّمنا ! قال : فمُروا عُرَفاءكم أن يدفعوا ذلك إلينا حتى نَعلم . فكان زيد بن ثابت يطوف على الأنصار يسألهم : هل سَلَّموا ورضوا ؟ فخَبَّروه أنّهم سَلَّموا ورضُوا . ولم يتخلّف رجلٌ واحدٌ . وبعث عمر بن الخطّاب رضى الله عنه إلى المهاجرين يسألهم عن ذلك ، فلم يتخلّف منهم رجلٌ واحدٌ . وكان أبو رُهْم الغِفارىّ يطوف على قبائل العرب . ثم جَمعوا العُرَفاء . واجتمع الأُمناءُ الذين أرسلهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . فاتّفقوا على قول واحد . تسليمهم ورِضاهم . ودفع ما كان فى أيديهم من السَّبْى . فكانت المرأة التى عند عبد الرحمن بن عَوْف قد خُيِّرَتْ تُقيم أو ترجع إلى قومها . فاختارت قومها فرُدَّت إليهم . والتى عند عَلىّ وعُثمان وطَلْحة وصَفوان بن أُمَيّة وابن عمر ، رجعن إلى قومهنّ . وأمّا التى عند سعد بن أبى وَقّاص فاختارت سعدًا ولها منه وَلَدٌ .

وكان عُيَينة قد خيّروه فى السَّبْى فأخذ رأساً منهم . نظر إلى عجوزٍ كبيرةٍ فقال : هذه أمّ الحىّ ! لعلّهم أن يَغْلوا بفدائها . فإنّه عسى أن

---

(١) فى الأصل : « وهبتمونى » ، ووهنتمونى : أى أضعفتمونى . (الصحاح ، ص ٢٢١٦) .

يكون لها فى الحىّ نَسَب ! فجاء ابنها إلى عُيَينة فقال : هل لك فى مائة من الإبل ؟ قال : لا . فرجع عنه وتركه ساعةً ، فجعلت العجوز تقول لابنها : ما أَرَبُك[1] فى نَقْد مائة ناقة ؟ اتركه ، فما أسرع ما يتركنى بغير فداء ! فلمّا سمعها عُيَينة قال : ما رأيت كاليوم خُدْعَة ! واللهِ ما أنا من هذه إلاّ فى غُرورٍ ولا جَرَم ، واللهِ لأُباعدنّ أثركِ منّى ! قال : ثم مرّ به ابنها فقال : هل لك فى العجوز فيما دعوتَنى إليه ؟ قال ابنها : لا أزيدك على خمسين . قال عُيَينة : لا أفعل . قال : فلبث ساعةً فمرّ به مرّةً أخرى وهو مُعرِضٌ عنه . قال عُيَينة : هل لك فى العجوز فى الذى بذلتَ لى؟ قال الفتى : لا أزيدك على خمس وعشرين فَريضة[2] ، هذا الذى أقوَى عليه . قال عُيَينة : واللهِ لا أفعل . بعد مائة فريضةٍ خمسة وعشرون ! فلمّا تخوّف عُيَينة أن يتفرّق الناسُ ويرتحلون جاءه عيَينة فقال : هل لك إلى ما دعوتَنى إليه ؟ قال الفتى : هل لك إلى عشر فرائض أعطيكها ؟ قال عُيَينة : واللهِ لا أفعل ! فلمّا رحل الناس ناداه عُيَينة : هل لك إلى ما دعوتَنى إليه إن شئتَ ؟ قال الفتى : أرْسِلْها وأَحمِلُك . قال : لا واللهِ ، ما لى بحَمْلك حاجة . قال : وأقبل عُيَينة على نفسه لائماً لها ، ويقول : ما رأيت كاليوم أمرًا . قال الفتى : أنت صنعتَ هذا بنفسك ، عمدتَ إلى عجوزٍ كبيرة ، واللهِ ماثَدْيُها بناهد، ولا بطنها بوالد ، ولا فُوها[3] ببارد ، ولا صاحبها بواجد[4] ، فأَخذتَها من بين مَن ترى . فقال عُيَينة : خذها لا بارك الله لك فيها ، ولا حاجةَ لى فيها ! قال ، يقول الفتى :

---

(١) فى الأصل: « ما اريك » . والأرب : الحاجة . (الصحاح ، ص ٩٧) .

(٢) الفريضة : البعير المأخوذ فى الزكاة ، سمى فريضة لأنه فرض واجب على رب المال ، ثم اتسع حتى سمى البعير فريضة فى غير الزكاة . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٩٤) .

(٣) فى الأصل: «ولا فوقها» ؛ والتصحيح من ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٣٣).

(٤) أى لا يحزن زوجها عليها لأنها عجوز كبيرة . (شرح أبى ذر ، ص ٤١١) .

يا عُيَينة ، إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد كسا السَّبْى فأخطأها من بينهم بالكسوة ، فما أنت كاسيها ثوباً ؟ قال : لا والله ، ما ذاك لها عندى ! قال : لا تفعل ! فما فارقه حتى أخذ منه شمل ثوب ، ثم ولّى الفتى وهو يقول : إنّك لغير بصير بالفُرَص ! وشكا عُيَينة إلى الأقرع ما لقى ، فقال الأقرع : إنّك والله ما أخذتَها بِكرًا غَريرة[١] ، ولا نَصَفاً[٢] وَثيرة[٣] ، ولا عجوزًا أصيلة ، عمدتَ إلى أحوج شيخ فى هَوازِنَ فسبيتَ امرأته . قال عُيَينة : هو ذاك .

وتمسّكت بنو تَميم مع الأقْرَع بالسَّبْى ، فجعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الفِداء ستّ فرائض ، ثلاث حِقاقٍ[٤] وثلاث جِذاعٍ[٥] . وكان مُعاذ بن جَبَل يقول : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يومئذٍ : لو كان ثابتاً على أحدٍ من العرب وَلاءٌ أو رِقٌّ لثبت اليوم ، ولكن إنما هو إسارٌ وفِدْيَةٌ . وكان أبو حُذَيْفة العَدَوىّ على مَقاسم المَغْنَم .

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم للوَفْد : ما فعل مالِك[٦] ؟ قالوا : يارسول الله ، هَرَب فلَحِق بحِصْن الطائف مع ثَقيف . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أخبِروه أنّه إن كان يأتى مُسلماً رددتُ عليه أهْلَه ومالَه وأعطيتُه مائةً من الإبل . وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أمر

(١) الغريرة : المتوسطة من النساء فى السن . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .
(٢) النصف : المرأة بين الحداثة والمسنة . (الصحاح ، ص ١٤٣٢) .
(٣) وثيرة : أى كثيرة اللحم . (الصحاح ، ص ٨٤٤) .
(٤) الحقاق : جمع الحق ، والحق من الإبل الداخلة فى السنة الرابعة . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٢٢١) .
(٥) الجذاع : جمع الجذع ، وهو من الإبل ما دخل فى السنة الخامسة . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٥٠) .
(٦) أى مالك بن عوف .

بحَبْس أهلِ مالِك بمكّة عند عَمّتهم أمّ عبد الله بنت أبى أُمَيّة . فقال الوفد : يا رسول الله ، أُولئك سادتنا وأحِبّتنا إلينا . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنما أُريد بهم الخير . فَوَقَفَ مال مالِك فلم يجرِ فيه السّهْم ، فلمّا بلغ مالِكَ بن عَوْف الخبر ، وما صنع فى قومه ، وما وعده رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأنّ أهله وماله مَوقوف ، وقد خاف مالِكٌ ثَقيفاً على نفسه أن يعلموا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال له ما قال فيحبسونه ، أمر براحلته فقُدّمت حتى وُضِعت بدَحْنا[1] ، وأمر بفَرَسٍ له فأُتِى به ليلاً ، فخرج من الحِصْن فجلس على فَرَسه ليلًا فركضه حتى أتى دَحْنا ، فركب على بعيره فلَحِق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيُدرِكه قد ركب من الجِعِرّانة ، فردّ عليه أهلَه ومالَه وأعطاه مائةً من الإبل ، وأسلم فحسُن إسلامه . ويقال : لَحِقه بمكّة ، واستعمله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على مَن أسلم من قومه ومن تلك القبائل حول الطائف من هَوازِنَ وفَهْم ؛ فكان قد ضَوَى إليه قومٌ مسلمون ، وعَقَد له لِواءً ، فكان يُقاتل بهم مَن كان على الشِّرْك ، ويُغير بهم على ثَقيف ، يُقاتلهم بهم ، ولا يخرج لثَقيفٍ سَرْحٌ إلاّ أغار عليه . وقد رجع حين رجع وقد سَرّح الناسُ مَواشيَهم ، وأمِنوا فيما يرون حيث انصرف عنهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فكان لا يقدر على سَرْحٍ إلاّ أخذه ، ولا على رجلٍ إلاّ قتله . فكان قد بعث إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بالخُمُس ممّا يُغير به ، مرّةً مائةَ بعيرٍ ومرّةً ألف شاة ، ولقد أغار على سَرْحٍ لأهل الطائف فاستاق لهم ألف شاة فى غداة واحدة . فقال فى ذلك أبو مِحْجَن بن حَبيب بن عمرو بن عُمَير الثَّقَفىّ :

تَهابُ الأعداءُ جانبَنا ثُمّ تَغزونا بنو سَليمَةْ

(١) دحنا : من مخاليف الطائف . (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٣) .

وأتانا مالِكٌ بِهِمُ ناقِضاً لِلعَهْدِ والحُرُمَهْ
وأتَوْنا فى مَنازِلِنا ولقد كانوا أولِى نَقِمَهْ

فقال مالِك بن عَوْف :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بِمِثْلِه فى الناس كلِّهمُ بمِثْلِ محمَّدِ
أوْفى وأعْطَى للجَزيلِ[1] إذااجْتُدِى ومتى تشأْ يُخْبِرْكَ عمَّا فى غَدِ[2]
وإذا الكَتيبةُ عَرَّدَتْ[3] أنيابُهـــا بالمَشْرَفِىِّ[4] وضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ[5]
فكأنه لَيثٌ على أشبـــالِهِ وَسْطَ الهَبَاءَةِ[6] خادِرٌ[7] فى مَرْصَدِ

قالوا : لمَّا أعطى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى قُرَيش وفى قبائل العرب ولم يكن فى الأنصار منها شىء ، وَجَدَ هذا الحىّ من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت القالة[8] حتى قال قائلهم : لقى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قومه . أمَّا حِينَ القتال فنحن أصحابه ، وأما حِينَ القَسْم فقومه وعشيرته ، ووَدِدْنا أنَّا نعلم ممَّن كان هذا ! إن كان هذا من الله

(١) الجزيل : العطاء الكثير . واجتدى : أى طلب منه الجدوى ، وهو العطية . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .
(٢) فى الأصل : « عما يكون فى غد » ، ولا يستقيم الوزن بها ، وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٣٤) .
(٣) عردت : أى عوجت . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .
(٤) المشرفى : السيف . قال أبو عبيدة : نسبت السيوف المشرفية إلى مشارف ، وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف ؛ يقال سيف مشرفى ولا يقال مشارفى ، لأن الجمع لا ينسب إليه إذا كان على هذا الوزن . (الصحاح ، ص ١٣٨٠) .
(٥) المهند : السيف المطبوع من حديد الهند . (الصحاح ، ص ٥٥٤) .
(٦) فى الأصل : « المياة » ؛ وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٣٤) . والهباءة : الغبرة . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .
(٧) الخادر : الداخل فى خدره ، والخدر هنا غابة الأسد . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٢) .
(٨) القالة : كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكى للبعض عن البعض . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٢٨٤) .

صَبَرنا ، وإن كان هذا من رأى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم استعتبناه . فبلغ ذلك رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فغضب من ذلك غضباً شديدًا ، فدخل عليه سعد بن عُبادة ، فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : ما يقول فىَّ قَومُك ؟ قال : وما يقولون يا رسول الله ؟ قال : يقولون : أمَّا حين القتال فنحن أصحابه ، وأمَّا حين القَسْم فقومه وعشيرته ، وودِدنا أنَّا نعلم من أين هذا ! إن كان من قِبَل الله صَبَرنا ، وإن كان من رأى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم استعتبناه . فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ فقال سعد : يا رسول الله ، ما أنا إلَّا كأحدهم ، وإنَّا لنُحبُّ أن نعلم مِن أين هذا ؟ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : فاجْمَعْ مَن كان هاهنا من الأنصار فى هذه الحَظيرة . فجمع الأنصار فى تلك الحَظيرة ، فجاء رجالٌ من المهاجرين فتركهم فدخلوا ، وجاء آخرون فردّهم ، فلمَّا اجتمعوا له جاءه سعد بن عُبادة فقال : يا رسول الله ، قد اجتمع لك هذا الحىّ من الأنصار . فأتاهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم والغضب يُعرَف فى وجهه ، فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله ، ثم قال : يا معشرَ الأنصار ، مَقالةٌ بلغتْنى عنكم ، وَجِدَةٌ[1] وَجَدتُموها فى أنفسكم ، ألم آتِكم ضُلَّالاً فهداكم الله ، وعالَةً[2] فأغناكم الله ، وأعداءً فألَّف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضلُ ! قال : ألا تُجيبونى يا معشرَ الأنصار ؟ قالوا : وماذا نُجيبك يا رسول الله ، ولِرسول الله المَنّ والفَضْل ؟ قال : أما والله لو شئتم قلتم فصدَقتم : أتيتَنا مُكذَّباً فصدَّقناك ، ومَخذولاً[3] فنصرناك ،

(١) الجدة والموجدة : الغضب . (الصحاح ، ص ٥٤٤) .

(٢) العالة : الفقراء . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٤) .

(٣) المخذول : المتروك . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٤) .

وطريدًا فآويناك ، وعائلاً فآسَيناك[١] ! وجدتم فى أنفسكم يا معشرَ الأنصار فى شيء من الدُّنيا تألَّفتُ به قوماً ليُسلموا ، ووكلتُكم إلى إسلامكم ؛ أفلا تَرضَوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجِعُوا برسول الله إلى رِحالكم ؟ والذى نفس محمّدٍ بيده ، لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار . ولو سلك الناس شِعْباً وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار . أكتبُ لكم بالبَحْرَين كتاباً من بعدى تكون[٢] لكم خاصّةً دون الناس ! فهو يومئذٍ أفضل ما فتح الله عليه من الأنصار . قالوا : وما حاجتُنا بالدُّنيا بعدك يا رسول الله ؟ قال : إمّا لا فستَرَوْن بعدى أَثَرَةً ، فاصبِروا حتّى تلْقَوا الله ورسوله ، فإنّ موعدكم الحَوْض ، وهو كما بين صَنعاء وعُمان ، وآنِيَتُه أكثر من عدد النُّجوم . اللّهمّ ارْحَم الأنصارَ وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! قال : فبكى القوم حتّى أخضلوا لِحاهم ، وقالوا : رَضينا يا رسول الله حَظًّا وقَسْماً . وانصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتفرّقوا .

وانتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى الجِعِرّانة ليلةَ الخميس لخمس ليالٍ خَلَوْن من ذى القعدة ، فأقام بالجِعِرّانة ثلاثَ عشرة ، فلمّا أراد الانصراف إلى المدينة خرج من الجِعِرّانة ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة بقيت من ذى القعدة ليلاً ؛ فأحرم من المسجد الأقصى الذى تحت[٣] الوادى

---

(١) آسيناك : أى أعطيناك حتّى جعلناك كأحدنا . (شرح أبى ذر ، ص ٤١٥) .

(٢) فى الأصل : « يكون » .

(٣) فى الأصل : « إلى نحو الوادى » . والمثبت من القسطلانى يروى عن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٤٨) .

بالعُدْوَة القُصوى ، وكان مُصلىَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا كان بالجِعِرّانة ـ فأمّا هذا المسجد الأدنى ، فبناه رجلٌ من قُرَيش واتّخذ ذلك الحائط عنده ـ ولم يَجُزْ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم الوادىَ إلاّ مُحرماً ، فلم يزل يُلبّى حتى استلم الرُّكْن . ويقال : لمّا نظر إلى البيت قطع التّلْبِية . فلمّا أتى أناخ راحلته على باب بنى شَيْبَة ، ودخل وطاف ثلاثة أشْواط[1] يَرمُل[2] من الحجر إلى الحجر ؛ ثم خرج فطاف بين الصّفا والمَرْوَة على راحلته . حتى إذا انتهى إلى المَرْوَة فى الطواف السابع حلق رأسه عند المَرْوَة ، حلقه أبو هند عبد بنى بَياضَة ، ويقال حلقه خِراش بن أُمَيّة ، ولم يَسُقْ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم منها هَدْياً . ثم انصرف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الجِعِرّانة من ليلته فكان كَبائِتٍ بها ، فلمّا رجع إلى الجِعِرّانة خرج يوم الخميس فسلك فى وادى الجِعِرّانة ، وسالك معه حتى خرج على سَرِف ، ثم أخذ الطريق حتى انتهى إلى مَرّ الظَّهْران .

واستعمل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عَتّاب بن أَسيد على مكّة ، وخلّف مُعاذ بن جَبَل وأبا موسى الأَشْعَرىّ يُعلِّمان الناسَ القرآنَ والفِقْه فى الدين . وقال له : أتدرى على مَن أستعملُك ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! قال : استعملتك على أهل الله ، بَلِّغْ عنى أربعاً : لا يَصلُح شَرْطان فى بَيْعٍ ، ولا بَيْعٌ وسَلَفٌ ، ولا بَيْعُ ما لم يُضْمَن ، ولا تأكلْ رِبْحَ ما ليس عندك ! وأقام للناس الحجّ عَتّابُ بن أَسيد تلك السنة ـ وهى سنة ثمان ـ بغير تأمير من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على الحجّ ، ولكنه أمير مكّة ، وحجّ

(١) أشواط : جمع شوط ، والمراد به المرة الواحدة من الطواف حول البيت وهو فى الأصل مسافة من الأرض يعدوها الفرس (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٤٠) .

(٢) رمل : أى أسرع فى المشى . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٤) .

ناسٌ من المسلمين والمشركين على مُدَّتهم ،ويقال : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم استعمله على الحجّ . وقدم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوم الجمعة لثلاثٍ بقين من ذى القعدة .

قدوم عُروة بن مَسعود

قالوا : كان عُروة بن مَسعود حين حاصر النبىُّ صلَّى الله عليه وسلّم أهلَ الطائف بجُرَش ، يتعلَّم عَمَل الدَّبّابات والمَنْجَنيق ، ثم رجع إلى الطائف بعد أن ولَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فعمل الدَّبّابات والمَنْجَنيق والعَرّادات[1] وأعدّ ذلك حتى قَذَف الله عزّ وجلّ فى قلبه الإسلام ، فقدم المدينة على النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فأسلم ، ثم قال : يا رسول الله ايذن لى فآتى قومى فأدعوهم إلى الإسلام ، فوالله ما رأيت مثل هذا الدِّين ذهب عنه ذاهب . فأقدَم على أصحابى وقومى بخيرٍ قادم ، وما قدم وافدٌ قَطُّ على قومه إلّا مَن قدم بمثل ما قدمتُ به ، وقد سبقتُ يارسول الله فى مواطنَ كثيرة . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّهم إذًا قاتلوك ! قال : يا رسول الله ، لأنا أحبّ إليهم من أبكار أولادهم . ثم استأذنه الثانيةَ فأعاد عليه الكلام الأوّل ، وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم :إنّهم إذًا قاتلوك. قال : يا رسول الله ، لو وجدونى نائماً ما أيقظونى . واستأذنه الثالثة فقال : إن شئتَ فاخرجْ ! فخرج إلى الطائف فسار إليها خمساً ، فقدم على قومه عِشاءً فدخل منزله ، فأنكر قومه دخولَه منزلَه قبل أن يأتى الرَّبة[2] ؛ ثم قالوا : السفر قد حَصَره[3] . فجاءوا

(١) العرادة : أصغر من المنجنيق . (الصحاح ، ص ٥٠٥) .
(٢) يعنى : اللات .
(٣) حصره : أى منعه عن مقصده . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٣٣) .

منزله فحيّوه تحيّة الشّرْك ، فكان أوّل ما أنكر عليهم تحيّة الشّرْك ، فقال : عليكم تحيّة أهل الجنّة . ثم دعاهم إلى الإسلام ، وقال : يا قوم ، أتتّهمونني ؟ ألستم تعلمون أنّي أوسطكم نَسَبًا ، وأكثركم مالاً ، وأعزّكم نَفَرًا ؟ فما حملني على الإسلام إلّا أنّي رأيتُ أمرًا لا يذهب عنه ذاهب ! فاقبلوا نُصْحِي ، ولا تَسْتَغْصُونِي . فوالله ما قدم وافدٌ على قومٍ بأفضل ممّا قدمتُ به عليكم ! فاتّهموه ، واستغشّوه . وقالوا : قد واللّاتِ وقع في أنفسنا حيثُ لم تَقْرُب الرَّبّة . ولم تَحلِق رأسك عندها أنّك قد صَبَوْتَ[1] ! فآذَوْه ، ونالوا منه ، وحَلُم عليهم ، فخرجوا من عنده يَأْتَمِرون كيف يصنعون به ، حتى إذا طلع الفَجْرُ أوْفَى على غرفةٍ له فأذّن بالصّلاة ، فرماه رجلٌ من رَهْطه من الأحلاف يقال له وَهْب بن جابر — ويقال : رماه أوْس بن عَوْف من بني مالِك ، وهذا أثبت عندنا — وكان عُروة رجلاً من الأحلاف ، فأصاب أكْحَلَه[2] ، فلم يَرْقأ دَمُه[3] . وحشد قومُه في السلاح . وجمع الآخرون وتجايشوا ، فلمّا رأى عُروة ما يصنعون قال : لا تقتتلوا فيّ ، فإنّي قد تصدّقتُ بدمي على صاحبه ليُصلِح بذلك بينكم ، فهي كرامةُ الله أكرمني الله بها ، الشهادة ساقها الله إليّ ؛ أشهد أنّ محمّدًا رسول الله ، خبّرني عنكم هذا أنّكم تَقتُلونني ! ثم قال لرَهْطه : ادفنوني مع الشهداء الذين قُتِلُوا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يرتحل عنكم . قال : فدفنوه معهم . وبلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قَتْلُه فقال : مَثَل عُروة مَثَل صاحب ياسين ، دعا قومه إلى الله عزّ وجلّ فقتلوه . ويقال : إنّ عُروة لم يَقدَم المدينة ، وإنما لحِق رسولَ الله صلّى الله

(١) انظر النهاية . (ج ٢ ، ص ٢٤٨) .
(٢) الأكحل : عرق في اليد . (الصحاح ، ص ١٨٠٩) .
(٣) في الأصل : « لم يرِ قدمه » . ورقأ الدم إذا سكن وانقطع . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٩٤) .

عليه وسلّم بين مكّة والمدينة فأسلم ثم انصرف . والقول الأوّل أثبت عندنا . فلمّا قُتل عُروة ، قال ابنه أبو مُلَيح بن عُروة بن مَسعود ، وابن أخيه قارب بن الأسود بن مَسعود لأهل الطائف : لا نُجامعكم على شىء أبدًا ، وقد قتلتم عُروة . ثم لحقا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأسلما ، فقال لهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : تولّيا مَن شئتما . قالا : نتولّى اللهَ ورسوله . قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : وخالكما أبو سُفيان بن حَرْب ، حالِفاه . ففعلا ، ونزلا على المُغيرة بن شُعْبَة . وأقاما بالمدينة حتى قدم وفد ثَقيف فى رمضان سنة تسع .

قالوا : وكان عمرو بن أُمَيّة أحد بنى عِلاج . وكان من أدهى العرب ، وأنكرهم[1] ، وكان مُهاجِرًا لعبد ياليل بن عمرو ، وتمشّى إلى عبد ياليل ظُهْرًا حتى دخل دارَه ، ثم أرسل إليه : إنّ عمرًا يقول : اخرجْ إلىّ ! فلمّا جاء الرسول إلى عبد ياليل قال : وَيْحَك ! عمرو أرسلك ؟ قال : نعم ، وهو واقفٌ فى الدار . وكان عبد ياليل يُحبّ صلحه ويكره أن يمشى إليه ، فقال عبد ياليل : إنّ هذا لشىءٌ ما كنت أظنّه بعمرو ، وما هو إلّا عن أمرٍ قد حدث وكان أمرًا سوءًا ، ما لم يكن من ناحية محمّد . فخرج إليه عبد ياليل ، فلمّا رآه رحّب به . فقال عمرو : قد نزل بنا أمرٌ ليست معه هِجْرَة ، إنّه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت ، وقد أسلمت العربُ كلّها وليست لكم بهم طاقةٌ ، وإنّما نحن فى حِصْننا هذا ، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تُصاب ! ولا نأمن من أحدٍ منّا يخرج شبرًا واحدًا من حِصْننا هذا ، فانظروا فى أمركم ! قال عبد ياليل : قد والله رأيت

(١) فى الأصل : « وأنكره » . وأنكرهم : أى أبعدهم من الفطنة [illegible]
(النهاية ، ج ٤ ، ص ١٧٥) .

ما رأيتَ ، فما استطعتُ أن أتقدّم بالذى تقدّمتَ به ، وإنّ الحَزْم والرأى الذى فى يَدَيك . قال : فائتمرت ثَقيفٌ بينها ، وقال بعضهم لبعض : ألا تَروْن أنّه لا يأمن لكم سِرْب[1] ، ولا يخرج منكم أحدٌ إلاّ اقْتُطِع ؟ فائتمروا بينهم ، فأرادوا أن يُرسلوا رسولاً إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، كما خرج عُروة بن مَسعود إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . قال : فابعثوا رأسكم عبد ياليل . فكلّموا عبدَ ياليل بن عمرو بن حُبَيب ، وكان سِنّ[2] عُروة . فأبى أن يفعل ، وخشِى إن رجع إلى قومه مُسلماً أن يُصنَع به إذا رجع من عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ما صُنِع بعُروة حتى يبعثوا معه رجالاً . فأجمعوا على رجلَين من الأَحْلاف وثلاثة من بنى مالِك ، فبعثوا مع عبد ياليل الحَكَم بن عمرو بن وَهْب بن مُعَتِّب ، وشُرَحْبيل بن غَيلان بن سَلَمَة بن مُعَتِّب ، وهؤلاء الأحلاف رَهْط عُروة . وبعثوا فى بنى مالِك : عُثمان بن أبى العاص ، وأَوْس بن عَوْف ، ونُمَير بن خَرَشَة ، ستّة . ويقال : إنّ الوفد كانوا بضعةَ عشر رجلاً ، فيهم سُفيان بن عبد الله .

قالوا : فخرج بهم عبد ياليل وهو رأسهم وصاحب أمرهم ، ولكنه أحبّ إن رجعوا أن يُسهِّل كلّ رجل رَهْطَه ، فلمّا كانوا بوادى قَناة ممّا يلى دارِ حُرُضٍ[3] نزلوا ، فيجدون نَشَرًا[4] من الإبل ، فقال قائلهم : لو سألنا صاحب الإبل لِمَن الإبل ، وخبّرنا من خبر محمّد . فبعثوا عُثمان بن أبى العاص . فإذا هو المُغيرة بن شُعبة يَرعَى فى نَوْبَته رِكابَ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وكانت رِعْيَتُها نُوَباً على أصحاب رسول الله

(١) السرب : المسلك والطريق . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٥٥) .
(٢) فى الأصل : « [illegible] » ، وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٨٣) .
(٣) فى الأصل : « [illegible] » ، والمثبت من السمهودى ، قال : وهو واد من أودية قناة بالمدينة . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٢٨٧) .
(٤) أى [illegible] . (الصحاح ، ص ٨٢٨) .

صلّى الله عليه وسلّم ، فلمّا رآهم سلّم عليهم وترك الرّكاب عندهم ، وخرج يشتدّ، يُبشّر النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم بقدومهم . حتى انتهى إلى باب المسجد فيلقى أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه فأخبره خبر قومه . فقال أبو بكر : أقسمتُ بالله عليك لا تَسبِقنى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بخبرهم حتى أكون أنا أُخبِره ـ وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد ذكرهم ببعض الذكر ـ فأُبشّره بمَقدمهم. فدخل أبو بكر رضى الله عنه على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فأخبره والمُغيرة على الباب . ثم خرج إلى المُغيرة فدخل المُغيرة على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو مَسرور . فقال : يا رسول الله ، قد قدم قومى يُريدون الدخول فى الإسلام بأن تَشرُط لهم شروطاً ، ويكتبون كتاباً على مَن وراءهم من قومهم وبلادهم. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا يسألون شرطاً ولا كتاباً أعطيتُه أحدًا من الناس إلاّ أعطيتهم . فبشّرْهم ! فخرج المُغيرة راجعاً فخبّرهم ما قال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وبشّرهم وعلّمهم كيف يُحيّون رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم . فكلّ ما أمرهم المُغيرة فعلوا إلّا التحيّة ، فإنّهم قالوا : أَنْعِمْ صباحاً ! ودخلوا المسجد فقال الناس : يا رسول الله ، يدخلون المسجد وهم مُشركون ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ الأرض لا يُنَجّسها شىء ! وقال المُغيرة بن شُعبة : يا رسول الله ، أنزل قومى علىّ ، وأكرمهم ، فإنّى حديث الجُرْم فيهم . فقال : لا آمنُك أن تُكرِم قومك . وكان جُرْم المُغيرة أنّه خرج فى ثلاثة عشر رجلاً من بنى مالِك ، فقدموا على المُقَوْقَس فحيّا بنى مالِك وجفاه وهو من الأحْلاف ، وكان معه رجلان الشّريد ودَمُّون ؛ فلمّا كانوا بسَباق[1] وضعوا شراباً لهم فسقاهم المُغيرة بيده ،

(١) سباق : واد بالدهناء ، ويروى أيضا بكسر السين . (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٦) .

فجعل يُخنِّف عن نفسه ويَنزِع [١] لبنى مالِك حتى ثَمِلوا وناموا ، فلمّا ناموا وثب إليهم لِيقتلهم ، فشرد الشَّريد منهم ليلتئذٍ ؛ وفَرِق دَمُّون أن يكون هذا مُكرًا منه فتغيّب ، فجعل يصيح : يا دَمُّون ! يا دَمُّون ! فلا دَمُّون . فجعل يبكى ، وخاف أن يكون قتله بعضُهم ، فطلع دَمُّون فقال : أين كنتَ ؟ قال : تغيّبت حين رأيتك صنعت ببنى مالِك ما صنعت ، فخشيتُ أن يكون ذلك ذهاب عقل . قال : إنما صنعتُ ذلك بهم لما حيّاهم المُقَوْقَس وجَفانى . ثم أقبل بأموالهم حتى أتى بها النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم ، فأخبره الخبر ، فقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اخمسْ هذه الأموال . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لسنا نَغدِر ، ولا ينبغى لنا الغَدْر ! فأبى أن يَخمُس أموالَهم .

وأنزل المُغيرةُ ثَقيفاً فى داره بالبَقيع ، وهى خِطّة خطّها النبىّ صلّى الله عليه وسلّم له . فأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بخَيْمات ثلاثٍ من جريدٍ فضُرِبت فى المسجد ، فكانوا يسمعون القراءةَ باللّيل وتَهجُّد أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، وينظرون إلى الصُّفوف فى الصّلاة المَكتوبة ، ويرجعون إلى منزل المُغيرة فيَطعَمون ويتوضّأون ، ويكونون فيه ما أرادوا ، وهم يختلفون إلى المسجد . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُجرى لهم الضّيافة فى دار المُغيرة ، وكانوا [٢] يسمعون خُطْبَة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فلا يسمعونه يذكر نَفْسَه ، فقالوا : أمرَنا بالتشهّد أنّه رسول الله ولا يشهد به فى خُطْبَته ! فلمّا بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم قولُهم قال : أنا أوّل

(١) أى يسقيهم . وأصل النزع الجذب والقلع . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٣٧) .
(٢) فى الأصل : « وكان » .

مَن شهد أنِّى رسول الله ! ثم قام[١] فخَطَب وشَهِد أنَّه رسول الله فى خُطْبَته . فمكثوا على هذا أيّاماً يَغدون على النبىّ صلّى الله عليه وسلَّم كلّ يوم ، يُخلِّفون عُثمان بن أبى العاص على رِحالهم ، وكان أصغرَهم ، فكان إذا رجعوا إليه وناموا بالهاجرة خرج فعَمَد إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلَّم فسأله عن الدِّين واستقرأه القرآنَ ، وأسلم سِرًّا من أصحابه ، فاختلف إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم مرارًا حتى فَقِه ، وسمع القرآن ، وقرأ من القرآن سُوَرًا مِن فى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإذا وجد رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم نائماً عَمَد إلى أبى بكر رضى الله عنه فسأله واستقرأه — ويقال : إذا وجد النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم نائماً جاء إلى أُبَىّ بن كعب فاستقرأه — فبايع النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الإسلام قبل الوفد وقبل القَضِيَّة ؛ وكتم ذلك عثمان من أصحابه ، وأعجب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم به ، وأحبّه. فمكث الوفد أيّاماً يختلفون إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلَّم والنبىّ يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له عبد ياليل : هل أنت مُقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتُكم ، وإلاَّ فلا قَضِيَّةَ ولا صُلْحَ بينى وبينكم ! قال عبد ياليل : أرأيتَ الزِّنا ؟ فإنّا قومٌ عُزّاب بغَرْب[٢] ، لا بُدَّ لنا منه ، ولا يَصبِر أحَدُنا على العُزْبَة . قال : هو ممّا حرّم الله على المسلمين ؛ يقول الله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[٣] . قال : أرأيتَ الرِّبا ؟ قال : الرِّبا حرامٌ ! قال : فإنَّ أموالنا كلَّها رِباً . قال :

---

(١) فى الأصل : « قال » .

(٢) فى الأصل: « بعرب » بالعين المهملة ، وما أثبتناه أوفق للمعنى. والغرب : البعد . (النهاية ج ٣ ، ص ١٥٣) .

(٣) سورة ١٧ الإسراء ٣٢ .

لكم رءوس أموالكم ؛ يقول الله تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[١] . قال : أفرأيتَ الخمر ؟ فإنَّها عَصيرُ أعنابنا ، لا بُدَّ لنا منها . قال : فإنَّ الله قد حرَّمها ! ثم تلا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم هذه الآية : ﴿ إنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ والأَنْصابُ والأَزْلامُ . . ﴾[٢] الآية . قال : فارتفع القوم ، وخلا بعضُهم ببعضٍ ، فقال عبد يالِيل : وَيْحكم ! نرجع إلى قومنا بتَحْرِيم هذه الخِصال الثلاث ! واللهِ ، لا تصبر ثَقيفٌ عن الخمر أبدًا ، ولا عن الزِّنا أبدًا . قال سُفيان ابن عبد الله : أيّها الرجل ، إن يُرِدِ اللهُ بها خيرًا تصبرْ عنها ! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا ، فصبروا وتركوا ما كانوا عليه ؛ مع أنَّا نَخاف هذا الرجل ، قد أَوْطَأَ الأَرْضَ غَلَبَةً ونحن فى حِصْنٍ فى ناحيةٍ من الأرض ، والإسلام حولَنا فاشٍ ، واللهِ لو قام على حصننا شهرًا لمتنا جوعاً ؛ وما أرى إلاَّ الإسلام ، وأنا أخاف يوماً مِثْلَ يوم مكَّة !

وكان خالد بن سَعيد بن العاص هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى كتبوا الكتاب ، كان خالد هو الذى كتبه . وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُرسل إليهم بالطعام ، فلا يأْكلون منه شيئاً حتى يأْكل منه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى أسلموا . قالوا : أرأيت الرَّبَّة ، ما تَرى فيها ؟ قال : هَدْمَها . قالوا : هَيْهات ! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا فى هَدْمِها قتلتْ أهلَنا . قال عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه : وَيْحك يا عبد يا لِيل ! إنَّ الرَّبَّة حجرٌ لا يدرى مَن عَبَدَه ممّن لا يَعبُده . قال عبد يالِيل : إنَّا لم نأْتك يا عمر ! فأَسلَموا ، وكَمُل

(١) سورة ٢ البقرة ٢٧٨ .

(٢) سورة ٥ المائدة ٩٠ .

الصُّلح ، وكتب ذلك الكتابَ خالد بن سَعيد . فلمّا كَمُل الصُّلْح كلّموا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يدع الرَّبَّة ثلاث سنين لا يهدمها ، فأَبى . قالوا : سنتين ! فأَبى . قالوا : سنةً ! فأَبى . قالوا : شهرًا واحدًا ! فأَبى أن يُوقِّت لهم وقتاً . وإنما يُريدون بتَرْك الرَّبَّة لِما يخافون من سفهائهم والنساءِ والصبيان ، وكرهوا أن يُروِّعوا قومَهم بهَدْمِها ، فسأَلوا النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعفيهم من هَدْمِها . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: نعم ، أَنا أَبعث أَبا سُفيان بن حَرْب والمُغيرة بن شُعْبَة يهدمانها . واستعفَوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يكسروا أصنامهم بأَيديهم . وقال : أنا آمرُ أَصحابي أَن يكسروها . وسأَلوا النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعفيَهم من الصلاة ؛ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لا خَيْرَ فى دينٍ لا صلاةَ فيه . فقالوا : يا محمّد ، أَمّا الصلاة فسنُصلّى ، وأَمّا الصيام فسنصوم . وتعلَّموا فرائض الإسلام وشرائعه ، وأمرهم رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم أن يصوموا ما بقى من الشهر ، وكان بِلال يأْتيهم بِفِطْرِهم . ويُخيَّل إليهم [أنَّ] الشمس لم تغب فيقولون : ما هذا من رسول الله إلاّ استبارٌ لنا ، ينظر كيف إسلامنا . فيقولون : يا بِلال ، ما غابت الشمس بَعْدُ . فيقول بِلال : ما جئتكم حتى أفطر رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم . فكان الوفد يحفظون هذا عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من تعجيل فِطْرِه . وكان بِلال يأْتيهم بسَحورهم ، قال : فأَستُرهم من الفجر[1] ، فلمّا أرادوا الخروج قالوا : يا رسول الله ، أَمِّرْ علينا رجلاً منّا يؤمُّنا . فأَمّر عليهم عُثمان بن أَبى العاص ، وهو أصغرهم ، لِما رأَى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من حِرصه على الإسلام . قال عُثمان : وكان آخر عَهْدٍ عَهِده

(١) رغبة فى تأخير سحورهم ؛ انظر ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٨٥) .

إلىّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن اتَّخِذْ مُؤَذِّناً لا يأْخذ على أذانه أجرًا ، وإذا أممت قوما فاقدُرهم بأَضعفهم ، وإذا صلَّيتَ لنفسك فأَنت وذاك . ثم خرج الوفد عامدين إلى الطائف ، فلمّا دنَوْا من ثَقيف قال عبد ياليل : أنا أعلم الناسِ بثَقيف فاكتموها القضيّة ، وخَوِّفوهم بالحرب والقتال ، وأَخبِروهم أنّ محمّدًا سأَلنا أُمورًا عظّمناها فأَبيناها عليه ، يسأَلنا تحريم الزِّنا والخمر ، وأن نُبطل أموالنا فى الرِّبا ، وأن نهدم الرَّبَّة . وخرجت ثَقيف حين دنا الوفد ، فلمّا رآهم الوفد ساروا العَنَق[١] وقَطَروا الإبل[٢] ، وتغشَّوْا بثيابهم كهيئة القوم قد حزنوا وكربوا ، فلم يرجعوا بِخَيْرٍ . فلمّا رأَت ثَقيف ما فى وجوه القوم حزنوا وكربوا ، فقال بعضهم : ما جاء وفدكم بخير ! ودخل الوفد ، فكان أوّل ما بدأوا به على اللّات ، فقال القوم حين نزل الوفد إليها[٣] ، وكانوا كذلك يفعلون ، فدخل القوم وهم مسلمون فنظروا فيما خرجوا يدرأون به عن أنفسهم ، وقالت ثَقيف : كأَنّهم[٤] لم يكن لهم بها عهد ولا برؤيتها ! ثم رجع كلٌّ واحدٍ منهم إلى أهله ، وأَتى رجالاً منهم جماعةٌ من ثَقيف فسأَلوهم[٥] : ماذا رجعتم به ؟ وقد كان الوفد قد استأْذنوا النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن ينالوا منه فرخّص لهم ، فقالوا : جئناكم من عند رجلٍ فَظٍّ غليظ ، يأْخذ من أمره ما شاء ، قد ظهر بالسيف ، وأداخ[٦] العرب ، ودانَ له الناس ، ورُعِبت منه بنو الأَصفر فى حُصونهم ، والناس فيه ؛ إمّا راغبٌ فى دينه ، وإمّا خائفٌ من السيف ،

---

(١) العنق من السير: المنبسط . (لسان العرب ، ج ١٢ ، ص ١٤٩) .
(٢) قطر الإبل ، يقطرها قطراً : قرب بعضها إلى بعض على نسق . (لسان العرب ، ج ٦ ، ص ٤١٧) .
(٣) هكذا فى الأصل ، ولا يظهر لنا مقول القول . ولعل « قال » هنا من القيلولة .
(٤) فى الأصل : « فإنهم » .
(٥) فى الأصل : « وأتى رجل منهم حامقة من ثقيف فسألوهم » ؛ ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات .
(٦) أى أذلهم . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٣٤) .

فعرض علينا أُمورًا شديدةً أعظمناها ، فتركناها عليه ؛ حرّم علينا الزِّنا ، والخمر ، والرِّبا ، وأن نهدم الرَّبَّة. فقالت ثَقيف : لا نفعل هذا أبدًا. فقال الوفد : لَعَمْرِى قد كرهنا ذلك وأعظمناه ، ورأينا أنّه لم يُنصفنا ؛ فأصلِحوا سلاحكم ، ورُمّوا حِصْنكم ، وانصبوا العَرّادات عليه والمَنْجَنيق ، وأدخلوا طعام سنة أو سنتين فى حِصْنكم ، لا يُحاصركم أكثر من سنتين ، واحفروا خَنْدَقاً من وراء حِصْنكم ، وعاجلوا ذلك فإنّ أمره قد ظلّ لا نأْمنه . فمكثوا بذلك يوماً أو يومين يريدون القتال ، ثم أدخل الله تبارك وتعالى فى قلوبهم الرُّعْب فقالوا : ما لنا به طاقةٌ ، قد أداخ العرب كلّها ، فارجعوا إليه فأعطوه ما سأل وصالحوه ، واكتبوا بينكم وبينه كتاباً قبل أن يسير إلينا ويبعث الجيوش . فلمّا رأى الوفد أن قد سلّموا بالقضيّة ، ورُعِبوا من النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، ورَغِبوا فى الإسلام ، واختاروا الأَمْن على الخوف ، قال الوفد : فإنّا قد قاضيناه ، وأعطانا ما أحببناه ، وشرط لنا ما أردنا ، ووجدناه أتقى الناس ، وأبرّ الناس ، وأوصلَ الناس ، وأوفى الناس ، وأصدقَ الناس ، وأرحمَ الناس ، وقد تركنا مِن هَدْم الرَّبَّة وأبينا أن نهدمها ، وقال : « أبعثُ مَن يهدمها » ، وهو يبعث من يهدمها . قال : يقول شيخٌ من ثَقيف قد بقى فى قلبه من الشِّرْك بَعْدُ بقيّةٌ : فذاك واللهِ مِصْداق ما بيننا وبينه ؛ إن قدَر على هَدْمها فهو مُحقٌّ ونحن مُبطلون ، وإن امتنعتْ ففى النفس من هذا بَعْدُ شىءٌ ! فقال عُثمان بن العاص : منّتك نفسُك الباطلَ وغرّتك الغرور ! وما الرَّبَّة ؟ وما تدرى الرَّبَّة مَن عبدها ومن لم يَعبُدها ؟ كما كانت العُزّى ما تدرى مَن عبدها ومَن لم يَعبُدها ؛ جاءها خالد بن الوليد وحده فهدمها ؛ وكذلك إساف ، ونائلة ، وهُبَل ، ومَناة ، خرج إليها رجلٌ واحدٌ فهدمها ؛ وسُواع ، خرج إليه رجلٌ

واحدٌ فهدمه ! فهل امتنع شئٌ منهم ؟ قال الثَّقَفىّ : إنَّ الرَّبَّة لا تُشبِه شيئاً ممّا ذكرتَ . قال عُثمان : سترى !

وأقام أبو سُفيان والمُغيرة بن شُعْبَة يومين أو ثلاثة ، ثم خرجوا وقد تحكَّم أبو مُلَيح بن عُروة ، وقارِب بن الأسود ، وهما يريدان يسيران مع أبى سُفيان ، والمُغيرة إلى هَدْم الرَّبَّة ، فقال أبو مُلَيح : يا رسول الله ، إنَّ أبى قُتِل وعليه دَينٌ ، مائتا مثقال ذهب ، فإن رأيتَ أن تقضيه من حُلِىّ الرَّبَّة فعلتَ . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : نعم . فقال قارب بن الأسود : يا رسول الله ، وعن الأسود بن مسعود أبِى ، فإنه قد ترك دَيناً مثل دَين عُروة . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ الأسود مات وهو كافر . فقال قارب : تَصِل به قرابة ، إنما الدَّين علىّ وأنا مطلوبٌ به . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إذًا أفعلُ . فقضى عن عُروة ، والأسود ، دَينهما من مال الطاغية . وخرج أبو سُفيان والمُغيرة وأصحابهما لهَدْم الرَّبَّة ، فلمّا دَنَوْا من الطائف قال لأبى سُفيان : تقدّمْ فادخلْ لأمر النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم . فقال أبو سُفيان : بل تقدّمْ أنت على قومك ! فتقدّم المُغيرة ، وأقام أبو سُفيان بمالِه ذى الهَرْم[1] ، ودخل المُغيرة فى بضعةَ عشَرَ رجلاً يهدمون الرَّبَّة . فلمّا نزلوا بالطائف نزلوا عِشاءً فباتوا ، ثم غَدَوْا على الرَّبَّة يهدمونها . فقال المُغيرة لأصحابه الذين قدموا معه : لأُضحكنَّكم اليومَ من ثَقيف . فأخذ المِعْوَل واستوى على رأس الرَّبَّة ومعه المِعْوَل ، وقام وقام قومه بنو مُعَتِّب دو... السلاح مخافةَ أن يُصاب كما فُعِل بعمّه عُروة بن مسعود . وجاء أبو سفيان وهو على ذلك فقال : كلاّ ! زعمت تقدّمنى أنت إلى الطاغية ، تُرانى لو قمتُ أهدمها كانت بنو مُعَتِّب تقوم

(١) هو موضع بقرب الطائف ، كما ذكر البكرى . (معجم ما استعجم ، ص ٨٣٠) .

دونى ؟ قال المُغيرة : إنَّ القوم قد واضعوهم هذا قبل أن تَقْدَم ، فأَحبّوا الأَمْن على الخوف . وقد خرج نساءُ ثَقيف حُسَّرًا[١] يبكين على الطاغية ، والعبيد ، والصبيان ، والرجال منكشفون ، والأَبكار خرجْن . فلمّا ضرب المُغيرة ضربةً بالمِعْوَل سقط مَغشيًّا عليه يرتكض ، فصاح أهل الطائف صيحةً واحدة : كلاَّ ! زعمتم أنَّ الرَّبَّة لا تمتنع ؛ بلى واللهِ لتمتنعن ! وأقام المُغيرة مليًا وهو على حالِه تلك ، ثم استوى جالساً فقال : يا مَعْشَرَ ثَقيف ، كانت العرب تقول : ما من حىٍّ من أَحياءِ العرب أَعقل من ثَقيف ، وما من حىٍّ من أَحياءِ العرب أَحمق منكم ! وَيْحكم ، وما اللاَّت والعُزَّى ، وما الرَّبَّة ؟ حجرٌ مثل هذا الحجر ، لا يدرى مَن عبده ومن لم يعبده ! وَيْحكم ، أَتسمع اللاَّتُ أَو تُبصِر أَو تنفع أَو تضرّ ؟ ثم هدمها وهدم الناسُ معه ، فجعل السادِن يقول – وكانت سَدَنَة اللاَّت من ثَقيف بنو العِجْلان بن عَتَّاب بن مالِك ، وصاحبها منهم عَتَّاب بن مالِك بن كعب ثم بنوه بعده – يقول : سترون إذا انتهى إلى أساسها ، يغضب الأَساس غضباً يَخْسِف بهم . فلمّا سمع بذلك المُغيرة وَلِى حفرَ الأَساس حتى بلغ نصف قامة ، وانتهى إلى الغَبْغَب خِزانتِها ، وانتزعوا حِلْيَتها وكسوتَها وما فيها من طِيبٍ ومن ذَهَبٍ أَو فضّة . قال : تقول عَجوزٌ منهم : أسلمها الرُّضّاع[٢] ، وتركوا المِصاع[٣] ! وأَعطى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ممّا وُجِد فيها أَبا مُلَيح ، وقارباً ، وناساً ، وجعل فى سبيل الله وفى السِّلاح منها ، ثم إنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كتب لثَقيف :

---

(١) حسرا : أى مكشوفات الوجوه . (شرح أبى ذر ، ص ٤٢٦) .

(٢) الرضاع : جمع راضع ، وهو اللئيم . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٨٤) .

(٣) فى الأصل : « وترك المضاع » ؛ وما أثبتناه عن ابن الأثير . والمصاع : المضاربة بالسيف. (النهاية ، ج ٢ ، ص ٨٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من النبيّ رسول الله إلى المؤمنين ؛ إنّ عِضاه وَجّ (١) وصَيْدَه لا يُعْضَد ، ومَن وُجِد يفعل ذلك يُجْلَدْ وتُنْزَعْ ثيابهُ ، فإن تعدّى ذلك فإنه يُؤْخَذ فيبلغ محمّدًا ، فإنّ هذا أمر النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم. وكتب خالد بن سعيد بأمر النبيّ الرسول محمّد ابن عبد الله . فلا يتعدّاه أحدٌ ، فيظلم نفسَه فيما أمر به محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . ونهى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن قطع عِضاه وَجٍّ وعن صَيْدِه ، وكان الرجل يُوجَد يفعل ذلك فتُنْزَع ثيابه. واستعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على حِمى وَجٍّ سعدَ بن أبي وَقّاص .

بعثة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المُصدِّقين

قال : حدّثنا محمّد بن عبد الله بن مُسلم ، عن الزُّهريّ ، وعبد الله ابن يزيد ، عن سعيد بن عمرو ، قالا : لمّا رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الجِعِرّانة قدم المدينة يوم الجمعة لثلاث ليالٍ بقين من ذى القعدة ، فأقام بقيّةَ ذى القعدة وذى الحجّة ، فلمّا رأى هلال المحرّم بعث المُصدِّقين ، فبعث بُرَيدة بن الحُصَيب إلى أسلم وغِفار بصدقتهم ، ويقال : كعب بن مالك ؛ وبعث عَبّاد بن بِشر الأَشْهَليّ إلى سُلَيم ومُزَينة ؛ وبعث رافع بن مَكيث فى جُهَينة ؛ وبعث عمرو بن العاص إلى فَزارة ؛ وبعث الضَّحّاك بن سُفيان الكِلابيّ إلى بنى كلاب ؛ وبعث بُسر بن سُفيان الكَعبيّ إلى بنى كَعب ؛ وبعث ابن اللُّتْبِيَّة الأَزْديّ إلى بنى ذُبيان ؛ وبعث رجلاً من بنى سعد بن هُذَيم على صدقاتهم . فخرج بسر بن سُفيان على صدقات بنى كعب . ويقال : إنما سعى عليهم نُعَيم بن عبد الله

(١) وج : اسم الطائف . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣٩٩) .

النَّحّام العَدَوىّ ، فجاء وقد حلّ بنَواحيهم بنو جُهَيم من بنى تميم ، وبنو عمرو ابن جُنْدُب بن العُتَير بن عمرو بن تميم ، فهم يشربون معهم على غديرٍ لهم بذات الأَشْطاط[١] ؛ ويقال : وجدهم على عُسْفان . ثم أمر بجمع مواشى خُزاعة ليأْخذ منها الصدقة . قال : فحشرت خُزاعة الصدقة من كلّ ناحية ، فاستنكرت ذلك بنو تميم وقالوا : ما هذا ؟ تُؤْخَذ أموالُكم منكم بالباطل[٢] ! وتجيّشوا ، وتقلّدوا القِسىّ ، وشهروا السيوف ، فقال الخُزاعيّون : نحن قومٌ نَدين بدِين الإِسلام ، وهذا من ديننا . قال التميميّون : واللهِ لا يصل إلى بَعيرٍ منها أبدًا ! فلمّا رآهم المُصدِّق هرب منهم وانطلق مُولِّياً وهو يخافهم ، والإِسلام يومئذٍ لم يعمّ العرب ، قد بقيت بقايا من العرب وهم يخافون السيف لِما فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكّة وحُنَين ، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أمر مُصدّقيه أن يأْخذوا العَفْو منهم ويتوقّوا كرائم أموالهم ، فقدم المُصدِّق على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فأَخبره الخبر ، وقال : يا رسول الله ، إنما كنت فى ثلاثة نفر ، فوثبتْ خُزاعة على التميميّين فأَخرجوهم من مَحالّهم ، وقالوا : لولا قرابتُكم ما وصلتم إلى بلادكم ؛ ليدخلنّ علينا بلاءٌ من عَداوة محمّد صلّى الله عليه وسلّم وعلى أنفسكم حيث تَعرِضون لرُسُل[٣] رسول الله ، تردّونهم عن صدقات أموالنا . فخرجوا راجعين إلى بلادهم ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : مَن لهؤلاء القوم الذين فعلوا ما فعلوا ؟ فانتدب أوّلُ الناس عُيَينة بن حِصن الفَزارىّ ، فقال : أنا واللهِ لهم ، أتبع آثارهم ولو بلغوا يَبْرِين[٤] حتى

---

(١) ذات الأشطاط : موضع تلقاء الحديبية . (معجم ما استعجم ، ص ١٢٨) .

(٢) فى الأصل : « باطل » .

(٣) فى الأصل : « حيث تعرضون لرسول الله » .

(٤) يبرين : رمل معروف فى ديار بنى سعد من تميم . (معجم ما استعجم ، ص ٨٤٩) .

آتيك بهم إن شاء الله ، فترى فيهم رأيك أو يُسلِموا . فبعثه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى خمسين فارساً من العرب ، ليس فيها مهاجرٌ واحدٌ ولا أنصاريّ ، فكان يسير بالليل ويكمُن لهم بالنهار ، خرج على رَكوبَة[1] حتى انتهى إلى العَرْج ، فوجد خبرهم أنّهم قد عارضوا إلى أرض بنى سُلَيم ، فخرج فى أثرهم حتى وجدهم قد عدلوا من السُّقْيا يؤمّون أرضَ بنى سُلَيم فى صحراء ، قد حلّوا وسرّحوا مواشيَهم ، والبيوت خُلوفٌ ليس فيها أحدٌ إلّا النساء ونُفَير ، فلمّا رأوا الجمع ولّوْا وأخذوا منهم أحد عشر رجلاً ، ووجدوا فى المحلّة من النساء إحدى عشرة امرأةً وثلاثين صبيًّا ، فحملهم إلى المدينة ، فأمر بهم النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فحُبِسوا فى دار رَمْلَة بنت الحارث . فقدم منهم عشرة من رؤسائهم ، العُطارِد بن حاجب بن زُرارة ، والزِّبْرِقان بن بَدْر ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونُعَيم بن سعد ، وعمرو بن الأهْتَم ، والأقْرع بن حابِس ، ورِياح بن الحارث ابن مُجاشع[2] ؛ فدخلوا المسجد قبل الظُّهر ، فلمّا دخلوا سألوا عن سَبْيِهم فأُخبروا بهم فجاءوهم ، فبكى الذّرارىّ والنساء ، فرجعوا حتى دخلوا المسجد ثانيةً ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ فى بيت عائشة ، وقد أذّن بِلال بالظُّهر بالأذان الأوّل ، والناس ينتظرون خروج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فعجّلوا خروجه ، فنادوا : يا محمّد ، اخرجْ إلينا ! فقام إليهم بِلال فقال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخرج الآن . فاشتهر[3]

---

(١) ركوبة : ثنية بين مكة والمدينة عند العرج . (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٨٠) .
(٢) هكذا فى الأصل ثمانية ، لا عشرة ، كما ذكر قبل .
(٣) فى الأصل : « فاستشهد » ؛ ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات . والشهرة : وضوح الأمر . (تاج العروس ، ج ٣ ، ص ٣٢٠) .

أهل المسجد أصواتهم فجعلوا يَخفقون[1] بأيديهم ، فخرج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأقام بِلال الصلاة ، وتعلَّقوا به يُكلِّمونه ، فوقف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم معهم بعد إقامة بِلال الصلاةَ مَليًّا ، وهم يقولون : أتيناك بخطيبنا وشاعرنا فاسمعْ منَّا . فتبسَّم النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ثم مضى فصلَّى بالناس الظُّهر ، ثم انصرف إلى بيته فركع ركعتين ، ثم خرج فجلس فى صحن المسجد ، وقدموا عليه وقدَّموا عُطارِدَ ابن حاجب التَميميّ فخطب فقال : الحمد لله الذى له الفَضْل علينا ، والذى جعلنا ملوكاً ، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزَّ أهل المشرق ، وأكثرَهم مالاً وأكثرَهم عددًا ، فمَن مثلُنا فى الناس ؟ ألسنا برؤوس الناس وذوى فَضْلهم ؟ فمَن يُفاخر فليَعْدُد مثل ما عددنا ! ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ، ولكنَّا نستحيي من الإكثار فيما أعطانا الله . أقولُ قَولى هذا لِأن يُؤْتىَ بقولٍ هو أفضل من قولنا ! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لثابت بن قيس : قُمْ فأجب خطيبهم ! فقام ثابت — وما كان دَرى من ذلك بشىء ، وما هيَّأ قبل ذلك ما يقول — فقال : الحمد لله الذى السمواتُ والأرضُ خَلْقُه ، قضى فيها أمْرَه ، ووَسِع كلَّ شىء عِلْمُه ، فلم يَكُ شىء إلَّا من فضله . ثم كان ممَّا قدَّر الله أن جعلنا مُلوكاً ، واصطفى لنا من خلقه رسولاً ، أكرمَهم نَسَباً ، وأحسنهم زِيًّا ، وأصدقهم حديثاً . أنزل عليه كتابَه ، وائتمنه على خلقه ، وكان خِيرَتَهُ من عباده ، فدعا إلى الإيمان . فآمن المهاجرون من قومه وذوى رَحِمِه ، أصبحُ الناسِ وجهاً ، وأفضلُ الناسِ فعالاً . ثم كنَّا أوَّل الناس إجابةً حين دعا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فنحن أنصار الله ورسولِه ، نُقاتل الناسَ حتى

(١) أى يضربون . (لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣٦٩) .

يقولوا لا إله إلاَّ الله ، فمَن آمن بالله ورسولِه منع منَّا مالَه ودمَه ، ومن كفر بالله جاهدناه فى ذلك ، وكان قَتْله علينا يسيرًا . أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات . ثم جلس ، فقالوا : يا رسول الله ائذنْ لشاعرنا . فأذن له ، فأقاموا الزِّبْرِقان بن بدر فقال :

نَحْنُ المُلوكُ فلا حَيٌّ يُقارِبُنا ... فينا المُلوكُ وفينا تُنْصَبُ البِيَعُ[1]
وَكَمْ قَسَرْنا من الأَحْياءِ كُلِّهِمُ ... عند النِّهابِ وفَضْلُ الخَيْرِ يُتَّبَعُ
ونَحْنُ نُطعِمُ عند القَحْطِ ما أَكَلوا ... من السَّديفِ إذا لم يُؤْنَسِ القَزَعُ[2]
ونَنْحَرُ الكُومَ عَبْطاً[3] فى أَرومَتِنا ... للنازلين إذا ما أُنْزِلوا شَبِعوا

فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أَجبهم يا حسّان بن ثابت ! فقام فقال :

إنَّ الذَّوائبَ[4] من فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ ... قد شرّعوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ
يَرْضَى بهم كلُّ مَن كانت سَريرتُه ... تَقْوَى الإلهِ وبالأَمر الذى شَرَعوا
قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدوَّهُمُ ... أَو حاوَلوا النَّفْعَ فى أَشْياعِهِم نَفَعوا
سَجِيَّةٌ تلك منهم غيْرُ مُحْدَثَةٍ ... إنَّ الخَلائقَ فاعْلَم شَرُّها البِدَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ ... عند الدِّفاعِ ولا يُوهون ما رَقَعوا
ولا يَضِنُّونَ عن جارٍ بفَضْلِهِمُ ... ولا ينالهمُ فى مَطْمَعٍ طَبَعُ[5]
إن كان فى الناسِ سَبّاقون بَعْدَهُمُ ... فكلّ سَبْقٍ لأَدنى سَبْقِهم تَبَعُ

---

(١) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدتها بيعة . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٢) .
(٢) القزع : جمع القزعة ، وهى سحاب رقيق يكون فى الخريف . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٢) .
(٣) الكوم : جمع كوماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . وعبطا : أى مات من غير علة . والأرومة : الأصل . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٢، ٤٣٣) .
(٤) الذوائب : الأعالى ، وأراد هاهنا السادة . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .
(٥) الطبع : الدنس . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .

أَكْرِم بقَوْمٍ رسولُ الله شِيعَتُهُمْ ... إذا تفرّقت الأَهْوَاءُ والشِّيَعُ
أَعِفَّةٌ ذُكِرتْ فى الوَحْىِ عِفَّتُهُمْ ... لا يَطْمَعون ولا يُرْدِيهِمُ طَمَعُ
كأَنَّهم فى الوَغَى والمَوْتُ مُكْتَنِعٌ(1) ... أُسْدٌ ببِيشَةَ(2) فى أَرْساغِها(3) فَدَعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوَّهُمُ(4) ... وإن أُصيبوا فلا خُورٌ(5) ولا جُزُعُ
إذا نَصَبْنا(6) لِحىٍّ لَمْ نَدِبَّ لَهُم ... كما يَدِبُّ إلى الوَحْشِيَّةِ الذَّرَعُ(7)
نَسْمو إذا الحَرْبُ نالَتْنا مَخالِبُها ... إذا الزَّعانِفُ(8) من أَطرافها خَشَعوا(9)
خُذْ مِنْهُمُ ما أَتَى عَفْوًا إذا غَضِبوا ... ولا يكن هَمَّكَ الأَمْرَ الذى مَنَعوا
فإنَّ فى حَرْبِهم فاتْرُكْ عداوتَهم ... سمًّا غَرِيضًا عليه الصابُ والسَّلَعُ(10)
أَهدَى لهم مَدْحَهُ قَلبٌ يُؤازِره ... فيما أَحَبَّ لِسانٌ حائِكٌ صَنَعُ(11)
وأنَّهم أفضلُ الأَحياءِ كلِّهمُ ... إن جَدَّ بالناسِ جِدُّ القولِ أو شَمَعوا(12)

---

(1) والموت مكتنع : أى دان . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .
(2) بيشة : من عمل مكة مما يلى اليمن من مكة على خمسة مراحل . (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٣٤) .
(3) الأرساغ : جمع رسغ ، وهو موضع مربط القيد . وفدع : اعوجاج إلى ناحية . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .
(4) فى الأصل : « لا فرح إن أصابوا فى عدوهم » . وما أثبتناه من ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢١٠) .
(5) الخور : الضعفاء . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .
(6) فى الأصل : « وإن أصبنا » ؛ وما أثبتناه عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢١٠) . وعن ديوان حسان أيضاً . (ص ٢٤) .
(7) الذرع : ولد البقرة الوحشية . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣)
(8) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .
(9) خشعوا : أى تذللوا . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٣) .
(10) السلع : نبات مسموم . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٤) .
(11) صنع : يحسن العمل . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٤) .
(12) شمعوا : أى هزلوا ، وأصل الشمع الطرب واللهو ، ومنه جارية شموع إذا كانت كثيرة الطرب . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٤) .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أمر بمِنْبَرٍ ، فوُضع فى المسجد يُنشد عليه حسّان ، وقال : إنَّ الله لَيؤيّد حسّان برُوح القُدُس ما دافع عن نبيّه . وسُرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ والمسلمون بمقام ثابتٍ وشعر حسّان . وخلا الوفد بعضهم إلى بعض ، فقال قائل : تعلمُنّ واللهِ أنَّ هذا الرجل مُؤيَّد مصنوعٌ له ، واللهِ لَخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولَشاعرهم أشعر من شاعرنا ، ولَهُمْ أحلم منَّا ! وكان ثابت بن قيس من أجهر الناس صوتاً . وأنزل الله تعالى على نبيّه فى رفع أصواتهم -التَّميميّين- ويَذْكُرُ أنَّهم نادوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم من وراء الحُجُرات فقال : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾[1] إلى قوله : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ، يعنى تميماً حين نادوا النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وكان ثابت حين نزلت هذه الآية لا يرفع صوته عند النبيّ صلّى الله عليه وسلَّم ، فردَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عليهم السَّبْى والأسرى .

وقام عمرو بن الأَهْتَم يومئذٍ يهجو قيس بن عاصم ، كانا جميعاً فى الوفد ، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد أمر لهم بجوائز ، وكان يُجيز الوفد إذا قدموا عليه ويفضّل بينهم فى العَطيّة على قدر ما يرى ، فلمّا أجازهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : هل بقى منكم من لم نُجزه ؟ قالوا : غلامٌ فى الرَّحل . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أرسلوه نُجزْه ! فقال قيس بن عاصم : إنَّه غلامٌ لا شَرَفَ له . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : وإن كان ! فإنَّه وافدٌ وله حقّ ! فقال عمرو بن الأَهْتَم شعرًا يريد قيس بن عاصم :

ظَلِلْتَ مُفْتَرِشاً هَلباكَ[2] تَشْتُمُنى ... عند الرَّسولِ فلم تَصْدُقْ ولم تُصِبِ

---

(١) سورة ٤٩ الحجرات ٢ .

(٢) الهلب والهلباء : شعر الذنب فاستعاره هنا للإنسان . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٥) .

إنّا وسُؤدَدُنا(١) عَوْدٌ وسُؤدَدُكُمْ مُخلَّفٌ بمكانِ العَجْبِ والذَّنَبِ
إن تُبغضونا فإنَّ الرُّومَ أَصْلُكُمُ والرُّومُ لا تملك البَغْضاءَ للعَرَبِ

قال : حدَّثنى رَبيعة بن عُثمان ، عن شيخٍ ، أخبره أنَّ امرأة من بنى نجّار قالت : أنا أنظر إلى الوفد يومئذٍ يأخذون جوائزهم عند بِلال ، ثنتى عشرة أُوقيّة ونَشّ . قالت : وقد رأيت غلاماً أعطاه يومئذٍ وهو أصغرهم ، أُعْطِى خمسَ أَواقٍ . قلت : وما النَّشّ ؟ قالت : نصف أُوقيّة .

بعثة الوليد بن عُقبة إلى بنى المُصطَلِق

قالوا : بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الوليد بن عُقبة بن أبى مُعَيط إلى صدقات بنى المُصْطَلِق ، وكانوا قد أسلموا وبَنَوا المساجد بساحاتهم . فلمّا خرج إليهم الوليد وسمعوا به قد دنا منهم ، خرج منهم عشرون رجلاً يتلقَّوْنه بالجُزُر والنَّعَم فَرَحاً به ، ولم يَرَوْا أحدًا يُصدِّق بعيرًا قَطُّ ولا شاة ، فلمّا رآهم ولَّى راجعاً إلى المدينة ولم يَقربهم ، فأخبر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه لمّا دنا منهم لَقوه . معهم السِّلاح يحولون بينه وبين الصدقة ، فهمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يبعث إليهم مَن يغزوهم . وبلغ ذلك القومَ ، فقدم عليه الرَّكْب الذين لقوا الوليد ، فأخبروا النبىَّ صلّى الله عليه وسلّم الخبر وقالوا : يا رسول الله ، سَلْه هل ناطَقَنا أو كلَّمنا ؟ ونزلت هذه الآية ونحن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نُكلِّمه ونعتذر ، فأخذه البُرَحاءُ فسُرّى عنه ، ونزل عليه :

(١) سؤدد عود : العود هنا معناه القديم الذى يتكرر على الزمان . (شرح أبى ذر ، ص ٤٣٥) .

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبأٍ فَتَبيَّنُوا..﴾[١] الآية. فقرأ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم القرآن، وأخبرنا بعذرنا وما نزل فى صاحبنا، ثم قال: مَن تُحبّون أبعث إليكم؟ قالوا: تبعث علينا عَبّاد بن بِشر. فقال: يا عَبّاد سِرْ معهم فخُذْ صدقاتِ أموالهم وتوقَّ كرائم أموالهم. قال: فخرجنا مع عَبّاد يقرئنا القرآن ويُعلّمنا شرائع الإسلام حتى أنزلناه فى وسط بيوتنا، فلم يُضيّع حقًّا ولم يَعْدُ بنا الحقّ. وأمره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأقام عندنا عشرًا، ثم انصرف إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم راضياً.

باب شأْن سريّةَ قُطْبَةَ بن عامر إلى خَثْعم فى صفر سنة تسع

حدّثنا ابن أبى سَبْرَة، عن إسحاق بن عبد الله، قال: حدّثنا ابن كعب بن مالِك أنّ النّبىّ صلّى الله عليه وسلّم بعث قُطْبَة بن عامر بن حَديدة فى عشرين رجلاً إلى حىّ خَثْعَم بناحية تَبالةَ، وأمره أن يشنّ الغارة عليهم، وأن يسير الليل ويَكمُنَ النهار، وأن يُغِذّ السير، فخرجوا فى عشرة أبعرة يعتقبون عليها، قد غيّبوا السّلاح، فأخذوا على الفَتْق حتى انتهوا إلى بطن مَسْحاء[٢]، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم، فجعل يصيح بالحاضر. وخبر هذه السرّية داخلٌ فى سريّة شُجاع بن وَهْب.

---

(١) سورة ٤٩ الحجرات ٦.

(٢) فى الأصل: «مسحب». ومسحاء: موضع بالسرف بين مكة والمدينة، من مخاليف الطائف. (معجم البلدان، ج ٨، ص ٥١).

سريّة بنى كِلاب أميرها الضَّحَّاك بن سُفيان الكِلابى

قال : حدّثنى رَشيد أبو مَوهوب الكِلابىّ ، عن حَيّان بن أبى سُلمى ، وعَنْبَسَة بن أبى سُلمى ، وحُصَين بن عبد الله ، قالوا : بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جيشاً إلى القُرَطاء[1] ؛ فيهم الضَّحّاك بن سُفيان بن عَوف بن أبى بكر الكِلابىّ ، والأَصْيَد بن سَلَمَة بن قُرْط بن عبد ، حتى لقوهم بالزُّجّ[2] زُجّ لاوَة ، فدعَوْهم إلى الإسلام فأَبَوْا ، فقاتلوهم فهزموهم ، فلحق الأَصْيَد أباه سَلَمَة بن قُرْط ، وسَلَمَة على فَرَسٍ له على غدير زُجّ ، فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأَمان ، فسبّه وسبّ دِينه ، فضرب الأَصْيَد عُرقوبَى فَرَسه ، فلمّا وقع على عُرقوبَيه ارتكز سَلَمَة على رمحه فى الماء ، ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه . وهذه السريّة فى شهر ربيع الأوّل سنة تسع .

قال : حدّثنى رَشيد أبو مَوهوب ، عن جابر بن أبى سُلمى ، وعَنْبَسَة بن أبى سُلمى قالا : كتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى حارثة بن عمرو ابن قُرَيط يدعوهم إلى الإسلام ، فأخذوا صحيفته فغسلوها ورَقعوا بها اسْت دلوهم ، وأبَوا أن يُجيبوا . فقالت أُمّ حَبيب بنت عامر بن خالد ابن عمرو بن قُرَيط بن عبد بن أبى بَكْرَة ، وخاصمتهم فى بيتٍ لها فقالت :

أَيا ابنَ سعيدٍ لا تكوننّ ضُحْكَةً ... وإيّاك واستمرِرْ لهم بِمَرِير
أَيا ابنَ سَعيدٍ إنما القومُ مَعْشَرٌ ... عَصَوْا منذ قامَ الدِّينُ كلَّ أَميرِ

---

(١) القرطاء : بطن من بنى بكر . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٥٧) .
(٢) الزج : موضع بناحية ضرية . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٣١٧) .

إذا ما أَتتهم آيةٌ من محمّدٍ   مَحَوْها بماءِ البئر فهْى عَصِيرِ[1]

قالوا : فلمّا فعلوا بالكتاب ما فعلوا قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما لهم ؟ أذهب اللهُ بعقولهم ؟ فهم أهل رِعْدَة . وعجلةٍ وكلامٍ مختلط ، وأهل سَفَه ! وكان الذى جاءهم بالكتاب رجلٌ من عُرَيْنة يقال له : عبد الله ابن عَوْسَجَة ، لمُستهلّ شهر ربيع الأوّل سنة تسع . قال الواقدىّ : رأيت بعضهم عَيِيًّا لا يُبين الكلام .

شأن سريةٍ أَميرها عَلْقَمَة بن مُجَزِّز المُدْلِجىّ
فى ربيع الآخر سنة تسع

قال : حدّثنى موسى بن محمّد ، عن أبيه . وإسماعيل بن إبراهم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، زاد أحدهما على صاحبه ، قالا : بلغ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ ناساً من الحَبَشَة تَراياهم[2] أهل الشُّعَيْبَة – ساحل بناحية مكّة – فى مراكب ؛ فبلغ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فبعث عَلْقَمَة بن مُجَزِّز المُدْلِجىّ فى ثلاثمائة رجلٍ حتى انتهى إلى جزيرةٍ فى البحر فخاض إليهم فهربوا منه ، ثم انصرف . فلمّا كان ببعض المنازل استأْذنه بعضُ الجيش فى الانصراف حيث لم يلقَوْا كيدًا ، فأَذِن لهم وأمّر عليهم عبد الله بن حُذافة السَّهْمىّ – وكانت فيه دُعابة – فنزلنا ببعض الطريق وأوقد القوم نارًا يصطلون عليها ويصطنعون الطعام ، فقال : عزمت عليكم ألاّ تواثبتم فى هذه النار ! فقام بعض القوم فتحاجزوا حتى ظنّ أنّهم واثبون فيها ، فقال : اجلسوا ، إنما كنت أضحكُ معكم !

---

(١) كذا فى الأصل ، وهو إقواء .

(٢) أى نظروهم ورأوهم . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٥٨) .

فذُكر ذلك لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال : من أَمَرَكم بمَعصيةٍ فلا تُطيعوه !

سريّة علىّ بن أبى طالب عليه السلام إلى الفلْس
فى ربيع الآخر سنة تسع

قال : حدّثنا عبد الرحمن بن عبد العَزيز قال : سمعت عبد الله بن أبى بكر بن حَزم يقول لموسى بن عِمْران بن مَنَّاح ، وهما جالسان بالبَقيع : تَعرف سرّية الفُلْس ؟ قال موسى : ما سمعت بهذه السريّة . قال : فضحك ابن حَزم ثم قال : بعث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عَليًّا عليه السلام فى خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرساً ؛ وليس فى السريّة إلَّا أنصارىّ ، فيها وجوه الأَوس والخزرج ، فاجتنبوا الخيل واعتقبوا على الإبل حتى أغاروا على أحياء من العرب ، وسأَل عن محَلَّة آل حاتم [1] ثم نزل عليها ، فشَنُّوا الغارة مع الفجر ، فَسَبَوْا حتى ملأوا أيديهم من السَّبْى والنَّعَم والشاء ، وهدموا الفُلْس وخرّبوه ، وكان صنماً لطَيِّئ ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

قال عبد الرحمن بن عبد العزيز : فذكرتُ هذه السريّة لمحمّد بن عمر بن عَلِىّ ، فقال : ما أَرى ابن حَزم زاد على أن ينقل من هذه السريّة ولم يأْتك بها . قلت : فأْتِ بها أنت ! فقال : بعث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم علىّ بن أَبى طالب عليه السلام إلى الفُلْس ليهدمَه ، فى مائة وخمسين من الأَنصار ، ليس فيها مُهاجرٌ واحد ، ومعهم خمسون فَرَساً وظَهْراً ، فامتطَوْا الإبل وجنبوا الخيل ، وأَمره أن يشنّ الغارات ؛ فخرج بأَصحابه ، معه رايةٌ سوداءُ ولواءٌ أَبيضُ ، معهم القَنا والسِّلاح

(١) فى الأصل : « محلة الرخاتم » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص١١٨) .

الظاهر ، وقد دفع رايته إلى سَهل بن حُنَيف ، ولواءه إلى جَبّار بن صَخر السُّلَمىّ ، وخرج بدليلٍ من بنى أَسَد يقال له : حُرَيث ، فسلك بهم على طريق فَيْد[١] . فلمّا انتهى بهم إلى موضعٍ قال : بينكم وبين الحىّ الذى تُريدون يومٌ تامٌّ[٢] ، وإن سرناه بالنهار وطئنا أطرافهم ورِعاءَهم ، فأَنذروا الحىَّ فتفرّقوا ، فلم تُصيبوا منهم حاجتكم ؛ ولكن نُقيم يومنا هذا فى موضعنا حتى نُمسى ، ثم نَسرِى ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارةً حتى نُصبّحهم فى عَماية الصبح . قالوا : هذا الرأى ! فعسكروا وسرّحوا الإبل ، واصطنعوا ، وبعثوا نفرًا منهم يتقصَّوْن ما حولهم ، فبعثوا أبا قَتادة ، والحُباب بن المُنْذِر ، وأبا نائلة ، فخرجوا على متون خيلٍ لهم يطوفون حول المعسكر ، فأَصابوا غلاماً أسود فقالوا : ما أنت ؟ قال : أطلب بُغْيَتى . فأَتَوْا به عَليًّا عليه السلام فقال : ما أنت؟ قال : باغٍ . قال : فشدّوا عليه ، فقال : أنا غلامٌ لرجلٍ من طيّئٍ من بنى نَبْهان ، أمرونى بهذا الموضع ، وقالوا : إن رأيتَ خيل محمّد فطِرْ إلينا فأَخبرنا ، وأنا لا أُدرك أَسْرًا . فلمّا رأيتكم أردت الذهاب إليهم ، ثم قلت لاأعجَلُ حتى آتى أصحابى بخبرٍ بيّنٍ من عددكم وعدد خيلكم وركابكم ؛ ولا أخشى ما أصابنى ، فلكأنّى كنت مُقيَّدًا حتى أخذتنى طلائعكم . قال عَلىٌّ عليه السلام : اصدُقْنا ما وراءك ! قال : أوائل الحىّ على مسيرةِ ليلةٍ طَرّادةٍ[٣] ، تُصبّحهم الخيلُ ومَغارُها حين غَدَوا[٤] . قال عَلىٌّ عليه السلام لأَصحابه : ما تَرَوْن ؟ قال جَبّار بن صَخر : نرى أن ننطلق على متون الخيل ليلتَنا حتى نُصبّح

(١) فيد : قريب من أجأ وسلمى ، جبلى طيء . (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٤٠٩) .
(٢) فى الأصل : « يوماً تاماً » .
(٣) يعنى طويلة . (القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٣١٠) .
(٤) فى الأصل : « جئنا وغدوا » .

القوْم وهم غارّون فنُغير عليهم ؛ ونخرج بالعبد الأَسود ليلاً ، ونُخلِّف حُرَيثاً مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله . قال عَلِىٌّ : هذا الرأى ! فخرجوا بالعبد الأَسود ، والخيل تَعادَى ، وهو رِدْف بعضهم عُقْبَةً[1] ، ثم ينزل فيُردف آخَر عُقْبَةً ، وهو مكتوف ، فلمّا انهار الليل كذب العبد وقال : قد أخطأْتُ الطريق وتركتُها ورائى . قال عَلِىٌّ عليه السلام : فارجع إلى حيث أخطأْت ! فرجع ميلاً أو أكثر ، ثم قال : أنا على خطأ . فقال عَلِىٌّ عليه السلام : إنّا منك على خُدْعَة ، ما تُريد إلّا أن تَثنيَنا عن الحىّ ، قَدِّموه ! لَتَصْدُقنا أو لَنضربنّ عنقك ! قال : فقُدّم وسُلّ السيف على رأسه ، فلمّا رأى الشرّ قال : أرأيت إن صدقتُكم ، أينفعنى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنّى صنعتُ ما رأيتم ؛ إنّه أدركنى ما يُدرك الناسَ من الحياء فقلت : أقبلتُ بالقوم أدلُّهم على الحىّ من غير مِحْنَة ولا حقٍّ فآمنهم ، فلمّا رأيت منكم ما رأيتُ وخفتُ أن تقتلونى كان لى عُذْر ، فأنا أحملكم على الطريق . قالوا : اصدُقْنا . قال : الحىّ منكم قريب . فخرج معهم حتى انتهى إلى أدنى الحىّ ، فسمعوا نُباح الكلاب وحركة النَّعَم فى المَراح والشاء ، فقال : هذه الأَصرام[2] وهى [على] فرسخ . فينظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : فأين آل حاتم[3]؟ قال : هم متوسّطو الأَصرام . قال القوم بعضهم لبعض : إن أفزعْنا الحىّ تصايحوا وأفزعوا بعضهم بعضاً فتتغيب عنّا أحزابهم فى سواد الليل ، ولكن نُمهل القومَ حتى يطلع الفجر معترضاً فقد قرب طلوعه فنُغير ؛ فإن أنْذر بعضهم بعضاً لم يخفَ علينا أين يأْخذون ، وليس عند القوم خيلٌ يهربون عليها ونحن

---

(١) العقبة : النوبة . (الصحاح ، ص ١٨٥) .

(٢) الأصرام : جمع الصرمة ، وهى الجماعة . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ١٣٩) .

(٣) فى الأصل : « فأين الرخاتم » .

على متون الخيل . قالوا : الرأى ما أشرتَ به . قال : فلمّا اعترضوا الفجر أغاروا عليها فقتلوا مَن قتلوا وأسروا من أسروا ، واستاقوا الذرّيّة والنساء ، وجمعوا النَّعَم والشاء ، ولم يخفَ عليهم أحدٌ تغيّب فملأوا أيديهم . قال : تقول جاريةٌ من الحىّ وهى ترى العبد الأسود — وكان اسمه أَسْلَم — وهو مُوثَق : مالَه هَبِل ! هذا عمل رسولكم أَسْلَم ، لا سَلِم ، وهو جلبهم عليكم ، ودلَّهم على عَوْرَتكم ! قال : يقول الأسود : أقصِرى يا ابنة الأكارم ، ما دللتهم حتى قُدِّمتُ ليُضْرَب عنقى ! قال : فعسكر القوم ، وعزلوا الأسرى وهم ناحية نُفَير ، وعزلوا الذُّرّيّة وأصابوا من آل حاتم[1] أُخت عَدِىّ ونُسيّاتٍ معها ، فعزلوهنّ على حِدَة ، فقال أسلم لعلىٍّ عليه السلام : ما تنتظر بإطلاقى ؟ فقال : تشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأنّ محمّدًا رسول الله . قال : أنا على دِين قومى هؤلاء الأسرى ، ما صنعوا صنعت ! قال : ألا تراهم مُوثَقين ، فنجعلك معهم فى رِباطك ؟ قال : نعم ، أنا مع هؤلاء مُوثَقًا أحبُّ إلىّ من أن أكون مع غيرهم مُطْلَقاً ، يصيبنى ما أصابهم . فضحك أهل السريّة منه ، فأُوثِق وطُرِح مع الأسرى ، وقال : أنا معهم حتى ترَوْن منهم ما أنتم راءون . فقائلٌ يقول له من الأسرى : لا مرحباً بك ، أنت جئتنا بهم ! وقائلٌ يقول : مرحباً بك وأهلاً ، ما كان عليك أكثر ممّا صنعت ! لو أصابنا الذى أصابك لفعلنا الذى فعلت وأشدّ منه ، ثم آسَيْتَ بنفسك ! وجاء العسكر واجتمعوا ، فقرّبوا الأسرى فعرضوا عليهم الإسلام ، فمَن أسلم تُرِك ومن أَبى ضُرِبت عنقه ، حتى أتوا على الأسود فعرضوا عليه الإسلام ، فقال : والله إنّ الجزَع من السيف لَلُؤْم ، وما مِن خُلود ! قال : يقول رجلٌ من الحىّ ممّن أسلم : يا عجباً

---

(١) فى الأصل : « الرخاتم » .

منك ، ألا كان هذا حيث أُخِذتَ ! فلمّا قُتل مَن قُتل ، وسُبى من سُبى منا ، وأسلم منّا مَن أسلم راغباً فى الإسلام تقول ما تقول ! ويحك ، أسلِم واتبعْ دِينَ محمّد ! قال : فإنّى أُسلم وأَتبع دِين محمّد . فأسلم وتُرك ، وكان يَعِد فلا يَفِى حتّى كانت الرِّدّة ، فشهد مع خالد بن الوليد اليَمامة فأبلى بلاءً حسناً .

قال : وسار علىّ عليه السلام إلى الفُلْس فهدمه وخرّبه ؛ ووجد فى بيته ثلاثة أسياف ، رَسوب ، والمِخْذَم ، وسيفاً يقال له اليمانىّ ، وثلاثة أدراع ، وكان عليه ثياب يُلبسونه إيّاها . وجمعوا السَّبْىُ ، فاستُعمل عليهم أبو قَتادة ، واستُعمل عبد الله بن عَتيك السُّلَمىّ على الماشية والرِّثَّة ، ثمّ ساروا حتّى نزلوا رَكَك[1] فاقتسموا السَّبْى والغنائم ، وعزل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم صفيّاً[2] رَسوباً والمِخْذَم ، ثم صار[3] له بعدُ السيفُ الآخر ؛ وعزل الخُمُس ، وعزل آل حاتم[4] ، فلم يقسمهم حتّى قدم بهم المدينة .

قال الواقدىّ : فحدّثت هذا الحديث عبدَ الله بن جعفر الزُّهرىّ فقال : حدّثنى ابن أَبى عَون قال : كان فى السَّبْى أُخت عَدىّ بن حاتم لم تُقْسَم ، فأُنزلت دارَ رَمْلَة بنت الحارث . وكان عَدىّ بن حاتم قد هرب حين سمع بحركة علىّ عليه السلام ، وكان له عينٌ بالمدينة فحذّره فخرج إلى الشام ،

---

(١) ركك : محلة من محال سلمى، أحد جبلى طيء . (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧٩) .

(٢) الصفى : ما كان يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨) .

(٣) فى الأصل : « ثم صاروا له » .

(٤) فى الأصل : « الرخاتم » .

وكانت أُختُ عَدىّ إذا مرّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم تقول : يا رسول الله ، هَلَكَ الوالد وغاب الوافد ، فامْنُنْ علينا مَنَّ الله عليك ! كلّ ذلك يسأَلها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : مَن وافِدك ؟ فتقول : عَدىّ بن حاتم ! فيقول : الفارّ من الله ورسوله ؟ حتى يَئِست . فلمّا كان يوم الرابع مرّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلم تكلَّم فأَشار إليها رجلٌ : قُومى فكلِّميه ! فكلَّمته فأَذن لها ووصلها ، وسأَلت عن الرجل الذى أَشار إليها فقيل : علىٌّ ، وهو الذى سباكم ، أَمَا تعرفينه ؟ فقالت : لا واللهِ ، ما زلتُ مُدْنِيةً طَرَف ثوبى على وجهى وطَرَف ردائى على بُرقعى من يوم أُسِرت حتى دخلتُ هذه الدار ، ولا رأَيت وجهه ولا وجه أَحدٍ من أَصحابه .

غزوة تَبوك

قُرِئَ على أَبى القاسم بن أَبى حَيَّة قال : حدّثنا أَبو عبد الله محمّد بن شُجاع قال : حدّثنا الواقدىّ قال : حدّثنا عمر بن عثمان بن عبد الرحمن ابن سَعيد ، وعبد الله بن جَعفر الزُّهرىّ ، ومحمّد بن يحيى ، وابن أَبى حَبيبة ورَبيعة بن عُثمان ، وعبد الرحمن بن عبد العَزيز بن أَبى قَتادة ، وعبد الله ابن عبد الرحمن الجُمَحىّ ، وعمر بن سُلَيمان بن أَبى حَثْمَةَ ، وموسى بن محمّد بن إبراهيم ، وعبد الحَميد بن جَعفر ، وأَبو مَعْشَر ، ويعقوب بن محمّد بن أَبى صَعْصَعَة ، وابن أَبى سَبْرَة ، وأَيّوب بن النُّعمان ؛ فكلٌّ قد حدّثنى بطائفة من حديث تَبوك ، وبعضهم أَوعى له من بعض ، وغير هؤلاء قد حدّثنى ممّن لم أُسَمِّ ، ثِقات ، وقد كتبت كلَّ ما قد حدّثونى .

قالوا : كانت الساقطة ــ وهم الأَنْباط ــ يَقدَمون المدينة بالدَّرْمَك[١]

(١) الدرمك : دقيق الحوارى . (الصحاح ، ص ١٥٨٣) .

والزيت فى الجاهليّة وبعد أن دخل الإسلام ، فإنما كانت أخبار الشام عند المسلمين كلّ يوم ؛ لِكَثْرة مَن يَقدَم عليهم من الأنْباط ، فقدمت قادمة فذكروا أنّ الروم قد جمعت جُموعاً كثيرةً بالشام ، وأنّ هِرَقْل قد رَزَق أصحابه لِسَنَة ، وأجلبت معه لَخْمٌ ، وجُذام ، وغَسّان ، وعامِلة . وزحفوا وقدّموا مُقَدِّماتهم إلى البَلْقاء وعسكروا بها ، وتخلّف هِرَقْل بحِمْص . ولم يكن ذلك ، إنما ذلك شىءٌ قِيل لهم فقالوه . ولم يكن عدوٌّ أخوف عند المسلمين منهم ، وذلك لِما عايَنوا منهم — إذ كانوا يَقدَمون عليهم تُجّارًا — من العُدَد والعُدَّة والكُراع . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يغزو غزوةً إلاّ ورّى بغيرها ، لئلاّ تَذهَب الأخبار بأنّه يُريد كذا وكذا ، حتى كانت غزوة تَبوك ، فغزاها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى حرٍّ شديد ، واستقبل سَفَرًا بعيدًا ، واستقبل غُزًّى وعَدَدًا كثيرًا ، فجلّى للناس أمْرَهم[١] ليتأهّبوا لذلك أُهْبَةَ غزوهم ، وأخبر بالوجه الذى يُريد . وبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى القبائل وإلى مكّة يستنفرهم إلى غزوهم ، فبعث إلى أسلمَ بُرَيدة ابن الحُصَيب وأمره أن يبلغ الفُرْع . وبعث أبا رُهم الغِفارىّ إلى قومه أن يطلبهم ببلادهم ، وخرج أبو واقد اللّيثىّ فى قومه ، وخرج أبو الجَعْد الضّمْرىّ فى قومه بالساحل ، وبعث رافع بن مَكيث ، وجُنْدُب بن مَكيث فى جُهَينة ؛ وبعث نُعَيم بن مَسعود فى أَشْجَع ؛ وبعث فى بنى كعب بن عمرو بُدَيلَ بن وَرْقاء ، وعمروَ بن سالم ، وبشر بن سُفيان ؛ وبعث فى سُليم عدّة ، منهم العبّاس بن مِرداس . وحضّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المسلمين

---

(١) فى الأصل : « فحلا للناس وأمرهم » . وجلى : أى كشف . (لسان العرب ، ج ١٨ ، ص ١٦٣) .

على القتال والجهاد ، ورغَّبهم فيه ، وأمرهم بالصَّدَقَة ، فحملوا صدقاتٍ كثيرة ، فكان أوّل من حمل أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، جاء بماله كلّه أربعةِ آلاف درهم ، فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : هل أبقيتَ شيئاً ؟ قال : الله ورسوله أعلم ! وجاء عمر رضى الله عنه بنصف ماله ، فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : هل أبقيتَ شيئاً ؟ قال : نعم ، نصفَ ما جئتُ به . وبلغ عمرَ ما جاء به أبو بكر فقال : ما استبقْنا إلى الخير قَطُّ إلاَّ سبقنى إليه . وحمل العبّاس بن عبد المطَّلب عليه السلام إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مالاً ؛ وحمل طَلحة بن عُبَيد الله إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم مالاً ؛ وحمل عبد الرحمن بن عَوف إليه مالاً ، مائتى أُوقيّة ؛ وحمل سعد بن عُبادة إليه مالاً ، وحمل محمّد بن مَسْلَمَة إليه مالاً . وتصدّق عاصم ابن عَدىّ بتسعين وَسْقاً تمرًا . وجهّز عُثمان بن عَفَّان رضى الله عنه ثُلُثَ ذلك الجيش ، فكان من أكثرهم نَفَقَةً ، حتى كفى ذلك الجيشَ مَؤونتَهم ، حتى إن كان لَيقال : ما بقيتْ لهم حاجة ! حتى كفاهم شُنُقَ [1] أسقيتهم . فيقال : إنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال يومئذ : ما يضرّ عُثمانَ ما فعل بعد هذا !

ورغِب أهل الغنى فى الخير والمعروف ، واحتسبوا فى ذلك الخير ، وقوّوا أُناسًا دون هؤلاء مَن هو أضعف منهم ، حتى إنّ الرجل ليأْتى بالبعير إلى الرجل والرجلَين فيقول : هذا البعير بينكما تتعاقبانه [2] ، ويأْتى الرجل بالنَّفَقَة فيُعطيها بعض من يخرج ، حتى إن كنَّ النساءُ لَيُعِنَّ بكلّ ما قدرنَ عليه .

---

(١) شنق : جمع شناق ، وهو الخيط أو السير الذى تعلق به القربة ، والخيط الذى يشد به فمها . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٣٩) .

(٢) فى الأصل : « تتعقبانه » .

قالت أُمّ سِنان الأَسلميّة : لقد رأَيت ثوباً مبسوطاً بين يدى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى بيت عائشة رضى الله عنها فيه مَسَكٌ[١] ، ومَعاضِد[٢] ، وخَلاخِل[٣] وأَقْرِطَة وخَواتِيم ، وخَدَمات ، ممّا يبعث به النساء يُعِنّ[٤] به المسلمين فى جهازهم . والناس فى عُسْرَةٍ شديدة ، وحين طابت الثمار وأُحِبّت الظِّلال ، فالناس يُحبّون المُقَام ويكرهون الشُّخوص عنها على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وأَخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس بالانكماش[٥] والجِدّ ، وضرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عسكره بثنيّة الوَداع ، والناس كثيرٌ لا يجمعهم كتاب ، قد رحل يُريد أَن يبعث إلاّ [أَنّه] ظنّ أَنّ ذلك سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وَحْيٌ من الله عزّ وجلّ .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للجَدّ بن قيس : أَبا وَهب ، هل لك العامَ تخرج معنا لعلّك تَحْتَقِب[٦] من بنات الأَصفر ؟ فقال الجَدّ : أَوَ تأْذن لى ولا تَفْتِنِّى ؟ فوالله ، لقد عرف قومى ما أَحدٌ أَشدّ عُجْباً بالنساء منّى ، وإنّى لأَخشى إن رأَيتُ نساء بنى الأَصفر لا أَصبر عنهنّ . فأَعرض عنه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : قد أَذنتُ لك ! فجاءه ابنه عبد الله بن الجَدّ ــ وكان بَدْرِيًّا ، وهو أَخو مُعاذ بن جَبَل لأُمّه ــ فقال لأَبيه : لِمَ تردّ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقالته ؟ فوالله ما فى بنى سَلِمَة أَكثر مالاً منك ، ولا تخرج ولا تحمل أَحدًا ! قال : يا بُنَيّ ، ما لى والخروج

(١) المسك : أسورة من ذبل أو عاج . (الصحاح ، ص ١٦٠٨) .
(٢) المعاضد : الدمالج . (الصحاح ، ص ٥٠٦) .
(٣) الخلاخل : الحلى . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٣٧١) .
(٤) فى الأصل : « يعينون » .
(٥) انكش : أى أسرع . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧) .
(٦) احتقب : أى احتمل . (لسان العرب ، ج ١ ، ص ٣١٥) .

فى الريح والحرّ والعُسْرَة إلى بنى الأَصفر ؟ واللهِ ، ما آمن خوفاً من بنى الأَصفر وإنِّى فى منزلى بخُرْبَى ، فأَذهب إليهم فأَغزوهم ؛ إنِّى واللهِ يا بُنَىّ عالمٌ بالدوائر ! فأَغلظ له ابنه ، فقال : لا واللهِ ، ولكنه النفاق ! واللهِ ، لينزلنّ على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيك قرآنٌ يقرأونه . قال : فرفع نَعْله فضرب بها وجهه ، فانصرف ابنه ولم يُكلِّمه . وجعل الخبيث يُثبِّط قومه ، وقال لجبّار بن صَخر ونفرٍ معه من بنى سَلِمَة : يا بنى سَلِمَة ، لاتَنفِروا فى الحرّ . يقول : لا تخرجوا فى الحرّ زهادةً فى الجهاد ، وشكًّا فى الحقّ ، وإرجافاً برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .فأَنزل الله عزَّ وجلّ فيه : ﴿ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فى الحَرِّ﴾إلى قوله :﴿ جَزَاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١] . وفيه نزلت :﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لى ولا تَفْتِنِّى..﴾[٢] الآية ، أى كأَنه إنما يخشى الفتنة من نساء بنى الأَصفر ، وليس ذلك به ؛ إنما تعذَّر بالباطل ؛ فما سقط فيه من الفتنة أَكثر ، بتخلّفه عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ورغبتِه بنفسه عن نفسه . يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافِرِينَ ﴾ يقول : إنَّ جهنَّم لَمِن ورائه ؛ فلمّا نزلت هذه الآية جاء ابنه إلى أَبيه فقال : أَلم أَقل لك إنّه سوف ينزل فيك قرآن يقرأه المسلمون؟ قال : يقول أَبوه : اسكتْ عنى يا لُكَعُ ! واللهِ ، لا أَنفعك بنافعةٍ أَبدًا ! واللهِ لأَنت أَشدُّ علىّ من محمّد !

قال : وجاء البكّاءون — وهم سبعة — يستحملونه ، وكانوا أَهل حاجة ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ لا أَجِدُ ما أَحمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ..﴾[٣] الآية . وهم سبعة من بنى عمرو بن عوف : سالم

---

(١) سورة ٩ التوبة ٨١ ، ٨٢

(٢) سورة ٩ التوبة ٤٩ .

(٣) سورة ٩ التوبة ٩٢ .

ابن عُمَير ، قد شهد بدراً ، لا اختلاف فيه عندنا ؛ ومن بني واقف هَرَمِيّ ابن عمرو[١] ؛ ومن بني حارثة عُلْبَة بن زيد ، وهو الذي تصدّق بعَرْضه[٢] ، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمر بالصدقة ، فجعل الناس يأتون بها ، فجاء عُلْبَة فقال : يا رسول الله ، ما عندي ما أتصدّق به وجعلت عَرْضي حِلاً . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قد قبل الله صدقتك . ومن بني مازن بن النَّجّار أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ؛ ومن بني سَلِمَة عمرو بن عُتْبَة ، ومن بني زُرَيق سَلَمَة بن صَخر ، ومن بني سُلَيم عِرباض بن سارية السُّلَميّ . وهؤلاء أثبت ما سمعنا . ويقال : عبد الله [بن] مُغَفَّل المُزَنيّ ، وعمرو بن عَوف المُزَنيّ ؛ ويقال : هم بنو مُقَرِّن ، من مُزَينة . ولمّا خرج البكّاءون من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقد أعلمهم أنّه لا يجد ما يحملهم عليه ، وإنما يُريدون ظَهْرًا ، لقِيَ يامين بن عُمَير بن كعب بن شِبْل النَّضريّ أبا ليلى المازنيّ ، وعبد الله بن مُغَفَّل المُزَنيّ ، وهما يبكيان فقال : وما يُبكيكما ؟ قالا : جئنا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليَحْملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نُنفق به على الخروج ، ونحن نكره أن تفوتنا غزوةٌ مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . فأعطاهما ناضحاً له ، فارتحلاه ، وزوّد كلّ رجلٍ منهما صاعَيْن من تمر . فخرجا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . وحمل العبّاس بن عبد المطّلب رضى الله عنه منهم رَجُلَيْن . وحمل عثمان رضى الله عنه منهم ثلاثة ، بعد الذى كان جَهّز من الجيش ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لايخرج معنا إلّا مُقْوٍ[٣].

(١) فى الأصل : « هرير بن عمرو » ؛ وما أثبتناه عن ابن سعد . (الطبقات ، ج ٢ ، ص ١١٩) . وعن ابن الأثير أيضاً . (أسد الغابة ، ج ٥ ، ص ٥٨) .

(٢) العرض بالسكون : المتاع . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٨٤) .

(٣) أى ذو دابة قوية . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٢٨٧) .

فخرج رجلٌ على بَكْرٍ صعبٍ فصَرَعه ، فقال الناس : الشهيد ، الشهيد ! فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُنادياً يُنادى : لا يدخل الجنّةَ إلّا مُومنٌ — أو إلّا نفسٌ مؤمنة — ولا يدخل الجنّة عاصٍ . وكان الرجل طرحه بعيره بالسُّوَيداء .

قالوا : وجاء ناسٌ من المنافقين يَسْتأْذِنون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من غير عِلّةٍ فأَذِن لهم ، وكان المنافقون الذين استأْذنوا بِضْعَةً وثمانين . وجاء المعذِّرون من الأعراب فاعتذروا إليه ، فلم يَعذِرهم الله عزّ وجلّ . هم نفرٌ من بنى غِفار ، منهم خُفاف بن إيماء بن رَحْضَة ، اثنان وثمانون رجلاً . وأقبل عبد الله بن أُبَىّ بعسكره ، فضربه على ثنيّة الوَداع بحِذاء ذُباب ، معه حلفاؤه من اليهود والمنافقين ممّن اجتمع إليه ، فكان يقال : ليس عسكر ابن أُبَىّ بأقَلِّ العسكرَيْن . وأقام ما أقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستخلف على العسكر أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه يُصلّى بالناس ، فلمّا استمدّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم السّفَرُ ، وأجمع المسير ، استخلف على المدينة سِباع ابن عُرْفُطَة الغِفارىّ — ويقال : محمّد بن مَسْلَمَة — لم يتخلّف عنه غزوةً غير هذه . وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : استكثِروا من النِّعال ، فإنّ الرجل لا يزال راكباً ما دام مُنتعلاً . فلمّا سار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تخلّف ابن أُبَىّ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيمن تخلّف من المنافقين ، وقال : يغزو محمّدٌ بنى الأصفر ، مع جَهد الحال والحرّ والبلد البعيد ، إلى ما لا قِبَلَ له به ! يَحسَب محمّدٌ أنّ قتال بنى الأصفر اللّعِب ؟ ونافق معه مَن[1] هو على مثل رأيه ، ثم قال ابن أُبَىّ : واللهِ لكأنّى أنظرُ إلى

(١) فى الأصل : « ممن » .

أصحابه غدًا مُقرَّنين فى الحبال ! إرجافاً برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابه .

فلمّا رحل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من ثنيّة الوَداع إلى تَبوك ، وعقد الألوية والرايات ، فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، ورايتَه العُظمى إلى الزُّبَير ، ودفع رايةَ الأوس إلى أُسَيد بن الحُضَير ، ولواء الخزرج إلى أبى دُجانة ، ويقال : إلى الحُباب بن المُنْذِر بن الجَموح.

قالوا : وإذا عبدٌ لامرأةٍ من بنى ضَمْرَة ، لقيه على رأس ثنيّة النور ، والعبد مُتسلِّح . قال العبد : أُقاتل معك يا رسول الله ؟ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : وما أنت ؟ قال : مملوك لامرأة من بنى ضَمْرَة سَيِّئَةِ المَلَكَة[1]. قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : ارجع إلى سيّدتك ، لا تقتل معى فتدخلَ النار !

قال : حدّثنى رِفاعة بن ثَعْلَبَة بن أبى مالِك ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : جلست مع زيد بن ثابت فذكرنا غزوة تَبوك ، فذكر أنه حمل لواء مالِك بن النَّجّار فى تَبوك فقلت : يا أبا سَعيد ، كم ترى كان المسلمون ؟ قال : ثلاثون ألفاً ، لقد كان الناس يرحلون عند مَيل الشمس ، فما يزالون يرحلون والساقة مُقيمون حتى يرحل العسكر . فسألت بعض من كان بالساقة فقال : ما يرحل آخرهم إلّا مساءً ، ثم نَرْحَل على أثرهم فما ننتهى إلى العسكر إلّا مُصبّحين من كثرة الناس .

قالوا : وتخلّف نفرٌ من المسلمين ، أبطأَتْ بهم النِّيَّةُ عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى تخلَّفوا عنه من غير شَكٍّ ولا ارتيابٍ ، منهم : كعب بن

(١) فى الأصل : « المملكة » . ويقال : فلان حسن الملكة ، إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه . (الصحاح ، ص ١٦١١) .

مالِك ، وكان كعب يقول : كان من خبرى حين تَخلّفتُ عن تَبوك أنى لم أكُ قَطُّ أقوى ولا أيسرَ منّى حين[1] تخلّفت عنه فى تلك الغزوة ؛ واللهِ ، ما اجتمعت لى راحلتان قَطُّ حتّى اجتمعتا فى تلك الغزوة ! فتجهّز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتجهّز المسلمون معه ، وجعلتُ أغدو لأتجهّز معهم فأرجع ولم أقضِ حاجةً ، فأقول فى نفسى : أنا قادرٌ على ذلك ! فلم أزل يَتَمادَى بى حتّى شمّر بالناس الجِدّ ، فأصبح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غازياً والمسلمون ، وذلك يوم الخميس ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُحبّ أن يخرج فيه ، ولم أقْضِ من جهازى شيئاً ، فقلت : أتجهّز بعده بيوم أو يومَين ثم ألحق بهم .فغدوتُ بعد ما فَصَلوا أتجهّز ، فرجعت ولم أفعل شيئاً ، ثم غدوتُ فلم أفعل شيئاً ، فلم أزل يَتَمادَى بى حتى أسرعوا ، وتفارط[2] الغزو ، وقلت : أرتحل فأُدرِكهم ، ويا ليتنى فعلتُ ! ولم أفعل ، وجعلتُ إذا خرجتُ فى النّاس فطفتُ فيهم يَحزُنُنى ألاّ أرى إلاّ رجلاً مغموصاً[3] عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممّن عذّر الله ، ولم يذكرنى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى بلغ تَبوك ، فقال وهو جالسٌ فى القوم : ما فعل كعب بن مالِك؟ فقال رجلٌ من بنى سَلِمَة : يا رسول الله ، حبسه بُرداه والنظرُ فى عِطفَيْه . فقال له مُعاذ بن جَبَل : بئسما قلتَ ! واللهِ يا رسول الله ما علمنا عليه إلاّ خيرًا . والقائل عبد الله بن أُنَيس ، ويقال : الذى ردّ عليه المقالة أبو قَتادة ، ومُعاذ بن جَبَل أثبتهما عندنا .

قال هِلال بن أُمَيّة الواقفىّ ، حين تخلّف عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) فى الأصل : « من حين » .
(٢) فى الأصل : « وتعارط » ؛ والمثبت من ابن الأثير . وتفارط : أى فات وقته وتقدم . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٩٥) .
(٣) أى مطعونا فى دينه بالنفاق . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٧١) .

فى تَبوك : واللهِ ما تخلَّفت شكًّا ولا ارتياباً ، ولكن كنت مُقوياً فى المال . قلت : أَشترى بعيرًا . ولقينى مُرارَةُ بن الرَّبيع فقال : أنا رجلٌ مُقْوٍ ، فأَبتاع بعيرًا وأَنطلق به . فقلت : هذا صاحبٌ أُرافقه . فجعلنا نقول : نغدو فنشترى بعيريْن فنلحق بالنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولا يفوت ذلك ؛ نحن قوم مُخِفُّون على صدر راحلتَيْن فغداً نَسير ! فلم نزل ندفع ذلك ونُؤخّر الأَيّام حتى شارف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم البلاد . فقلت : ما هذا بحين خروج . وجعلت لا أَرى فى الدار ولا فى غيرها إلاَّ معذورًا أَو مُنافقاً مُعلناً ، فأَرجعُ مُغتمًّا بما أَنا فيه . وكان أَبو خَيْثَمَة قد تخلَّف معنا ، وكان لا يُتَّهمُ فى إسلامه ولا يُغْمَص عليه ، فعزم له على ما عزم ، وكان أَبو خَيْثَمَة يُسمَّى عبد الله بن خَيْثَمة السالمىّ ، فرجع بعد أَن سار رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عشرة أَيّام حتى دخل على امرأَتَيْن له فى يومٍ حارٍّ فوجدهما فى عَريشَيْن لهما ، قد رشَّت كلّ واحدةٍ منهما عَريشَها وبرّدت له فيه ماءً ، وهيَّأَت له فيه طعاماً ، فلمّا انتهى إليهما قام على العَريشَيْن فقال : سبحان الله! رسول الله قد غُفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأَخَّر فى الضِّحّ[1] والريح والحرّ ، يحمل سلاحه على عُنُقه ، وأَبو خَيْثَمة فى ظلالٍ باردٍ وطعامٍ مُهيَّأٍ وامرأَتَيْن حسناوَيْن ، مقيمٌ فى ماله ، ما هذا بالنَّصَف ! ثم قال : واللهِ ، لا أَدخل عَريشَ واحدةٍ منكما حتى أَخرج فأَلحقَ برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . فأَناخ ناضحه وشدّ عليه قَتَبه وتزوّد وارتحل ، فجعلت امرأَتاه يُكلِّمانه ولا يُكلّمهما ، حتى أَدرك عُمَير بن وَهب الجُمَحىّ بوادى القُرَى يُريد النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فصحبه فترافقا ، حتى إذا دَنَوا من تبوك قال أَبو خَيْثَمَة : يا عُمَير ! إنَّ لى ذُنوباً وأَنت لا ذَنْبَ لك ، فلا عليك أَن

---

(١) الضح : ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٢) .

تَخلَّف عنى حتى آتىَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قبلك . ففعل عُمَير ، فسار أَبو خَيْثَمَة حتى إذا دنا من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم — وهو نازلٌ بتبوك — قال الناس : هذا راكب الطريق ! قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : كُنْ أَبا خَيْثَمَة ! فقال الناس : يا رسول الله ، هذا أَبو خَيْثَمَة ! فلمَّا أَناخ أَقبل فسلَّم على النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أَوْلَى لك يا أَبا خَيْثَمَة ! ثم أَخبر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الخبر ، فقال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم خيرًا ودعا له .

قال : ومضى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من المدينة ، فصبَّح ذا خُشُب فنزل تحت الدَّوْمَة ، وكان دليله إلى تَبوك عَلْقَمَة بن الفَغْواء الخُزاعيّ . فقام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحت الدَّوْمَة ، فراح منها مُمسياً حيث أَبرد ، وكان فى حرٍّ شديد ، وكان يجمع من يوم نزل ذا خُشُب بين الظُّهر والعصر فى منزله ، يُؤَخِّر الظُّهر حتى يُبرِد ، ويُعجِّل العصر ، ثم يجمع بينهما ، فكلّ ذلك فعله حتى رجع من تبوك . وكانت مساجده فى سفره إلى تَبوك معروفة ؛ صلَّى تحتَ دَوْمَةٍ بذى خُشُب ، ومسجد الفَيْفاء ، ومسجد بالمَرْوَة ، ومسجد بالسُّقْيا ، ومسجد بوادى القُرَى ، ومسجد بالحِجْر ، ومسجد بذَنَب حَوْصاء ، ومسجد بذى الجِيفَة ، من صَدْر حَوْصاء ، ومسجد بشِقّ تاراء[1] ممّا يلى جَوْبَر ، ومسجد بذات الخِطْمىّ ، ومسجد بسَمْنَة ، ومسجد بالأَخْضَر ، ومسجد بذات الزِّراب[2] ، ومسجد بالمِدران[3] ، ومسجد بتَبوك .

---

(١) فى الأصل : « ثاراء » ، وما أثبتناه من السمهودى . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٢٦٩)

(٢) فى الأصل : « ذات الذريات » ؛ وما أثبتناه من السمهودى . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٣١٨) .

(٣) فى الأصل : « المدرا » ؛ وما أثبتناه من السمهودى . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٣٧٠) .

ولمّا مضى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من ثنيّة الوَداع سائرًا، فجعل يتخلّف عنه الرجال فيقولون : يا رسول الله ، تخلّف فلان ! فيقول : دعوه ، فإن يك فيه خيرٌ فسيُلحقه الله بكم ، وإن يَكُ غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه ! فخرج معه ناسٌ من المنافقين كثيرٌ لم يخرجوا إلّا رَجاءَ الغنيمة .
وكان أبو ذرّ يقول : أبطأْتُ فى غزوة تَبوك من أجْل بعيرى ، كان نِضواً (١) أعْجَف ، فقلت : أعلفه أيّاماً ثم ألحق برسول الله صلّى الله عليه وسلّم . فعلفتُه أيّاماً ثم خرجتُ ، فلمّا كنت بذى المَرْوَة عَجَز بى ، فتلوّمتُ عليه يوماً فلم أرَ به حركة ، فأخذت متاعى فحملتُه على ظَهْرى ، ثم خرجت أتبع رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ماشياً فى حرٍّ شديدٍ ، وقد تقطّع الناس فلا أرى أحداً يلحقنا من المسلمين ، فطلعتُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نِصْفَ النهار وقد بلغ منّى العَطَش ، فنظر ناظرٌ من الطريق فقال : يا رسول الله ، إنّ هذا الرجل يمشى على الطريق وحدَه . فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : كُنْ أبا ذرّ ! فلمّا تأمّلنى القوم قالوا : يا رسول الله، هذا أبو ذرّ ! فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى دنوتُ منه فقال : مرحباً بأبى ذرّ ! يمشى وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعَث وحدَه ! فقال : ما خلّفك يا أبا ذرّ ؟ فأخبره خبرَ بعيره ، ثم قال : إن كنتَ لَمِنْ أعزّ أهلى علىّ تخلّفاً ، لقد غفر الله لك يا أبا ذرّ بكلّ خُطْوَة ذَنْباً إلى أن بلغتَنى . ووضع متاعه عن ظهره ثم استسقى (٢) ، فأُتى بإناءٍ من ماءٍ فشربه ، فلمّا أخرجه عثمان رضى الله عنه إلى الرَّبَذَة فأصابه قَدَرُه لم يكن معه أحدٌ إلّا امرأته وغلامه ،

---

(١) النضو : الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٥٢) .
(٢) فى الأصل : « استلق » ؛ وما أثبتناه عن الزرقانى يروى عن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٨٤) .

فأوصاهما فقال : اغسلانى وكفّنانى ، ثم ضعانى على قارعة الطريق إذا أنا متُّ . وأقبل ابن مَسعود فى رَهْطٍ من العراق عُمارًا ، فلم يَرُعْهم إلّا بالجِنازة على قارعة الطريق قد كادت الإبل تطؤها ، فسلَّم القوم فقام إليهم غلامه فقال لهم : هذا أبو ذرّ صاحب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فأعينونى عليه ! فاستهلّ ابن مَسعود يبكى ويقول : صدق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم « أبو ذر يمشى وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعَث وحدَه » . ثم نزل هو وأصحابه حتى واروه ، ثم حدّثهم ابن مَسعود حديثَه ، وما قال له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى مسيره إلى تَبوك .

وكان أبو رُهْم الغِفارىّ — وهو كُلثوم بن الحُصَين ، قد بايع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحت الشجرة — فقال : غزوت مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تَبوكاً . قال : فسرت ذات ليلة معه ، ونحن بالأَخْضَر[1] ، وأنا قريبٌ من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأُلقِى علىّ النُّعاس ، فطفِقتُ أستيقظ وقد دنت راحلتى من راحلة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فيُفزِعُنى دُنُوُّها منه خَشْيَةَ أن أُصيب رِجْلَه فى الغَرْز ، فطفِقتُ أحوز[2] راحلتى حتى غلبتنى عيناى فى بعض الطريق ونحن فى بعض الليل ، فزاحمتْ راحلتى راحلتَه ورِجْلُه فى الغَرْز ، فما استيقظتُ إلاّ بقوله : حَسِّ[3] ! فقلت : يا رسول الله ، استغفر لى ! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم سِرْ ! فجعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يسألنى عمّن تخلّف من بنى غِفارٍ ،

---

(١) الأخضر : منزل قرب تبوك ، بينه وبين وادى القرى . (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٥٢) .
(٢) أى أبعد . (شرح أبى ذر ، ص ٤٢٥) .
(٣) حس : كلمة تقولها العرب عند وجود الألم ، وفى الحديث أن طلحة لما أصيبت يده يوم أحد قال : حس . (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٣٢١) .

فأُخبره بهم ، وهو يسألنى ما فعل النَّفَرُ الحُمْر الطِّوال إلنَّطانِط[١] ؟ فحدّثتُه بتخلُّفهم. قال : فما فعل النَّفَر السُّود القِصار الجِعاد الحُلْس[٢] ؟ فقلت : واللهِ يا رسول الله ما أعرف هؤلاءِ . قال : بلى ، الذين هم بشَبَكَة شَدَخ[٣]. قال : فتذكّرتهم فى بنى غِفار فلا أذكرهم ، ثم ذكرت أنهم رَهْطٌ مِن أسلم كانوا فينا وكانوا يحلُّون بشَبَكَة شَدَخ ، لهم نَعَمٌ كثير ، فقلت : يا رسول الله ، أولئك رَهْطٌ مِن أسلم حلفاء لنا". فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما منع أحدَ أولئك حين تخلّف أن يَحمِل على بعيرٍ من إبله رجلاً نشيطاً فى سبيل الله ممّن يخرج معنا ، فيكون له مثلُ أجْرِ الخارج ! إن كان لَمِن أعزِّ أهلى علىَّ أن يتخلّف عنّى ! المهاجرون من قُريش والأنصار، وغِفار ، وأسلم .

وقالوا : بينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى مسيره مرّ على بعيرٍ من العسكر قد تركه صاحبُه من العَجَف والضَّعْف ، فمرّ به مارٌّ فأقام عليه وعَلَفه أيّاماً ثم حوّله إلى منزله ، فصَلَح البعير فسافر عليه ، فرآه صاحبه الأوّل ، فاختصما إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : مَن أحْيَى خُفًّا أو كُراعاً بمَهْلَكَةٍ من الأرض فهو له .

قالوا : وكان الناس مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثلاثين ألفاً ، ومن الخيل عشرة آلاف فرس . وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كلَّ بَطْنٍ من الأنصار أن يتخذوا لواءً وراية ، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية .

---

(١) النطانط : جمع نطناط ، وهو الطويل المديد القامة . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٥٤) .
(٢) الحلس : جمع أحلس ، وهو الذى لونه بين السواد والحمرة . (الصحاح ، ص ٩١٦) .
(٣) بشبكة شدخ : جعل شبكة مع ما أضيف إليه اسم مكان ؛ ورواه أبو على : بشبكة شدخ . (أبو ذر ، ص ٤٣٥) . وقال السهيلى : بشبكة شرخ . (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٣٢١) .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد دفع راية بنى مالِك بن النَّجّار إلى عُمارة بن حَزم ، فأدرك رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم زيد بن ثابت فأعطاه الراية . قال عُمارة : يا رسول الله ، لعلك وجدتَ علىّ[١] ! قال : لا واللهِ ، ولكن قَدِّموا القرآن ، وكان أكثرَ أخذًا للقرآن منك ؛ والقرآن يُقدِّم ، وإن كان عبدًا أسود مُجدَّعاً[٢] . وأمر فى الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرُهم أخذًا للقرآن ، وكان أبو زيد يحمل راية بنى عمرو بن عوف ، وكان مُعاذ بن جَبَل يحمل راية بنى سَلِمَة . وصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوماً بأصحابه فى سفره وعليه جُبَّةُ صوف وقد أخذ بعِنان فرسه – أو قال : مِقْود فرسه – وهو يُصلّى ، فبال الفَرَس فأصاب الجُبَّة فلم يَغْسِله وقال: لا بأْسَ بأبوالها ولُعابها وعَرَقها .

قالوا : وكان رَهْطٌ من المنافقين يسيرون مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى تبوك ، منهم وَديعة بن ثابت ، أحد بنى عمرو بن عَوْف ، والجُلاس ابن سُوَيد بن الصامت ، ومَخْشِىّ بن حُمَيِّر من أشجع ، حليفٌ لبنى سَلِمَة ، وثَعْلَبَة بن حاطب . فقال : تحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؟ واللهِ لكأنّا بكم غدًا مُقرَّنين فى الحِبال ! إرجافاً برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وترهيباً للمؤمنين. فقال وَديعة بن ثابت : مالى أرى قُرّاءَنا[٣] هؤلاء أوعبَنا[٤] بُطوناً ، وأكذبَنا ألْسنةً ، وأجبنَنا عند اللِّقاء ؟ وقال الجُلاس ابن سُوَيد ، وكان زوج أُمّ عُمَير ، وكان ابنها عُمَير يتيماً فى حِجْره : هؤلاء

(١) وجد على : غضب على . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٩٦) .
(٢) المجدع : المقطوع الأنف . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٤٨) .
(٣) فى الأصل : « قرانا » .
(٤) فى الأصل : « أرعبنا » بالراء .

سادتنا وأشرافُنا وأهل الفَضْل منّا ! والله ، لئن كان محمّد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير ! واللهِ ، لوددت أنّى أُقاضى على أن يُضرَب كلُّ رجلٍ منا مائةَ جلدة وأنّا ننفلت من أن ينزل فينا القرآن بمقالتكم !

فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لعَمّار بن ياسر : أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسَلْهم عمّا قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، قد قلتم كذا وكذا! فذهب إليهم عَمّار فقال لهم ، فأَتَوْا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يعتذرون إليه . فقال وَديعة بن ثابت ، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على ناقته وقد أخذ بحَقَب ناقة النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ورجلاه تنسفان الحجارة وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنّا نخوض ونَلعب ! ولم يلتفت إليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فأنزل الله عزّ وجلّ فيه : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(١) إلى قوله ﴿بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٢). قالوا : وردّ عُمَير على الجُلاس ما قال - حين قال : لَنحن شرٌّ من الحمير - قال : فأنت شرٌّ من الحمار ، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الصادق وأنت الكاذب ! وجاء الجُلاس إلى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فحَلَف ما قال من ذلك شيئاً ، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه فيه : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾(٣) ونزلت فيه : ﴿وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ . .﴾ الآية. قال: وكان للجُلاس دِيةٌ فى الجاهليّة على بعض قومه ، وكان مُحتاجاً ، فلمّا قدم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المدينة أخذها له فاستغنى بها. وقال مَخشىّ بن حُمَيِّر: قد واللهِ يا رسول اللهِ قعد بى اسمى واسمُ أبى ، فكان الذى عُفِى عنه

(١) سورة ٩ التوبة ٦٥

(٢) سورة ٩ التوبة ٦٦

(٣) سورة ٩ التوبة ٧٤

فى هذه الآية مَخْشىّ بن حُمَيِّر – فسمّاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عبدالرحمن أوعبد الله – وسأل اللهَ عزّ وجلّ أن يُقْتَل شهيدًا ولا يُعْلَمَ بمكانه ، فقُتِل يوم اليمامة فلم يُوجَد له أثر . ويقال فى الجُلاس بن سُوَيد : إنّه كان ممّن تخلّف من المنافقين فى غزوة تَبوك ، فكان يُثبّط الناس عن الخروج ، وكانت أمّ عُمَير تحته ، وكان عُمَير يتيماً فى حِجْره ولا مالَ له ، فكان يَكفُله ويُحسن إليه ، فسمعه وهو يقول : واللهِ ، لئن كان محمّد صادقاً لَنحن شرٌّ من الحَمير ! فقال له عُمَير : يا جُلاس ، قد كنتَ أحبَّ الناس إلىّ ، وأحسنهم عندى أثرًا ، وأعزّهم علىّ أن يدخل عليه شىءٌ نكرهه ، واللهِ ، لقد قلتَ مقالة لئن ذكرتُها لتَفْضَحنّك ، ولئن كتمتُها لأَهلِكنّ ، وإحداهما[1] أهون علىّ من الأُخرى ! فذُكِر للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم مقالة الجُلاس ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أعطى الجُلاس مالاً من الصدقة لحاجته وكان فقيرًا ، فبعث النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إلى الجُلاس فسأله عمّا قال عُمَير ، فحلف باللهِ ما تكلّم به قَطُّ ، وأنّ عُمَير الكاذب – وهوعُمَير بن سَعيد – وهوحاضرٌ عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقام وهو يقول : اللّهمّ ، أنزلْ على رسولك بيان ما تكلّمت به ! فأنزل الله على نبيّه ﴿يَحْلِفُونَ باللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾ [2] إلى قوله : ﴿أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ للصدقة التى أعطاها النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . فقال الجُلاس : اسمع ! الله قد عرض علىّ التَّوْبَة ! واللهِ لقد قلتُ ما قال عُمَير ! ولمّا اعترف بذنبه وحسُنت تَوْبَته ولم يمتنع عن خيرٍ كان يصنعه إلى عُمَير ابن سعيد ، فكان ذلك ممّا قد عُرِفت به توبتُه .

قال أبو حُمَيد الساعدىّ : خرجنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى

(١) فى الأصل : « وأحدهما » .
(٢) سورة ٩ التوبة ٧٤

تَبوك ، فلمّا جئنا وادى القُرى مررنا على حديقةٍ لامرأة ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : اخرُصوها[1] ! فخرصها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وخرصناها معه ، عشرةَ أوساق . ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : احفظى ما خرج منها حتى نرجعَ إليك . فلمّا أمسينا بالحِجْر قال : إنَّها ستهُبُّ الليلة ريحٌ شديدةٌ ، فلا يقومنَّ أحدٌ منكم إلّا مع صاحبه ، ومَن كان له بعير فليُوثِقْ عِقالَه . قال : فهاجت ريحٌ شديدةٌ ولم يَقُم أحدٌ إلّا مع صاحبه ، إلّا رجلَيْن من بنى ساعدة ؛ خرج أحدهما لحاجته ، وخرج الآخر فى طلب بعيره . فأمّا الذى ذهب لحاجته فإنَّه خُنِق على مَذْهَبه ، وأمّا الذى ذهب فى طلب بعيره فاحتملتْه الريحُ فطرحته بجَبَلَىْ طَيِّىءٍ ، فأُخبر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم خبرَهما ، فقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : ألم أنْهكم أن يخرج رجلٌ إلّا ومعه صاحبٌ له ؟ ثم دعا الذى أُصيب على مَذْهَبه فشُفى ، وأمّا الآخرُ الذى وقع بجَبَلَىْ طيّىءٍ فإنَّ طَيِّئاً أهدته للنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم حين قدم المدينة . ولمّا نزل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وادى القُرى أهدى له بنو عُرَيضٍ اليهودىّ هَريساً[2] فأكلها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأطْعَمَهم أربعين وَسْقاً ، فهى جاريةٌ عليهم . تقول امرأةٌ من اليهود : هذا الذى صنع بهم محمّدٌ خيرٌ[3] ممّا ورِثوه من آبائهم ؛ لأنّ هذا لا يزال جارياً عليهم إلى يوم القيامة .

وكان أبو هُرَيرة يُحدِّث يقول : لمّا مررنا بالحِجْر استقى الناسُ من

---

(١) خرص النخلة : إذا حزر ما عليها من الرطب تمرا . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٨٨) .
(٢) الهرس ، الأكل الشديد والدق العنيف ، ومنه الهريس والهريسة والهراس . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٥٩) .
(٣) فى الأصل : « خيرا » .

بئْرها وعَجَنوا ، فنادى مُنادى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : لا تشرَبوا من مائِها ولا تتوضَّئوا منه للصلاة ، وما كان من عجينٍ فاعْلِفوه الإبلَ . قال سَهل ابن سعد : كنت أصغر أصحابى وكنت مُقرِيهم(١) فى تَبوك ، فلمّا نزلنا عجنتُ لهم ثم تحيّنت العجين ، وقد ذهبتُ أطلب حطباً ، فإذا مُنادى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُنادى : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأْمركم ألاّ تشربوا من ماء بئرهم . فجعل الناس يُهَرقون ما فى أسقيتها . قالوا : يا رسول الله ، قد عجنّا . قال : أعْلِفوه الإبل ! قال سَهل : فأَخذتُ ما عجنت فعلفت نِضْوَيْن ، فهما كانا أضعف رِكابنا .

وتحوّلنا إلى بئر صالحٍ النبىّ عليه السلام ، فجعلنا نستقى من الأَسقية ونغسلها ، ثم ارتوينا ، فلم نرجع يومئذٍ إلاّ مُمسين . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لا تسأَلوا نبيَّكم الآيات ! هؤلاء قوم صالح سأَلوا نبيَّهم آيةً ، فكانت الناقة تَرِد عليهم من هذا الفَلْج ، تَسقيهم من لبنها يومَ وِرْدِها ما شربتْ من مائها ، فعقروها فأُوعِدوا ثلاثاً ، وكان وعد الله غير مكذوب ، فأَخذتهم الصَّيْحَة فلم يبقَ أحدٌ منهم تحت أديم السماء إلا هلك ، إلّا رجلٌ فى الحرم منعه الحرمُ من عذاب الله . قالوا : يا نبىّ الله ، مَن هو ؟ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أبو رِغال ، أبو ثَقيف . قالوا : فما له بناحية مكَّة ؟ قال: إنّ صالحاً بعثه مُصدّقاً ، فانتهى إلى رجلٍ معه مائة شاة شُصُص(٢) ، ومعه شاةٌ والد ، ومعه صبىٌّ ماتت أمّه بالأَمس . فقال : إنّ رسول الله أرسلنى إليك . فقال : مرحباً برسول الله وأهلاً !

---

(١) فى الأصل : « وكنت سفر بهم » . ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات .

(٢) شصص : جمع شصوص ؛ والشصوص : الشاة التى قد قل لبنها جدا أو ذهب . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٢٠) .

خُذْ ! قال : فأخذ الشاة اللَّبون ، فقال : إنما هي أمّ هذا الغلام بعد أُمّه ،
خُذْ مكانها عشرًا .قال :لا. قال: عشرين . قال : لا . قال: خمسين . قال :لا .
قال : خُذْها كلَّها إلّا هذه الشاة . قال : لا . قال : إن كنت تُحبّ اللبن
فأنا أحبّه . فنثر كِنانته ثم قال : اللَّهمّ تشهد ! ثم فوّق له بسهمٍ فقتله ،
فقال : لا يسبق بهذا الخبر إلى نبيّ الله أوّلُ منى ! فجاء صالحاً فأخبره
الخبر ، فرفع صالح يدَيْه مدًّا فقال : اللَّهمّ العن أبا رِغال ! ثلاثاً . وقال
رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لا تدخلوا على هؤلاء القوم المُعذَّبين ، إلّا أن
تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم فيُصيبَكم ما أصابهم .

قال أبو سَعيد الخُدْرىّ : رأيت رجلاً جاء إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم
بخاتم وجده فى الحِجْر فى بيوت المُعذَّبين . قال : فأعرض عنه واستتر بيده
أن ينظر إليه ، وقال : ألقِه ! فألقاه فما أدرى أين وقع حتى الساعة . وكان
ابن عمر يقول: إنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأصحابه حين حاذاهم :
إنّ هذا وادى النَّفْر ! فجعلوا يُوضِعون[1] فيه رِكابَهم حتى خرجوا منه .

قال : حدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن يونس بن يوسف ، عن عُبَيد بن
جُبَير ، عن أبى سَعيد الخُدرىّ قال : رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم
أوْضَع راحلتَه حتى خلَّفها . قال : وارتحل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم
لمّا أصبح ولا ماء معهم ، فشَكَوْا ذلك إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ،
ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على غير ماء . قال عبد الله بن أبى حَدْرَد :
فرأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم استقبل القِبْلَة فدعا ــ ولا واللهِ ما أرى
فى السماء سَحاباً ــ فما بَرِح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يدعو حتى إنّى
لأنظر إلى السَّحاب تَأْتَلِف من كلّ ناحية ، فما رام مقامه حتى سحّتْ علينا

---

(١) فى الأصل « يعرضون » .

السماء بالرَّواء[1] ، فكأنّى أسمع تكبير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى المطر. ثم كشف الله السماءَ عنّا من ساعتها وإنِ الأرضُ إلّا غُدُرٌ تَناخسُ[2] ، فسقى الناسُ وارتَوَوْا عن آخرهم ، وأسمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : أشهدُ أنّى رسول الله ! فقلت لرجلٍ من المنافقين : ويحك ، أبَعْدَ هذا شىءٌ ؟ فقال : سَحابةٌ مارّة ! وهو أوس بن قَيْظىّ ، ويقال: زيد بن اللُّصَيْت.

قال : حدّثنى يونس بن محمّد ، عن يعقوب بن عمر بن قَتادة ، عن مَحمود بن لَبيد ، أنّه قال له : هل كان الناس يعرفون أهل النّفاق فيهم ؟ فقال : نعم واللهِ ، إن كان الرجل لَيعرفه من أبيه وأخيه وبنى عمّه . سمعت جدّك قَتادة بن النعمان يقول : تَبِعَنا فى دارنا قومٌ منّا مُنافقون . ثم من بَعْدُ سمعت زيدَ بن ثابت يقول فى بنى النَّجّار : مَن لا بارك الله فيه ! فيقال : مَن يا أبا سَعيد ؟ فيقول : سعد بن زُرارة ، وقيس بن فِهر . ثم يقول زيد : لقد رأيتنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى غزوة تَبوك ، فلمّا كان من أمر الماء ما كان دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأرسل الله سَحابةً فأمطرت حتى ارتوى الناس ، فقلنا : يا وَيْحك ، أبَعْدَ هذا شىءٌ ؟ فقال : سحابةٌ مارّةٌ ! وهو واللهِ رجلٌ لك به قرابة يا مَحمود بن لَبيد ! قال مَحمود : قد عرفتُه !

قال : ثم ارتحل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم موجِّهاً إلى تَبوك ، فأصبح فى منزلٍ ، فضلّت ناقة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم القَصْواء ، فخرج أصحابه فى طَلَبها . وعند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عُمارة بن حَزم — عَقَبىّ بدرىّ قُتِل يوم اليمامة شهيدًا — وكان فى رَحْله زيد بن اللُّصَيْت أحد بنى قَيْنُقاع

(١) الرواء : الماء الكثير . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١١٣) .

(٢) تناخس : أى يصب بعضها فى بعض . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٣٣) .

كان يهوديًا فأسلم فنافق ، وكان فيه خُبْثُ اليهود وغِشُّهم ، وكان مُظاهرًا لأهل النِّفاق ، فقال زيدٌ وهو فى رَحْلِ عُمارة ، وعُمارة عند النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : أليس محمّدٌ يزعم أنَّه نبيٌّ ويُخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يَدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ مُنافقاً يقول إنَّ محمّدًا يزعم أنَّه نبيٌّ ، وأنَّه يُخبركم بأمر السماء ولا يَدرى أين ناقته ! وإنى واللهِ ما أعلم إلاَّ ما علَّمنى الله ، وقد دلَّنى عليها ، وهى فى الوادى فى شِعْب كذا وكذا ـ الشعْب أشار لهم إليه ـ حَبستْها شجرةٌ بِزمامها ، فانطَلِقوا حتى تأتوا بها . فذهبوا فجاءوا بها ، فرجع عُمارة بن حَزم إلى رَحْله فقال : العَجَبُ من شىء حدَّثَناه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ! إنَّها عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه ! قال كذا وكذا ـ الذى قال زيد . قال : فقال رجلٌ ممّن كان فى رَحْل عُمارة ، ولم يَحضُر رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : زيد واللهِ قائل هذه المقالة قبلَ أن تطلع علينا ! قال : فأقبل عُمارةُ على زيد ابن اللُّصَيت يَجَأُه[1] فى عُنُقِه ويقول : واللهِ ، إنَّ فى رَحْلى لَداهِيَةً وما أدرِى ! اخرج يا عدوّ الله من رَحْلى ! وكان الذى أخبر عُمارة بمقالة زيدٍ أخوه عمرو بن حَزم ، وكان فى الرَّحْل مع رَهْط من أصحابه . والذى ذهب فجاء بالناقة من الشِّعْب الحارث بن خَزَمَة الأشهلىّ ، وجدها وزِمامُها قد تعلَّق فى شجرةٍ ، فقال زيد بن اللُّصَيْت : لكأنى لم أسلم إلَّا اليوم ! قد كنت شاكًّا فى محمّد ، وقد أصبحتُ وأنا فيه ذو بَصيرةٍ ، وأشهد أنَّه رسول الله ! فزعم الناس أنَّه تاب ، وكان خارجة بن زيد بن ثابت يُنكر توبته ويقول : لم يزل فَسْلاً[2] حتى مات .

(١) يجأه : أى يضربه . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٩٤) .
(٢) الفسل من الرجال : الرذل . (الصحاح ، ص ١٧٩٠) .

فلمّا كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بوادى المُشَقَّق[١] سمع حادياً فى جوف الليل فقال : أسرعوا بنا نلحقْه ! ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : ممّن الحادى ، منكم أو من غيركم ؟ قالوا : بلى ، من غيرنا . قال : فأدركه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإذا جَماعةٌ ، فقال : ممّن القوم ؟ قالوا : من مُضَر . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : وأنا من مُضَر . فانتسب حتّى بلغ مُضَر . قال القوم : نحن أوّل مَن حَدَا بالإبل . فقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : وكيف ذلك ؟ قالوا : بلى ، إنَّ أهل الجاهليّة كان يُغير بعضُهم على بعض ، فأُغير على رجلٍ منهم ومعه غلامٌ له ، فَنَدّت إبلهُ فأَمر غلامَه أن يجمعها ، فقال : لا أستطيع ! فضرب يدَه بعَصاً ، فجعل الغلام يقول : وايَداه ! وايَداه ! وتجتمع الإبلُ ، فجعل سيّده يقول : قل هكذا بالإبل ! وجعل النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم يضحك . وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لبلال : ألا أُبشّركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! وهم يسيرون على رواحلهم ، فقال : إنَّ الله أعطانى الكَنْزَين فارسَ والروم ، وأمدّنى بالملوك ملوكِ حِمْيَر ، يُجاهدون فى سبيل الله ويأْكلون فىء الله .

وكان المُغيرة بن شُعْبَة يقول : كنّا بين الحِجْر وتَبوك فذهب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لحاجته ، وكان إذا ذهب أَبْعَد ، وتبعتُه بماءٍ بعد الفَجْر ، فأسفر الناسُ بصلاتهم — وهى صلاة الصبح — حتى خافوا الشمسَ ، فقدَّموا عبدَ الرحمن بن عَوف فصلَّى بهم . فحملتُ مع النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم إداوَةً فيها ماء ، فلمّا فَرَغ صببتُ عليه فغسل وجهَه . ثم أَراد أن يَغسِل ذِراعَيْه فضاق كُمُّ الجُبَّة — وعليه جُبَّة روميّة — فأخرج يدَيْه من تحت

---

(١) المشقق : واد بين المدينة وتبوك . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٣٧٤) .

الجُبَّة فغسلهما ومَسَح خُفَّيْه . وانتهينا إلى عبد الرحمن بن عَوف وقد ركع بالناس ، فسبَّح الناسُ بعبد الرحمن بن عَوف حين رأَوا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى كادوا أن يَفْتَتِنوا ، فجعل عبد الرحمن يُريد أن يَنْكُص وراءه ، فأشار إليه النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن اثبتْ ، فصلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم خَلْفَ عبد الرحمن رَكْعَة ، فلمّا سلَّم عبد الرحمن تواثب الناسُ ، وقام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقضى الرَّكْعَة الباقية ، ثم سلَّم بعد فراغه منها ، ثم قال : أحسنتم ! إنّه لم يُتَوَفَّ نبيٌّ حتى يَؤُمَّه رجلٌ صالحٌ من أُمَّته .

وأتاه يومئذٍ يَعْلَى بن مُنَبِّه بأجيرٍ له ، قد نازع رجلاً من العسكر ، فعضَّه ذلك الرجل ، فانتزع الأَجيرُ يدَه من فِى العاضِّ فانتزع ثَنِيَّته ، فَلَزِمه المجروح فبلغ به النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم . [قال] : وقمت مع أجيرى لأَنظر ما يصنع ، فأُتى بهما النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال : يَعمِد أَحدُكم فيَعَضُّ أخاه كما يَعَضُّ الفَحْل . فأبطل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ما أصاب من ثَنِيَّتَه .

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنّكم سَتَأْتُون غدًا إن شاء الله عينَ تَبوك ، وإنّكم لن تنالوها حتى يَضحَى النهارُ ، فمَن جاءها فلا يَمَسّ من مائها شيئاً حتى آتى . قال مُعاذ بن جَبَل : فجئناها وقد سبق إليها رجلان ، والعين مثل الزّلال تَبِضّ[1] بشىءٍ من ماء ، فسألهما : هل مَسِستُما من مائها شيئاً ؟ قالا : نعم . فسبّهما النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وقال لهما ما شاء الله أن يقول . ثم غَرَفوا بأيديهم قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شَنّ[2] ، ثم غسل

---

(١) بض الماء يبض بضيضاً : أى سال قليلا قليلا . (الصحاح ، ص ١٠٦٦) .

(٢) الشن : القربة الخلقة . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٨٩) .

النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيه وجهَه ويدَيْه ، ثم أعاده فيها ، فجاءت العين بماءٍ كثيرٍ فاستقى النّاس . ثم قال النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : يُوشك يا مُعاذ إن طالت بك حَياةٌ أن تَرَى ما هاهنا قد مُلِئَ جِناناً ! قالوا : وكان عبد الله ذو البِجادَيْن[1] من مُزَينة ، وكان يتيمًا لا مالَ له ، قد مات أبوه فلم يُورثه شيئاً ، وكان عمّه مَيِّلاً[2] ، فأخذه وكَفَله حتى كان قد أيسر ، فكانت له إبلٌ وغَنَمٌ ورقيق ، فلمّا قدم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المدينة جعلت نَفْسُه تَتوق إلى الإسلام ، ولا يقدر عليه من عمّه ، حتى مضت السنون والمشاهدُ كلُّها . فانصرف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من فتح مكَّة راجعاً إلى المدينة ، فقال عبد الله لعمّه : يا عمّ ، قد انتظرتُ إسلامك فلا أراك تُريد محمّدًا ، فائذنْ لى فى الإسلام ! فقال : واللهِ ، لئن اتَّبعتَ محمّدًا لا أترك بيدك شيئاً كنت أعطيتكه إلَّا نزعتُه منك حتى ثَوْبَيْك . فقال عبد العُزَّى ، وهو يومئذٍ اسمه : وأنا واللهِ مُتَّبع محمّدًا ومُسلم ، وتاركٌ عبادة الحَجَر والوَثَن ، وهذا ما بيدى فخُذْهُ ! فأخذ كلَّ ما أعطاه ، حتى جرّده من إزاره ، فأتى أمّه فقطعت بِجادًا لها باثنين فائتزر بواحدٍ وارتدى بالآخر ، ثم أقبل إلى المدينة وكان بوَرِقان — جبل من حِمى المدينة — فاضطجع فى المسجد فى السَّحَر ، ثم صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الصبح ، وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يتصفَّح النّاس إذا انصرف من الصبح ، فنظر إليه فأنكره ، فقال : مَن أنت؟ فانتسب له ، فقال : أنت عبد الله ذو البِجادَيْن! ثم قال : انزل منّى قريباً . فكان يكون فى أضيافه ويعلّمه القرآن ، حتى

(١) البجاد : الكساء الغليظ الجافى ، كما ذكر ابن هشام . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٧٢) .

(٢) أى ذا مال . (لسان العرب ، ج ١٤ ، ص ١٥٩) .

قرأَ قُرآناً كثيراً ، والناس يتجهّزون إلى تَبُوك . وكان رجلاً صَيِّتاً ، فكان يقوم في المسجد فيرفع صوته بالقراءة ، فقال عمر : ، يا رسول الله ، ألا تسمعُ إلى هذا الأعرابيّ يرفع صوتَه بالقرآن حتى قد منع الناسَ القراءة ؟ فقال النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : دَعْهُ ، يا عمر ! فإنّه خرج مُهاجرًا إلى الله ورسوله . قال : فلمّا خرجوا إلى تَبوك قال : يا رسول الله ، ادعُ اللهَ لى بالشهادة . قال : أَبلِغنى لِحاءَ[1] سَمُرَة . فأبلغه لِحاءَ سَمُرَة ، فربطها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على عَضُده وقال : اللّهمّ إنّى أُحرّم دمه على الكفّار ! فقال : يا رسول الله ، ليس أردتُ هذا . قال النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم : إنّك إذا خرجتَ غازياً فى سبيل الله فأخذتك الحُمّى فقتلتك فأنت شهيد ، ووَقَصَتْك دابّتُك فأنت شهيد ، لا تُبال[2] بأيّةٍ كان . فلمّا نزلوا تَبوكاً فأقاموا بها أيّاماً تُوفّى عبدُ الله ذو البِجادَيْن. فكان بِلال بن الحارث يقول : حضرتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومع بِلالٍ المؤذّنِ شُعْلَةٌ من نارٍ عند القبر واقفاً بها ، وإذا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى القبر ، وإذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما يُدلّيانه إلى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يقول : أَدنيا إلىّ أخاكما ! فلمّا هيّأه لشِقه قال : اللّهمّ إنّى قد أمسيت عنه راضياً فارضَ عنه . قال : فقال عبد الله بن مَسعود : يا لَيْتَنى كنت صاحبَ اللَّحْد !

وقالوا : أتينا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى مسيره وهو مُردِفٌ سُهَيل ابن بَيضاءَ خلفَه . فقال سُهَيل : ورفع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم صوته فقال : يا سُهَيل ! كلّ ذلك يقول سُهَيل : يا لَبّيْك ! ثلاث مرات . حتى عرف الناس أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُريدهم ؛ فانثنى عليه

---

(١) اللحاء : قشر الشجر . (الصحاح : ص ٢٤٨٠) .

(٢) فى الأصل : « لا تبالى » .

مَن أمامه ، ولحقه مَن خَلْفَه من الناس ، ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : مَن يشهد أَنْ لا إله إلاَّ الله وحده ، لا شريك له ، حرّمه اللهُ على النار .

قالوا : وعارض الناس فى مَسيرهم حَيَّةٌ ، ذُكر من عِظَمها وخَلْقها ، وانصاع الناس عنها . فأقبلت حتى واقفت رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو على راحلته طويلاً ، والناس ينظرون إليها ،ثم التَوَتْ حتى اعتَزَلَت الطريق فقامت قائمةً ؛ فأقبل الناسُ حتى لحقوا برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فقال لهم : هل تدرون مَن هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ! قال : فإنَّ هذا أحد الرَّهْط الثمانية من الجنّ الذين يُريدون أن يسمعوا القرآن ، فرأى عليه من الحقّ - حين ألمّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ببلده - أن يُسلم عليه ، وها هو ذا يُقرئكم السَّلام . فسلِّموا عليه ! فقال الناس جميعاً : وعليه السَّلام ورحمة الله ! يقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أجيبوا[1] عِبادَ الله مَن كانوا .

قالوا : قدم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم تَبوكاً وأقام بها عشرين ليلةً يُصلِّى ركعتين ، وهِرَقْل يومئذٍ بحِمْص . وكان عُقبة بن عامر يقول : خرجنا مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى تَبوك ، حتى إذا كنا منها على لَيْلَةٍ استرقد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فلم يَستَيْقِظْ حتى كانت الشَّمْسُ قِيدَ رُمْح ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يا بِلال ، ألم أقل لك اكلأْ[2] لنا الليلَ ؟ فقال بِلال : ذهب بى النوم ، ذهب بى الذى ذهب بك ! قال : فارتحل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من ذلك المكان غير بعيد ، ثم صلَّى ركعتَيْن قبل الفجر ، ثم صلَّى الفجر ، ثم هَذَب[3] بقيَّةَ يومه

---

(١) فى الأصل : « أحبوا » .
(٢) الكلاءة : الحفظ والحراسة . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٣٠) .
(٣) هذب : أى أسرع السير . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤٥) .

وليلتَه فأصبح بتَبوك ، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أَيّها الناس ! أمّا بعد ، فإنّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ الله ، وأوثقَ العُرَى كلمةُ التّقْوى ، وخيرَ المِلَل مِلّةُ إبراهيم عليه السلام ، وخيرَ السُّنَن سُنَنُ محمّد ، وأشرفَ الحديث ذِكْرُ الله ، وأحسنَ القَصَص هذا القرآن ، وخيرَ الأُمور عَواقبُها ، وشرَّ الأُمور مُحدَثاتُها ، وأحسنَ الهَدْى هَدْىُ الأَنبياء ، وأشرفَ القَتْل قَتْلُ الشهداء ، وأعمى الضلالة الضلالةُ بعد الهُدى ، وخيرَ الأَعمال ما نفع ، وخيرَ الهَدْى ما اتُّبع ، وشرَّ العمى عمى القلب ؛ واليد العُليا خيرٌ من السُّفلى ، وما قلَّ وكفى خيرٌ ممّا كَثُر وأَلْهَى ، وشرَّ الأُمور المَعْذِرَةُ حين يَحضُر الموت ، وشرَّ الندامة يوم القيامة . ومن الناس من لا يأْتى الجُمُعة إلّا نَزْرًا ، ومنهم مَن لا يذكر الله إلّا هُجْرًا [١] ؛ ومن أَعظم الخطايا اللسان الكَذوب ، وخير الغِنى غنى النفس ، وخير الزاد التّقْوى ، ورأس الحُكْم [٢] مخافة الله ، وخير ما أُلقِى فى القلب اليقينُ ، والارتياب من الكُفْر ، والنِّياحة من عمل الجاهليّة ، والغُلول من جَمْر جهنّم ، والسُّكْر كِنٌّ من النار ، والشِّعر من إبليس ، والخَمْر جِماع الإثم ، والنساء حِبالة الشيطان ، والشباب شُعبة من الجنون ؛ وشرّ المكاسب كَسْب الرِّبا ، وشرّ المأْكل مال اليتيم . والسَّعيد مَن وُعِظ بغيره ، والشّقىّ مَن شَقِى فى بَطْن أُمّه ، وإنما يَصير أَحَدُكم إلى موضع أربعة أَذْرُع ؛ والأَمر إلى آخره ، ومِلاك العمل خَواتمه ، والرِّبا ربا الكَذِب . وكلّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وسِباب المُؤمن فُسوقٌ ، وقَتْل المؤمن كُفْرٌ ، وأَكل لحمه من مَعصية الله ، وحُرمة ماله كحُرمة دمه . ومَن يتألّ [٣] على الله يُكذّبْه ، ومَن يَعْفُ يَعْفُ الله عنه ، ومَن يَكْظِم الغَيْظ

---

(١) هو الخنا والقبيح من القول . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٢٤٠) .
(٢) هكذا فى الأصل ، وهو والحكمة بمعنى . (النهاية ، ج ١ ، ص ٣٤٦) .
(٣) أى من حكم عليه وحلف . (النهاية ، ج ١ ، ص ٣٩) .

يَأْجُرْه الله ، ومَن يصبر على الرَّزيّة يُعوّضه الله، ومَن يتبع السُّمعة يُسمِّع الله به ، ومَن يصبرْ يُضاعفِ الله له ، ومَن يَعْصِ الله يُعذِّبْه الله . اللَّهمَّ اغفرْ لى ولأُمّتى ، اللَّهمَّ اغفرْ لى ولأُمّتى ، أستغفر الله لى ولكم .

وكان رجلٌ من بنى عُذْرَة يقال له عَدِىّ يقول : جئت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بتَبوك فرأيته على ناقةٍ حمراءَ يطوف على الناس يقول : أيّها الناس ، يد الله فوقَ يد المُعطِى ، ويد المُعطِى الوُسطى ، ويد المُعطَى السُّفلى . أيّها الناس ، اقنعوا ولو بِحَزْم الحَطَب ! اللَّهمّ ، هل بلَّغتُ ؟ ثلاثاً . فقلت : يا رسول الله ، كان لى امرأتان[1] اقتتلتا فرميتُ فأُصبت إحداهما[2] فرُمِى فى رَمْيَتى — يعنى ماتت ، كما تقول العرب : رُمِى فى جنازته . فقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : تَعْقِلُها ولا تَرِثُها .

وجلس رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى موضع مسجده بتَبوك ، فنظر نحو اليمين ورفع يديه يُشير إلى أهل اليمن فقال : الإيمان يَمانٍ ! ونظر نحو المَشرق وأشار بيده : إنَّ الجَفَاءَ وغِلَظَ القلوب فى الفَدّادين[3] أهلِ الوَبَر من نحو المَشرق حيث يُطْلِع الشيطان قَرْنَيْه .

وقال رجلٌ من بنى سعد [بن] هُذَيم : جئت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو جالسٌ بتَبوك — فى نَفَرٍ من أصحابه ، هو سابعهم — فوقفت فسلَّمت ، فقال : اجلس ! فقلت : يا رسول الله ، أشهد ألاَّ إله إلا الله وأنَّك رسول الله ! قال : أفلح وَجْهُك ! ثم قال : يا بِلال ، أطْعِمنا !

---

(١) فى الأصل : « يا رسول الله امرأتين اقتتلتا » . وما أثبتناه من ابن الأثير . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٦) .

(٢) فى الأصل : « أحدهما » .

(٣) الفدادون : الذين تعلو أصواتهم فى حروثهم ومواشيهم ، واحدهم فداد . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٨٧) .

قال : فبسط بِلالٌ نِطْعاً[١] ، ثم جعل يُخرج من حَميتٍ[٢] له ، فأخرج خَرجاتٍ بيده من تَمْرٍ معجونٍ بالسَّمْن والأَقِط ، ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : كُلوا ! فأكلنا حتى شَبِعنا فقلت : يا رسول الله ، إن كنتُ لآكلُ هذا وَحْدى ! قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : الكافر يأكلُ فى سبعة أمْعاءٍ[٣] والمؤمن يأكل فى مِعىً واحد . قال : ثم جئته من الغد مُتحيِّناً لغَدائه لأزداد فى الإسلام يقيناً ، فإذا عشرةُ نفرٍ حوله . قال : فقال : هاتِ أطعِمنا يا بِلال . قال : فجعل يُخرج من جِراب تَمْرٍ بكفِّه قبضةً قبضةً ، فقال : أخرِجْ ولا تَخَفْ من ذى العَرْش إقْتارًا ! فجاء بالجِراب فنَثَره . قال : فحَزَرْتُه مُدَّيْن . قال : فوضع النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم يده على التمر ، ثم قال : كُلوا باسم الله ! فأكل القوم وأكلتُ معهم ، وكنت صاحبَ تمر . قال : فأكلت حتى ما أجد له مَسْلَكاً . قال : وبقى على النِّطْع مثلُ الذى جاء به بِلالٌ ، كأنَّا لم نأكل منه تمرةً واحدةً . قال : ثم عدتُ من الغد . قال : وعاد نفرٌ حتى باتوا ، فكانوا عشرة أو يزيدون رجلاً أو رجلَيْن ، فقال : يا بِلالُ ، أطعمنا ! فجاء بذلك الجِراب بعينه أعرفه فنَثَره ، ووضع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يده عليه فقال : كُلوا باسم الله ، فأكلنا حتى نَهِلنا ، ثم رفع مثل الذى صبَّ ، ففعل مثل ذلك ثلاثةَ أيّام .

قال : وكان هِرَقْل قد بعث رجلاً من غَسّان إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فينظر إلى صِفَتِه وإلى عَلاماته ، إلى حُمْرَةٍ فى عَيْنيه ، وإلى خاتم النبوّة بين كتفَيْه ، وسأل فإذا هو لا يقبل الصدقة ، فوعَى أشياءَ من حال النبىّ

---

(١) النطع : بساط من الأديم . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٨٩) .
(٢) الحميت : الزق الذى لا شعر عليه ، وهو للسمن . (الصحاح ، ص ٢٤٧) .
(٣) الأمعاء ، جمع معى ، وهى المصارين . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٠١) .

صلّى الله عليه وسلّم ، ثم انصرف إلى هِرَقْل فذكر له ذلك ، فدعا قومه إلى التصديق به ؛ فأَبَوْا حتى خافهم على مُلْكه ، وهو فى موضعه لم يتحرّك ولم يزحف . وكان الذى خُبِّر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم - من بعثته أصحابَه وَدُنُوِّه إلى أدنى الشام - باطلاً ، ولم يُرد ذلك ولم يَهُمّ به . وشاور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى التقدّم ، فقال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : إن كنتَ أُمِرتَ بالمسير فسِرْ ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لو أُمِرتُ به ما استشرتكم فيه ! قال : يا رسول الله ، فإنّ للروم جُموعاً كثيرةً ، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام ، وقد دنوتَ منهم حيث تَرَى ، وقد أفزعهم دُنُوّك ، فلو رجعتَ هذه السَّنَة حتى تَرَى ، أو يُحدِث الله عزّ وجلّ لك فى ذلك أمرًا .

قالوا : وهاجت ريحٌ شديدةٌ بتَبوك ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هذا لِمَوْت مُنافقٍ عظيمِ النِّفاق . قال : فقدموا المدينة فوجدوا مُنافقاً قد مات عظيمَ النِّفاق .

قال : وأُتِى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بجُبْنَةٍ بتَبوك فقالوا : يا رسول الله ، إنّ هذا طعامٌ تَصْنَعه فارس ، وإنّا نخشى أن يكون فيه مَيْتَة . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ضعوا فيه السكّين واذكروا اسم الله !

قال : وأهدى رجلٌ من قُضاعة إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فَرَساً ، فأعطاه رجلاً من الأنصار ، وأمره أن يَربطه حِيالَه استئناساً بصَهيله ، فلم يزل كذلك حتى قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة ففَقَد صهيلَ الفَرَس فسأل عنه صاحبَه فقال : خَصَيْتُهُ يا رسول الله ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : فإنّ الخيل فى نَواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة ، اتّخذوا من نَسلها

وباهوا بصهيلها المشركين ، أعرافها أدفاؤها[١] ، وأذنابها مَذابُّها . والذى نفسى بيده ، إنَّ الشهداء لَيأْتون يوم القيامة بأَسيافهم على عواتقهم ، لا يمرّون بأحدٍ من الأنبياء إلّا تنحّى عنهم ، حتّى إنّهم لَيمرّون بإبراهيم الخليل خليل الرحمن فيتنحّى لهم حتّى يجلسوا على منابرَ من نور . يقول الناس : هؤلاء الذين أُهَريقوا دماءهم لربّ العالمين ، فيكون كذلك حتّى يقضى الله عزّ وجلّ بين عباده !

قالوا : وبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتَبوك قام إلى فرسه الظَّرِب فعلّق عليه شِعارَه[٢] وجعل يمسح ظهرَه بردائه . قيل : يا رسول الله ، تمسح ظهرَه برداءك ؟ قال : نعم ، وما يُدريك ؟ لعلّ جبريل أمرنى بذلك ، مع أنّى قد بِتُّ الليلة[٣] ، وإنّ الملائكة لتُعاتبنى فى حَسّ[٤] الخيل ومَسْحها . وقال : أخبرنى خليلى جبريل أنّه يُكتَب لى بكلّ حسنة أوفيتُها إيّاه حسنة ، وإنّ ربّى عزّ وجلّ يحطّ عنّى بها سيئة . وما من امرئ من المسلمين يَربِط فَرَساً فى سبيل الله فيُوفيه بعَليفه يلتمس به قُوَّته إلاّ كتب الله له بكلّ حبّةٍ حسنة ، وحطّ عنه بكلّ حبّةٍ سيئة ! قيل : يا رسول الله ، وأىّ الخيل خير ؟ قال : أدهم[٥] ، أقرح ، أرثم ، مُحَجَّل الثلث[٦] ، مُطلق اليمين ، فإن لم

---

(١) الأدفاء : جمع دفء ، وهو ما يستدفأ به من الأوبار والأصواف . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٦) .

(٢) الشعار : ما ولى الجسد من الثياب . (الصحاح ، ص ٦٩٩) .

(٣) فى الأصل : « مع أنى قريب الليلة » ؛ ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٤) الحس : نفض التراب عن الدابة . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٠٦) .

(٥) يقال فرس أدهم إذا اشتدت ورقته . (الصحاح ، ص ١٩٢٤) .

(٦) الخيل الأقرح : هو ما كان فى جبهته قرحة ، بالضم ، وهى بياض يسير فى وجه الفرس دون الغرة ؛ والأرثم : الذى أنفه أبيض وشفته العليا ؛ والمحجل : هو الذى يرتفع البياض فى قوائمه إلى موضع القيد . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ؛ ج ٢ ، ص ٦٥ ؛ ج ١ ، ص ٢٠٤) .

يكن أدهم فكُمَيتٌ على هذه الصفة . قال :وقيل : يارسول الله ، فما فى الصَّوم فى سبيل الله ؟ قال : مَن صام يوماً فى سبيل الله تباعدت منه جهنّم مسيرةَ مائة سنة كَأَغَذِّ السير . ولقد فُضِّل نساء المجاهدين على القاعدين فى الحُرمة كأُمّهاتهم ، وما من أحدٍ من القاعدين يُخالِف إلى امرأةٍ من نساء المجاهدين فيخونه فى أهله إلّا وقف يوم القيامة فيقال له : إنَّ هذا خانك فى أهلك فخذ من عمله ما شئت ؛ فما ظَنُّكم ؟

وكان عبد الله بن عمر أو عمرو بن العاص يُحدّث قال : فَزِع النَاسُ بتَبوك ليلةً ، فخرجتُ فى سِلاحى حتى جلست إلى سالم مولى أبى حُذَيفة وعليه سلاحه ، فقلت : لأقتدينَّ بهذا الرجل الصالح من أهل بدر ! فجلستُ إلى جنبه قريباً من قُبّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علينا مُغضَباً فقال : أيّها الناس ، ما هذه الخِفّة ؟ ما هذا النَّزَق ؟ ألا صنعتم ما صنع هذان الرجلان الصالحان ؟ يعنينى وسالماً مولى أبى حُذَيفة .

قالوا : ولمّا انتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى تَبوك وضع حَجَرًا قِبلةَ مسجد تَبوك بيده وما يلى الحَجَر ، ثم صلّى الظُّهر بالناس ، ثم أقبل عليهم فقال : ما هاهنا شام ، وما هاهنا يمن .

وكان عبد الله بن عمر يقول : كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتَبوك ، فقام يُصلى من الليل ، وكان يُكثر التهجّد من الليل ، ولا يقوم إلاّ استاك ، وكان إذا قام يُصلّى صلّى بفناء خيمته ، فيقوم ناس من المسلمين فيحرسونه . فصلّى ليلة من تلك الليالى ، فلمّا فرغ أقبل على مَن كان عنده فقال : أُعطيتُ خمساً ما أُعطيهنّ أحدٌ قبلى : بُعِثت إلى الناس كافّةً ، وإنما كان النبىّ يُبعَث إلى قومه ، وجُعِلتْ لى الأرضُ مسجدًا وطَهورًا ، أينما أدركتنى

الصلاة تيمّمت وصلّيت ، وكان مَن قبلى يُعظِمون ذلك ولا يُصلُّون إلّا فى كنائسهم والبِيَع ، وأُحِلَّت لى الغنائم آ كلُها ، وكان مَن كان قبلى يُحرّمونها ، والخامسة هى ما هى ، هى ما هى ، هى ما هى ! ثلاثاً . قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : قيل لى : سَل ، فكلّ نبىٍّ قد سأَل ، فهى لكم ولمَن شهد أن لا إله إلّا الله .

ذكر ما نزل من القرآن فى غزوة تَبوك

قوله عزّ وجلّ : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مالَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فى سَبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ . . ﴾[1] الآية . قالوا : غزا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى حرٍّ شديدٍ وجَهْدٍ من الناس ، وحين طابت الثمار واشتُهيت الظلال ، فأَبطأَ الناسُ فكشفت منهم « براءة » ما كان مستورًا ، وأَبدت أَضغانهم ونفاق مَن نافق منهم . يقول : ﴿ إِلّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَليماً ﴾[2] إلّا تخرجوا مع النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ ﴿ ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ . . ﴾[3] الآية . قال : كان قوم من أَصحاب النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم خرجوا إلى البدو يُفقِّهون قومَهم ، فقال المُنافقون : قد بقِى ناسٌ من أَصحاب محمّد فى البوادى . وقالوا : هلك أَصحاب البوادى ! فنزلت : ﴿ وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً ﴾[4] . ﴿ انْفِرُوا خِفافاً وثِقالاً ﴾[5] يقول : نشاطاً وغير نشاط . ويقال : الخِفاف : الشباب ، والثِّقال : الكهول ،

(١) سورة ٩ التوبة ٣٨
(٢) سورة ٩ التوبة ٣٩
(٣) سورة ٩ التوبة ١٢٠
(٤) سورة ٩ التوبة ١٢٢
(٥) سورة ٩ التوبة ٤١

﴿وجاهِدُوا بأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ في سَبيلِ اللهِ﴾ يقول: أنفقوا أموالكم فى غزوكم ؛ وجاهدوا ، يقول : قاتلوا ؛ ﴿وَلٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾[١] عشرين ليلة ؛ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ﴾ يعنى المُنافقين ؛ ﴿لَوْ كان عَرَضاً قَريباً﴾ يقول: غنيمة قريبة ؛ ﴿وَسَفَرًا قاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ﴾ يعنى حين خرج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إلى تَبوك جعلوا يعتذرون بالعُسْرَة والمرض ؛ ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يعنى فى الآخرة ؛ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ﴾ أنهم أقوياء أصحّاء . وكان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يقبل عذرهم ويأْذن لهم. قال الله عزّ وجلّ : ﴿عَفا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾[٢] حتى تبلوَهم بالسفر وتَعلم مَن هو صادقٌ ومَن هو كاذب . ﴿لايَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٣] وصف المؤمنين الّذين أنفقوا أموالهم فى تلك الغزوة ، وكانت تُسمّى غزوة العُسرة . ﴿إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[٤] يعنى المُنافقين . ثم ذكر المُنافقين فقال : ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾[٥] من قبل خروجك إلى تَبوك وظهور أمرك يا محمّد ؛ ﴿وَهُمْ كارِهُونَ﴾ لظهورك واتباع من اتّبعك من المسلمين . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ولا تَفْتِنِّي﴾[٦] نزلت هذه فى الجَدّ بن قيس ، وكان أكثر بنى سَلِمَة مالاً ، وأعدّهم عدّة فى الظَّهْر ، وكان رجلاً مُعجَباً بالنساء ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ألا تغزو بنى الأَصفر ؟

(١) سورة ٩ التوبة ٤٢
(٢) سورة ٩ التوبة ٤٣
(٣) سورة ٩ التوبة ٤٤
(٤) سورة ٩ التوبة ٤٥
(٥) سورة ٩ التوبة ٤٨
(٦) سورة ٩ التوبة ٤٩

عسى أن تحتقب من بنات الأصفر . فقال : يا محمّد ، قد علم قومي أنه ليس أحدٌ أعجب بالنساء منّي ، فلا تفتنّي بهنّ ! يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾[١] لتخلّفه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾[٢] يقول : غنيمة وسلامة ، الذين تخلّفوا واستأذنوك ؛ ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ البلاء والشدّة ؛ ﴿ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ . ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾[٣] يقول : إلّا ما كان في أُمّ الكتاب . ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾[٤] الغنيمة أو الشهادة . ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾[٥] كان رجال من المُنافقين من ذي الطَّوْل يُظهرون النفقة إذا رآهم الناس ليبلغ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم ، ويدرأون بذلك عن أنفسهم القتل . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ ﴾[٦] إلى قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[٧] يقول : يكون عليهم بيّنة لأن ما أكلوا منها أكلوه على نِفاق ، وما أنفقوا فإنما هو رياء . ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾[٨] وهم البكّاؤون وهم سبعة ؛ أبو ليلى المازنيّ ، وسَلَمَة بن صَخر المازنيّ ، وثعلبة بن غَنَمَة الأسلميّ ، وعُلْبَة بن زيد الحارثيّ ، والعِرْباض بن سارية السُّلَميّ من بني سُلَيم ، وعبد الله بن عمرو المُزَنيّ ، وسالم بن عُمَير العَمْريّ ، ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾[٩] يعني مع النساء ، الجَدّ بن قيس . ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ

(١) سورة ٩ التوبة ٤٩
(٢) سورة ٩ التوبة ٥٠
(٣) سورة ٩ التوبة ٥١
(٤) سورة ٩ التوبة ٥٢
(٥) سورة ٩ التوبة ٥٣
(٦) سورة ٩ التوبة ٥٤
(٧) سورة ٩ التوبة ٥٥
(٨) سورة ٩ التوبة ٩٢
(٩) سورة ٩ التوبة ٩٣

الأَعْرابِ مُنافِقُونَ﴾[١] كان رجال من العرب منهم عُيَيْنَة بن حِصْن وقومه معه يُرضون أصحابَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويُرونهم أنّهم معهم ويُرضون قومَهم . ﴿وَالسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأَنْصارِ﴾[٢] مَن صلّى القِبلتَيْن .

غزوة أُكَيْدِر بن عبد المَلِك بدُومة الجَنْدَل

في رجب سنة تسع ، وهي على عشرة أميال من المدينة .

قال : حدّثني ابن أبي حَبيبة ، عن داود بن الحُصَين ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عبّاس رضي الله عنه ، ومحمّد بن صالح ، عن عاصم بن عمر بن قَتادة ، ومُعاذ بن محمّد ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طَلحة ، وإسماعيل ابن إبراهيم ، عن موسى بن عُقبة ، وكلٌّ قد حدّثني من هذا الحديث بطائفة ، وعِماده حديث ابن أبي حَبيبة .

قالوا : بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد من تَبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أُكَيْدِر بن عبد المَلِك بدُومة الجَنْدَل — وكان أُكَيْدِر من كِنْدَة قد ملكهم وكان نصرانيًّا — فقال خالد : يا رسول الله ، كيفَ لي به وَسْط بلاد كَلْب ، وإنما أنا في أُناسٍ يسير ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ستَجِده يصيد البقر فتأْخذه . قال : فخرج خالد حتى إذا كان من حِصْنه بمَنظر العَين في ليلةٍ مُقْمِرةٍ صائفة ، وهو على سطحٍ له ومعه امرأته الرَّباب بنت أُنَيف بن عامر من كِنْدَة ، وصعد على ظهر الحِصْن من الحرّ ، وقَيْنَتُه تُغنّيه ، ثم دعا بشرابٍ فشرب . فأَقبلت البقر

(١) سورة ٩ التوبة ١٠١

(٢) سورة ٩ التوبة ١٠٠

تَحُكُّ بقُرونِها بابَ الحِصْن ، فأَقبلت امرأته الرَّباب فأَشرفت على الحِصْن فرأَت البقر فقالت : ما رأَيتُ كاللَّيلة فى اللَّحْم ! هل رأَيتَ مثل هذا قَطُّ ؟ قال : لا ! ثم قالت[١] : مَن يترك هذا ؟ قال : لا أَحد ! قال : يقول أُكَيْدِر : واللهِ ، ما رأَيتُ جاءتنا ليلةً بقرٌ غير تلك الليلة ، ولقد كنت أُضمِّر لها الخيلَ إذا أَردت أَخْذَها شهرًا أَو أَكثر ، ثم أَركبُ بالرجال وبالآلة .

فنزل فأُمر بفَرَسِه فأُسرِج ، وأَمر بخيلٍ فأُسرِجت ، ورَكِب معه نفرٌ من أَهل بيته ، معه أَخوه حَسّان ومملوكان ، فخرجوا من حِصْنهم بمَطارِدهم[٢] ، فلمّا فَصَلوا من الحِصْن ، وخيل خالد تنظرهم لا يَصهَل منها فَرَسٌ ولا يتحرّك ، فساعةَ فَصَل أَخذته الخيل ، فاستأْسر أُكَيْدِر وامتنع حَسّان ، فقاتل حتى قُتِل ، وهرب المملوكان ومَن كان معه من أَهل بيته فدخلوا الحِصْن . وكان على حَسّان قَباءُ دِيباجٍ مُخَوَّصٌ بالذهب ، فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مع عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرىّ حتى قدم عليهم فأَخبرهم بأَخْذهم أُكَيْدِر .

قال أَنَس بن مالك ، وجابر بن عبد الله : رأَينا قَباءَ حسّان أَخى أُكَيْدِر حين قُدِم به إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فجعل المسلمون يتلمّسونه بأَيديهم ويتعجّبون منه ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أَتعجبون من هذا؟ فوالذى نفسى بيده لَمناديل سعد بن مُعاذ فى الجنَّة أَحسَنُ من هذا !

وقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لخالد بن الوليد : إن ظَفِرتَ بأُكَيْدِر فلاتقتله وائتِ به إلىّ ، فإن أَبَى فاقتلوه ، فطاوعهم . فقال بُجَير بن

---

(١) فى الأصل : « ثم قال » .

(٢) المطارد : جمع المطرد ، وزن منبر ، وهو رمح قصير يطرد به ، وقيل يطرد به الوحش . (لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٢٥٧) .

بُجَرَة من طيّئ ، ذكر قول النبيّ صلَّى الله عليه وسلّم لخالد « إنَّك تجده يصيد البقر » وما صنع البقر تلك الليلة بباب الحصن تصديقُ قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال شعرًا :

تَبارَكَ سائقُ البقراتِ إنِّى رأيتُ الله يَهدِى كلّ هادِ
ومَن يَكُ عاندًا عن ذى تبوكٍ فإنّا قد أُمِرنا بالجهادِ

وقال خالد بن الوليد لأُكَيْدِر : هل لك أن أُجيرك من القتل حتى آتى بك رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على أن تفتح لى دُومة ؟ قال : نعم ، ذلك لك . فلمّا صالح خالد أُكَيْدِر ، وأُكَيْدِر فى وَثاق ، انطلق به خالد حتى أدناه من باب الحِصْن ونادى أُكَيْدِر أهله : افتحوا بابَ الحِصْن ! فرأوا ذلك ، فأَبى عليهم مُضادٌ[1] أخو أُكَيْدِر ، فقال أُكَيْدِر لخالد : تعلم واللهِ لا يفتحون لى ما رأونى فى وَثاق ، فخلّ عنّى فلك الله والأَمانة أن أفتح لك الحِصْن إن أنت صالحتَنى على أهله . قال خالد : فإنِّى أُصالحك . فقال أُكَيْدِر : إن شئتَ حَكَّمتُك وإن شئتَ حَكِّمنى . قال خالد : بل ، نَقبَل منك ما أَعطيتَ . فصالحه على ألفَىْ بعير ، وثمانمائة رأْس[2] ، وأربعمائة دِرْع ، وأربعمائة رمح ، على أن ينطلق به وأخيه إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيحكم فيهما حُكْمَه . فلمّا قاضاه خالد على ذلك خلَّى سبيلَه ففتح الحِصْن ، فدخله خالد وأَوثق أخاهُ مُضادًا أخا أُكَيْدِر ، وأخذ ما صالح عليه من الإبل والرقيق والسِّلاح ، ثم خرج قافلاً إلى المدينة ، ومعه أُكَيْدِر ومُضاد . فلما قدم بأُكَيْدِر على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صالحه على الجِزْيَة وحَقَن دمه ودم

(١) هكذا فى الأصل . وفى الزرقانى أيضاً يروى عن الواقدى . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٩٢) . وفى أكثر أصول السيرة : « مصاد » .
(٢) هكذا فى الأصل . وفى الزرقانى : « فرس » . (شرح على المواهب اللدنية ، ج ٣ ، ص ٩٢) .

أخيه وخلّى سبيلَهما . وكتب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم ، وختمه يومئذٍ بظُفْره .

قالوا : وأقبل واثِلة بن الأسقع اللَّيْثِيّ ، وكان ينزل ناحية المدينة ، حتى أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فصلّى معه الصبح ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا صلّى الصبح انصرف فيتصفّح وجوه أصحابه ينظر إليهم . فلمّا دنا من واثلة أنكره فقال : مَن أنت ؟ فأخبره فقال : ما جاء بك ؟ قال : أُبايع . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : فيما أطَقْتَ ؟ قال واثلة : نعم . فبايعه — وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ يتجهّز إلى تَبوك — فخرج الرجل إلى أهله ، فلقى أباه الأسقع فلمّا رأى حاله قال : قد فعلتَها ! قال واثلة : نعم . قال أبوه : واللهِ لا أُكلّمك أبدًا . فأتى عمّه ، وهو مُولٍّ ظهرَه الشمسَ ، فسلّم عليه فقال : قد فعلتَها ! قال : نعم . ولامه لائمةً أيسرَ من لائمة أبيه وقال : لم يكن ينبغى لك أن تسبقنا بأمرٍ . فسمعت أُخت واثلة كلامَه فخرجت إليه فسلّمت عليه بتحيّة الإسلام ، فقال واثلة : أنىّ لكِ هذا يا أُخَيّة ؟ قالت : سمعت كلامك وكلام عمّك . وكان واثلة ذكر الإسلام ووَصَفَه لعمّه ، فأعجب أُختَه الإسلامُ فأسلمت ، فقال واثلة : لقد أراد اللهُ بكِ أُخَيّة خيرًا ! جهّزى أخاكِ جَهازَ غازٍ ، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على جَناح سفر . فأعطته مُدًّا من دقيقٍ فعجنَ الدقيق فى الدلو ، وأعطته تمرًا فأخذه . وأقبل إلى المدينة فوجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد تحمّل إلى تَبوك ، وبقى غُيرات من الناس وهم على الشُّخوص(١) — وإنما رحل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل ذلك بيومين — فجعل يُنادى

(١) شخوص المسافر : خروجه عن منزله . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٠٨) .

بسُوق بنى قَيْنُقاع : مَن يحملنى وله سَهْمى ! قال : وكنت رجلاً لا رِجْلَةَ لى ، فدعانى كعب بن عُجْرَة فقال : أنا أحملك عُقْبَةً بالليل وعُقْبَةً بالنهار ، ويدك أُسوة يدى ولى سهمك ! قال واثلة : نعم . فقال واثلة بعد ذلك : جزاه اللهُ خيرًا ! لقد كان يحملنى عُقْبَتى ، ويَزيدنى وآكلُ معه ويرفع لى ، حتى إذا بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِر الكِنْدىّ بدُومة الجَنْدَل خرج كعب بن عُجْرَة فى جيش خالد بن الوليد ، وخرجتُ معه فأصبنا فيها كثيرًا ، فقسمه خالد بيننا ، فأصابنى ستٌّ قَلائص[1] ، فأقبلتُ أسوقها حتى جئت بها خيمةَ كعب بن عُجْرَة فقلت : اخرجْ رحمك الله فانظرْ إلى قلائصك فاقبضْها ! فخرج إلىّ وهو يتبسّم ويقول : بارك الله لك فيها ! ما حملتك وأنا أُريد أن آخذ منك شيئاً .

وكان أبو سَعيد الخُدرىّ رحمه الله يُحدّث يقول : أسرنا أُكَيْدِر فأصابنى من السلاح دِرْعٌ وبَيضةٌ ورمح ، وأصابنى عشر من الإبل .

وكان بِلال بن الحارث المُزَنىّ يُحدّث يقول : أسرنا أُكَيْدِر وأخاه ، فقدمنا بهما على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وعُزِل يومئذٍ للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم صَفِىٌّ خالصٌ قبل أن يُقْسَم شىءٌ من الفىء ، ثم خمّس الغنائم فكان للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم الخُمس . وكان عبد الله بن عمرو المُزَنىّ يقول : كنا أربعين رجلاً من مُزَينة مع خالد بن الوليد ، وكانت سُهماننا خمس فرائض ، كلّ رجلٍ مع سلاح ، يُقْسَم علينا درعٌ ورماح .

قال : حدّثنى يعقوب بن محمّد الظَّفَرىّ ، عن عاصم بن عمر بن

(١) القلائص : جمع قلوص وهى الشابة من الإبل . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٣١٤).

قَتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه ، قال : رأيت أُكَيْدِر حين قدم به خالد وعليه صَليبٌ من ذهب وعليه الدِّيباج ظاهر .

قال الواقدىّ : حدّثنى شيخٌ من أهل دُومة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتب له هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ من محمّد رسولِ الله لأُكَيْدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأَنداد والأَصنام ، مع خالد ابن الوليد سيفِ الله ، فى دُومة الجَنْدَل وأَكنافها . وإنّ لنا الضاحية[١] من الضَّحْل ، والبُور ، والمَعامِى ، وأَغْفال الأَرض ، والحَلْقَة ، والسلاح ، والحافِر ، والحِصْن ، ولكم الضامِنة من النَّخْل ، والمَعين من المَعْمور بعد الخُمُس ، لا تُعْدَل سارِحَتُكم ولا تُعَدّ فاردَتُكم ، ولا يُحْظَر عليكم النَّبات ، ولا يُؤخذ منكم عُشْر البَتات[٢] ، تُقيمون الصلاةَ لوقتها ، وتُؤتون الزكاة لحقِّها . عليكم بذلك العهد والميثاق ، ولكم بذلك الصِّدق والوَفاء . شَهِد الله ومَن حضر من المسلمين .

قال : الضَّحْل : الذى فيه الماء القليل ؛ والبُور : ما ليس فيه زرْع ؛ والمَعامِى : ما ليست له حُدودٌ مَعلومة ؛ وأَغفال الأَرض : مِياهٌ ؛ ولا تُعَدُّ فاردَتُكم : يقول لا يُعَدّ ما يبلغ أربعين شاة ؛ والحافر : الخيل ؛ والمَعين : الماء الظاهر ؛ والضامنة من النَّخْل : النَّبات من النَّخْل التى قد نبتت عروقها فى الأَرض ؛ ولا يُحْظَر عليكم النَّبات : ولا تُمْنَعوا أن تزرعوه .

قالوا : وأهدى له هَديّةً فيها كِسْوَة ، وكتب له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتاباً آمَنَه فيه وفيه الصلح ، وآمن أخاه ووضع عليه فيه الجزْيَة ، فلم يَكُ فى يد النبىّ صلّى الله عليه وسلّم خاتمٌ فختَمه بظُفْره .

---

(١) الضاحية : أطراف الأرض ، كما ذكر السهيلى . (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٣٢٠) .
(٢) البتات : المتاع ليس عليه زكاة . (لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٣١٢) .

وكانت دُومة ، وأَيْلَة [١] ، وتيماء [٢] ، قد خافوا النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم لمّا رأوا العرب قد أسلمت . وقدم يُحَنَّة بن رُؤْبَة على النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وكان ملك أَيْلَةَ ، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كما بعث إلى أُكَيْدِر . وأقبل معه أهل جَرْباء وأَذْرُح [٣] ، فأَتَوْه فصالحهم فقطع عليهم الجِزْيَة ، جِزْيَة مَعلومة ، وكتب لهم كتاباً : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أَمَنَةٌ من الله ومحمّدٍ النبيّ رسولِ الله ليُحَنَّة بن رُؤْبَة وأهل أَيْلَة ، لسُفُنهم وسائرهم فى البرّ والبحر ، لهم ذِمة الله وذِمّة محمّدٍ رسولِ الله ، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليَمَن وأهل البحر . ومَن أحدثَ حَدَثاً فإنّه لا يَحول مالُه دون نَفْسه ، وإنّه طيّبٌ لمَن أخذه من الناس ، وإنّه لايحلّ أن يُمْنَعوا ماءً يُريدونه ، ولا طريقاً يُريدونه من برٍّ أو بحر . هذا كتاب جُهَيم بن الصَّلْت وشُرَحبيل بن حَسَنَة بإذن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . ووضع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الجِزْيَة على أهل أَيْلَة ، ثلاثمائة دينار كلّ سنة ، وكانوا ثلاثمائة رجل .

قال : حدّثنى يعقوب بن محمّد الظَّفَرىّ ، عن عاصم بن عمر بن قَتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه ، قال : رأيتُ يُحَنَّة بن رُؤْبَة يوم أُتِىَ به إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم عليه صليبٌ من ذَهَب ، وهو مَعقود الناصية ، فلمّا رأى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم كَفَّرَ [٤] وأَوْمَأَ برَأْسِه ، فأَوْمَأَ إليه النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : ارفعْ رأسك ! وصالحه يومئذٍ ، وكساه رسولُ الله صلَّى

---

(١) أيلة : على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام . (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٩١) .

(٢) تيماء : على ثمانى مراحل من المدينة بينها وبين الشام . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٢٧٢) .

(٣) جرباء وأذرح : قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام . (معجم ما استعجم ، ص ٨٤) .

(٤) التكفير : إيماء الذمى برأسه ، والتكفير لأهل الكتاب أن يطأطىء أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا ، والتكفير أن يضع يده أو يديه على صدره. (لسان العرب ج ٦ ، ص ٤٦٦) .

الله عليه وسلّم بُرْدًا يُمْنَةً[١] ؛ وأمر له بمنزلٍ عند بِلال .

وكتب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم لأهل جَرْباء وأَذْرُح هذا الكتاب : من محمّدٍ النبيِّ رسولِ الله لأهل أَذْرُح ؛ أنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد ، وأنَّ عليهم مائةَ دينارٍ فى كلّ رجبٍ وافيةً طيّبة ، والله كفيلٌ عليهم .

قال الواقدىّ : نسختُ كتاب أَذْرُح وإذا فيه : بسم اللهِ الرحمن الرحيم ، من محمّدٍ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لأهل أَذْرُح ؛ أنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد ، وأنَّ عليهم مائةَ دينارٍ فى كلّ رجبٍ وافيةً طيّبة . والله كفيلٌ عليهم بالنُّصْح والإحسان للمسلمين ، ومَن لَجَأَ [إليهم][٢] من المسلمين من المَخافة والتّعزير إذا خَشوا على المسلمين وهم آمنون ، حتى يُحدث إليهم محمّدٌ قبل خروجه .

قالوا : وكتب لأهلِ مَقْنا[٣] أنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد ، وأنّ عليهم رُبْعَ غُزولهم ورُبْع ثِمارهم .

وكان عُبَيد بن ياسر بن نُمَير أحد سعد الله[٤] ، ورجلٌ من جُذام أحد بنى وائل ، قدِما على النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بتَبوك ، فأسلما وأعطاهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم رُبْعَ مَقْنا ممّا يخرج من البحر ومن الثّمر من نخلها ، ورُبْع المَغزل . وكان عُبَيد بن ياسر فارساً ، وكان الجُذامىّ راجلاً ، فأعطى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فرسَ عُبَيد بن ياسر مائة ضَفيرة — والضّفيرة : الحُلّة — فلم يزل يُجرَى ذلك على بنى سعد ، وبنى وائل إلى يوم الناس هذا .

---

(١) اليمنة : بردة من برود اليمن . (الصحاح ، ص ٢٢٢١) .

(٢) الزيادة من مجموعة الوثائق السياسية (ص ٥٦) .

(٣) المقنا : قرب أيلة . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ١٢٨) .

(٤) فى الأصل : « أحد سعا الله عز وجل » .

ثم إنَّ عُبَيد بن ياسر قدم مَقْنا وبها يهوديّة ، وكانت اليهوديّة تَقوم على فرسه ، فأعطاها ستّين ضَفيرة من ضفائر فرسه ، فلم يزل يُجرَى على اليهوديّة حتى نُزِعت آخر زمان بنى أُمَيّة ، فلم تُرَدّ إليها ولا إلى ولد عُبَيد . وكان عُبَيد قد أهدى للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فرساً عَتيقاً يقال له مُراوِح وقال : يا رسول الله ، سابِقْ ! فأجرى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الخيلَ بتَبوك فسَبَق الفرسُ ، فأخذه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منه ، فسأله المِقْدادُ بن عمرو الفرس . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أين سَبْحَة ؟ فرسٌ للمِقْداد قد شهد عليها بدرًا . قال : يا رسول الله عندى ، وقد كَبِرت وأنا أضِنّ بها للمَواطن التى شهدتُ عليها ؛ وقد خلّفتُها لبُعد هذا السفر وشدّة الحرّ عليها ، فأردتُ أُحمّل هذا الفرس المُعرِق عليها فتأْتينى بمُهْر . قال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : فذاك إذًا ! فقبضه المقْداد ، فخَبِر منه صدقاً ، ثم حمّله على سَبْحَة فنتجت له مُهْرًا كان سابقاً يقال له الذَّيّال ، سبق فى عهد عمر وعُثمان ، فابتاعه منه عُثمان بثلاثين ألفاً .

قالوا : ومرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتَبوك يُريد حاجته ، فرأى ناساً مجتمعين فقال : ما لهم ؟ قِيل : يا رسول الله ، بعيرٌ لِرافع بن مَكيث الجُهَنىّ ، نحره فأخذ منه حاجته ، فخلّى بين الناس وبينه ، فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يردّ رافع ما أخذ وما أخذه الناس ، ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هذه نُهْبَةٌ لا تَحِلّ ! قيل : يا رسول الله ، إنّ صاحبه أذِن فى أخْذه . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وإن أذن فى أخْذه !

قالوا : وجاءه رجلٌ فقال : يا رسول الله ، أىّ الصدقة أفضل ؟ قال : ظِلّ خباءٍ فى سبيل الله ، أو خِدْمَةُ خادمٍ فى سبيل الله ، أو طَروقَة[١] فَحْلٍ فى سبيل الله .

---

(١) طروقة : هى فعولة بمعنى مفعولة ، أى مركوبة للفحل . (النهاية : ج ٣ : ص ٣٦) .

وكان جابر بن عبد الله يُحدّث يقول : كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى تَبوك فقال : اقطعوا قَلائد الإبل من الإبل . قيل : يا رسول الله ، فالخيل ؟ قال : لا تُقلّدوها[١] بالأوتار .

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم استعمل على حَرَسه بتَبوك من يوم قدِم إلى أن رَحَل منها عَبّاد بن بِشر ، فكان عَبّاد بن بِشر يطوف على أصحابه فى العسكر ، فغدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوماً فقال : يا رسول الله ، ما زلنا نسمع صوتَ تكبيرٍ مِن ورائنا حتى أصبحنا ، فولّيتَ أحدنا يطوف على الحَرَس ؟ قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما فعلتُ ، ولكن عسى أن يكون بعضُ المسلمين على خيلنا انتدب[٢] . فقال سِلْكان ابن سَلامة : يا رسول الله ، خرجتُ فى عشرةٍ من المسلمين على خيلنا فكنّا نَحرُس الحَرَس . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : رحم الله حَرَسَ الحَرَسِ فى سبيل الله ! قال : فلكم قيراط من الأَجر على كلّ مَن حَرَستم من الناس جميعاً أو دابّة .

قالوا : وقدم نَفَرٌ من بنى سعد هُذَيم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا : يا رسول الله ، إنّا قدمنا عليك وتركنا أهلنا على بئرٍ لنا ، قليلٍ ماؤُها ، وهذا القَيْظ ، ونحن نخاف إن تفرّقنا أن نُقْتَطع ؛ لأن الإسلام لم يَفْشُ حولَنا بعدُ ، فادعُ الله لنا فى ماء بئرنا ، وإن روينا به فلا قومَ أعزُّ منّا ، لا يَعْبُر بنا أحدٌ مُخالِفٌ لدِيننا . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أبلغونى حَصَيات ! فتناولت ثلاثَ حَصَيات فدفعتُهنّ إليه ، فَفَركَهنّ بيده

---

(١) قال ابن الأثير : قلدوا الخيل ولا تقلدوها الأوتار ، أى قلدوها طلب أعداء الدين والدفاع عن المسلمين ، ولا تقلدوها طلب أوتار الجاهلية وذحولها التى كانت بينكم . والأوتار : جمع وتر بالكسر ، وهو الدم وطلب الثأر . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٢٧٢) .

(٢) انتدب : أى أجاب . (الصحاح ، ص ٢٢٣) .

ثم قال : اذهبوا بهذه الحَصَيات إلى بئركم فاطرحوها واحدةً واحدةً وسمّوا الله . فانصرفوا من عند رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ففعلوا ذلك فجاشت بئرُهم بالرَّواء[١] ، ونَفَوا مَن قاربهم من المشركين ووَطِئوهم ، فما انصرف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المدينة حتى أوطأوا مَن حولهم عليه ودانُوا بالإسلام .

قالوا : وكان زيد بن ثابت يُحدّث يقول : غزونا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم تَبوك ، فكنّا نشترى ونبيع ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرانا ولا ينهانا .

قال : وكان رافع بن خَديج يُحدّث يقول : أقمنا بتَبوك المَقام فأرملنا من الزاد وقَرِمنا[٢] إلى اللحم ونحن لا نجده ، فجئت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقلت : يا رسول الله ، إنَّ اللحم ها هنا ، وقد سألتُ أهلَ البلد عن الصيد فذكروا لى صيدًا قريباً — فأشاروا إلى ناحية المغرب — فأذهبُ فأصيدُ فى نَفَرٍ من أصحابى ؟ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إن ذهبت فاذهبْ فى عِدَّةٍ من أصحابك ، وكونوا على خيلٍ ، فإنَّكم تتفرَّقون من العسكر. قال : فانطلقتُ فى عشرةٍ من الأنصار فيهم أبو قَتادة — وكان صاحبَ طَرْدٍ بالرمح وكنت رامياً — فطلبنا الصيد فأدركنا صيدًا ، فقتل أبو قَتادة خمسة أحْمِرَة[٣] بالرمح على فرسه ، ورميت قريباً من عشرين ظبياً ، وأخذ أصحابنا الظبْيَيْن والثلاثة والأربعة ، وأخذنا نَعامة طردناها على خيلنا . ثم رجعنا إلى العسكر ، فجئناهم عِشاءً ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يسأل عنَّا : ما

(١) فى الأصل : « بالروايا » . وماء رواء : أى عذب . (الصحاح ، ص ٢٣٦٥)

(٢) قرمت إلى اللحم : إذا اشتهيته . (الصحاح ، ص ٢٠٠٩) .

(٣) فى الأصل : « أحمر » .

جاءوا بعدُ ؟ فجئنا إليه فألقينا ذلك الصيد بين يديه فقال : فَرِّقوه فى أصحابكم ! قلت : يا رسول الله ، أنت مُرْ به رجلاً ! قال : فأمر رافع بن خَديج . قال : فجعلت أُعطى القبيلة بأَسْرها الحمارَ والظبى ، وأُفرّق ذلك حتى كان الذى صار لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ظبىٌ واحدٌ مذبوح ، فأمر به فطُبِخ ، فلمّا نَضِج دعا به — وعنده أضياف — فأكلوا . ونهانا بعدُ أن نعودَ وقال : لا آمن . أو قال : أخاف عليكم .

حدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن موسى بن سَعيد ، عن عِرْباض بن سارية قال : كنت أَلزَم بابَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى الحَضَر والسَّفَر ، فرأيتنا[١] ليلةً ونحن بتَبوك وذهبنا لحاجة ، فرجعنا إلى منزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وقد تَعشّى ومَن عنده من أضيافه ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُريد أن يدخل فى قُبّته ومعه زوجته أمّ سَلَمَة بنت أبى أُميّة ، فلمّا طلعتُ عليه قال : أين كنت منذ الليلة ؟ فأخبرته ، فطلع جِعال بن سُراقة ، وعبد الله بن مُغَفَّل المُزَنىّ — فكنّا ثلاثة ، كلُّنا جائعٌ ، إنما نعيش بباب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم — فدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم البيت فطلب شيئاً نأكله فلم يجده ، فخرج إلينا فنادى بلالاً : يا بِلال ، هل من عَشاء لهؤلاء النفر ؟ قال : لا والذى بعثك بالحقّ ، لقد نَفَضْنا جُرُبنا وحُمُتَنا[٢] . قال : انظر ، عسى أن تجد شيئاً ، فأخذ الجُرُب يَنفُضها جِراباً جِراباً ، فتَقَع التَّمرة والتَّمرتان ، حتى رأيت بين يديه سبع تمرات ، ثم دعا بصَحْفَة فوضع فيها التمر ، ثم وضع يده على التمرات وسمّى الله وقال : كلوا بسم الله !

(١) فى الأصل : « فرأينا ليلة » .

(٢) الحمت ، جمع حميت ، وهو النحى والزق الذى يكون فيه السمن . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٠٦) .

فأكلنا فأَحْصَيت أَربعة وخمسين تمرةً أَكلتها ، أَعُدُّها ونَواها فى يدى الأُخرى ، وصاحباى يصنعان ما أَصنع ، وشَبِعنا وأَكل كلٌّ واحدٍ منّا خمسين تمرة ، ورفعنا أَيدينا فإذا التمرات السبع كما هى ، فقال : يا بِلال ، ارفعْها فى جِرابك ، فإنّه لا يأْكل منها أَحدٌ إلاَّ نَهِل شِبَعاً . قال : فبينا نحن حول قُبَّة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فكان يتهجّد من الليل ، فقام تلك الليلة يُصلِّى ، فلمّا طلع الفجر ركع ركعتى الفجر ، وأَذَّن بِلال وأَقام فصلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالناس ، ثم انصرف إلى فِناءِ قُبَّته ، فجلس وجلسنا حوله فقرأَ من «المؤمنين» عشراً[1] ، فقال : هل لكم فى الغَداء ؟ قال عِرْباض : فجعلت أَقول فى نفسى : أَىّ غداء ؟ فدعا بِلال بالتمر ، فوضع يده عليه فى الصَّحْفَة ثم قال : كلوا بسم الله ! فأَكلنا — والذى بعثه بالحقّ — حتى شَبِعنا وإنا لَعشرة ، ثم رفعوا أَيديهم منها شبعاً وإذا التمرات كما هى . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لولا أَنّى أَسْتَحيِى من ربّى لأَكلنا من هذا التمر حتى نَرد المدينة عن آخرنا . وطلع غُلَيِّمٌ من أَهل البلد ، وأَخذ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم التمرات بيده فدفعها إليه ؛ فولَّى الغلام يَلوكُهنَّ . فلمّا أَجمع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المسير من تَبوك أَرمل الناسُ إرمالاً شديدًا ، فشَخَص على ذلك الحال حتى جاءَ الناس إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يستأْذنونه[2] أَن يَنْحَروا رِكابهم فيأْكلوها ، فأَذِن لهم ؛ فلقيهم عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه وهم على نَحْرها ، فأَمرهم أَن يُمسكوا عن نَحْرها ، ثم دخل على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى خيمة له فقال : أَذِنْتَ للناس فى نحر حَمولتهم يأْكلونها ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : شَكَوْا إلىّ ما بلغ منهم الجوعُ فأَذنتُ لهم ، يَنْحَر الرُّفْقَةُ البعير والبعيرَيْن ، ويتعاقبون

(١) فى الأصل : «عشرة» .

(٢) فى الأصل : «يستاذنوا» .

فيما فَضَل من ظَهْرهم ، وهم قافلون إلى أهليهم . فقال : يا رسول الله ، لا تفعل ! فإن يكن للناس فَضْلٌ من ظَهْرهم يكن خيرًا ، فالظَّهْر اليوم رِقاق[١] ، ولكن ادعُ بفَضْل أزوادهم ثم اجمعْها فادعُ الله فيها بالبركة كما فعلتَ فى مُنصرَفنا من الحُدَيبية حيث أرملنا ، فإنَّ الله عزَّ وجلّ يستجيب لك ! فنادى مُنادى رسول الله : مَن كان عنده فَضْلٌ من زاد فَلْيأْتِ به ! وأمر بالأنطاع فبُسِطت ، فجعل الرجل يأْتى بالمُدّ الدَّقيق والسَّويقِ والتمر ، والقبضة من الدَّقيق والسَّويق والتمر والكِسَر . فيُوضَع كلُّ صِنْفٍ من ذلك على حِدَة ، وكلّ ذلك قليل ، فكان جميعُ ما جاءوا به من الدَّقيق والسَّويق والتمر ثلاثة أفراق[٢] حَزْرًا . ثم قام فتوضَّأ وصلَّى ركعتين ، ثم دعا الله عزَّ وجلّ أن يُبارك فيه .

فكان أربعة من أصحاب النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحدّثون جميعاً حديثاً واحدًا ، حضروا ذلك وعاينوه : أبو هُرَيرة ، وأبو حُمَيد الساعدىّ ، وأبو زُرْعَة الجُهَنىّ مَعْبَد بن خالد ، وسَهل بن سعد الساعدىّ ، قالوا : ثم انصرف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ونادى مُناديه : هَلُمّوا إلى الطعام ، خذوا منه حاجتكم! وأقبل الناس ، فجعل كلّ مَن جاء بوعاءٍ مَلأَه . فقال بعضُهم : لقد طَرَحتُ يومئذٍ كِسْرَةً من خبزٍ وقبضةً من تمر ، ولقد رأيتُ الأنطاع تَفيض ، وجئتُ بجِرابَيْن فملأْتُ إحداهما سَويقاً والآخرَ خبزًا ، وأخذتُ فى ثوبى دَقيقاً ، ما كفانا إلى المدينة . فجعل الناس يتزوّدون الزاد حتى نَهِلوا عن آخرهم ، حتى كان آخر ذلك أن أُخِذت الأنطاع ونُثِر ما عليها . فجعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول وهو واقف : أشهد أن لا إله إلّا

---

(١) الرقاق : جمع رقيق ، أى ضعيف . (لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٤١٢) .
(٢) الأفراق : جمع فرق ، وهو مكيال بالمدينة يسع ثلاثة آصع ، أو يسع ستة عشر رطلا ، أو أربعة أرباع . والحزر : التقدير والخرص . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ؛ ج ٢ ، ص ٨) .

الله ، وأنّى عبدُه ورسولُه ، وأشهد أنّه لا يقولها أحدٌ من حقيقة قلبه إلّا وَقاه الله حَرَّ النار .

وأقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قافلاً حتى إذا كان بين تَبوكَ وواد يقال له وادى الناقة — وكان فيه وَشَلٌ[١] يخرج منه فى أسفله قَدْرُ ما يروى الراكبَيْن أو الثلاثة — فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : منَ سَبَقنا إلى ذلك الوَشَل فلا يَسْتَقِيَنَّ منه شيئاً حتى نأْتى! فسَبَق إليه أربعةٌ من المنافقين : مُعَتِّب بن قُشَير[٢] ، والحارث بن يزيد الطائىّ ، حليفٌ فى بنى عمرو بن عَوف ، ووَديعة بن ثابت ، وزيد بن اللُّصَيت . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ألم أنْهَكُم ؟ ولعنهم ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده فى الوَشَل ، ثم مسحه بإصبعه حتى اجتمع فى كفّه منه ماءٌ قليل ، ثم نَضَحه[٣] ، ثم مسحه بيده ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق[٤] الماءُ . قال مُعاذ ابن جَبَل : والذى نفسى بيده ، لقد سمعت له شدّة فى انحرافه مثل الصَّواعق! فشرب الناس ما شاءوا ، وَسَقَوْا ما شاءوا ، ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لئن بقيتم — أو بقى منكم — لتسمعنّ بهذا الوادى وهو أخصب ممّا بين يديه وممّا خلفه ! قال : واستقى الناس وشربوا . قال سَلَمَة بن سَلامة ابن وَقش : قلت لوَديعة بن ثابت : وَيْلك ، أبَعْدَ ما تَرى شىء ؟ أما تعتبر ؟ قال : قد كان يُفعَل مثل هذا قبل هذا ! ثم سار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

---

(١) الوشل : حجر أو جبل يقطر منه الماء قليلا قليلا ، والوشل أيضاً : القليل من الماء . (شرح أبى ذر ، ص ٤٢٥) .

(٢) فى الأصل : « معتب بن قيس » ؛ والتصحيح عن البلاذرى . (أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٢٧٦) . وعن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٧٤) .

(٣) نضحه : أى رشه . (القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٢٥٣) .

(٤) انخرق : اشتد واتسع . (لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٣٦٠) .

قال : حدّثنى عُبَيد الله بن عبد العزيز ، أخو عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى صَعْصَعَة المازنىّ ، عن خَلَّاد ابن سُوَيد ، عن أبى قَتادة ، قال : بينما نحن مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نسير فى الجيش ليلاً ، وهو قافلٌ وأنا معه ، إذ خَفَق خَفْقَةً وهو على راحلته ، فمال على شِقِّه ، فدنوتُ منه فَدَعَمْتُه[1] فانتبه ، فقال : مَن هذا ؟ قلت : أبو قَتادة يا رسول الله ، خِفت أن تسقط. فدعمتُك . فقال : حَفِظك الله كما حفظتَ رسول الله ! ثم سار غير كثير ، ثم فعل مثلها ، فدعمتُه فانتبه فقال : يا أبا قَتادة ، هل لك فى التَّعريس[2] ؟ فقلت : ما شئتَ يا رسول الله ! فقال : انظر مَن خلفك ! فنظرت فإذا رجلان أوثلاثة ، فقال : ادعُهم ! فقلت : أجيبوا رسولَ الله ! فجاءوا فعرّسنا ونحن خمسةٌ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ومعى إداوَة فيها ماءٌ وَرَكْوَة[3] لى أشرب فيها ؛ فنمنا فما انتبهنا إلّا بحرّ الشمس ، فقلنا : إنّا لله ! فاتنا الصُّبْح ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لنغيظنّ الشيطان كما أغاظنا . فتوضّأ من ماء الإداوة ففَضَل فضلة فقال : يا أبا قَتادة ، احتفِظ بما فى الإداوة والرَّكْوَة فإنّ لها شأناً ، ثم صلّى بنا الفجر بعد طلوع الشمس فقرأ بالمائدة ، فلمّا انصرف من الصلاة قال : أما إنّهم لو أطاعوا أبا بكرٍ وعمر لَرَشِدوا . وذلك أنّ أبا بكر وعمر أرادا أن ينزلا بالجيش على الماء ، فأبَوْا ذلك عليهما ، فنزلوا على غير ماءٍ بفَلاةٍ من الأرض. فركب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فلحق الجيش عند زَوال الشمس ونحن معه ، وقد كادت تُقطَع أعناقُ الرجال والخيل عَطَشاً ، فدعا رسول الله صلّى

(١) دعمه : أى أسندته . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٣)

(٢) التعريس : نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٨٠) .

(٣) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠١) .

الله عليه وسلّم بالرَّكْوَة فأفرغ ما فى الإداوة فيها ، فوضع أصابعه عليها فنَبَع الماءُ من بين أصابعه . وأقبل الناس فاستقَوْا ، وفاض الماء حتى تروَّوْا ، وأرووْا خيلَهم ورِكابهم ، فإن كان فى العسكر اثنا عشر ألف بعير — ويقال : خمسة عشر ألف بعير — والناس ثلاثون ألفاً ، والخيل عشرة آلاف . وذلك قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لأبى قتادة : احتفِظ بالرَّكْوَة والإداوة !

وكان فى تبوكَ أربعةُ أشياء : فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسير منحدِرًا إلى المدينة — وهو فى قَيظ شديد — عَطِش العسكر بعد المرّتين الأُولَيَيْن عَطَشاً شديدًا حتى لا يوجد للشَّفَة ماءٌ قليلٌ ولا كثير ، فشكَوْا ذلك إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأرسل أُسَيد بن حُضَير ، فى يومٍ صائفٍ وهو مُتَلَثِّم ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : عسى أن تجد لنا ماء . فخرج — وهو فيما بين الحِجْر وتَبوك — فجعل يضرب فى كلّ وجه ، فيجد راوِيَةً من ماء مع امرأةٍ من بَلِيّ ، وكلّمها أُسَيد فخبّرها بخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقالت : هذا الماء ، فانطلقْ به إلى رسول الله ! وقد وضعت لهم الماءَ وبينهم وبين الطريق هُنَيّة ، فلمّا جاء أُسَيد بالماء دعا فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالبركة ، ثم قال : هَلُمّوا أسقيتكم ! فلم يبق معهم سِقاءٌ إلاّ مَلأوه ، ثم دعا برِكابهم وخيولهم فسقَوْها حتى نَهلت . ويقال : إنما أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما جاء به أُسَيد وصبّه فى قَعْبٍ عظيمٍ من عِساس[1] أهل البادية ، فأدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه يده ، وغسل وجهَه ويديه ورجليه ، ثم صلّى ركعتين ، ثم رفع يديه مَدًّا ، ثم انصرف وإنّ القَعْب لَيفور . فقال رسول

(١) العساس : جمع العس بالضم ، وهو القدح الكبير . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٩٥) .

الله صلّى الله عليه وسلّم للناس : زَوِّدوا ! فاتّسع الماء ، وانبسط الناس حتى يصفّ عليه المائة والمائتان، فأَرْوَوْا ، وإنّ القَعْب لَيجيش بالرِّواء . ثم راح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُبْرِدًا مُتَرَوِّياً من الماء .

قال : وحدّثنى أسامة بن زيد بن أسلم ، عن أبى سَهل ، عن عِكْرِمَة ، قال : خرجت الخيل فى كلّ وجهٍ يطلبون الماء ، وكان أوّل من طلع به وبخَبَره صاحبُ فرسٍ أشقر ، ثم الثانى أشقر ، ثم الثالث أشقر ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : اللّهمّ ، بارك فى الشُّقْر !

قال : حدّثنى عبد الله بن أبى عُبَيدة وسعد بن راشد ، عن صالح بن كَيسان ، عن أبى مُرّة مولى عَقيل ، قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : خير الخيل الشُّقْرُ .

قالوا : لمّا كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببعض الطريق مَكَر به أناسٌ من المُنافقين وائتمروا أن يَطرحوه من عَقَبَةٍ فى الطريق . فلمّا بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلك العَقَبَة أرادوا أن يسلكوها معه فأُخبِر رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم خبَرَهم ، فقال للناس : اسلكوا بَطْنَ الوادى ، فإنّه أسهل لكم وأوسع ! فسلك الناس بَطْنَ الوادى وسلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم العَقَبَة ، وأمر عَمّار بن ياسر أن يأْخذ بزِمام الناقة يقودها ، وأمر حُذَيفة بن اليَمان يسوق من خَلْفه . فبينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسير فى العَقَبَة إذ سمع حِسّ القوم قد غَشوه ، فغضب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأمر حُذَيفة أن يردّهم ، فرجع حُذَيفة إليهم وقد رأوا غَضَب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمِحْجَنٍ فى يده . وظنّ القوم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أُطلِع على مَكْرهم ، فانْحَطّوا من العَقَبَة مُسرعين حتى خالطوا الناس ، وأقبل حُذَيفة حتى أتى رسولَ الله

صلّى الله عليه وسلّم فساق به . فلمّا خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العَقَبَة نزل الناس ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : يا حُذَيفة ، هل عرفتَ أحدًا من الرَّكْب الذين رددتَهم ؟ قال : يا رسول الله ، عرفتُ راحلةَ فلان وفلان ، وكان القوم مُتَلَثِّمين فلم أُبصِرهم من أجل ظُلمة الليل.

وكانوا قد أنفروا بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسَقط بعض متاع رحله ، فكان حمزة بن عمرو الأسلميّ يقول : فَنُوِّر لى فى أصابعى الخمس فأُضِئْنَ حتى كنا نجمع ما سقط من السَّوط والحَبْل وأشباههما ، حتى ما بقى من المتاع شىءٌ إلّا جمعناه . وكان لحق النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فى العَقَبَة .

فلمّا أصبح قال له أُسَيد بن الحُضَير : يا رسول الله ، ما منعك البارحة من سُلوك الوادى ، فقد كان أسهل من العَقَبَة ؟ قال : يا أبا يحيى ، أتدرى ما أراد البارحة المُنافقون وما اهتمّوا به ؟ قالوا : نتبعه فى العَقَبَة ، فإذا أظلم الليل عليه قطعوا أَنْساع[1] راحلتى ونَخَسوها حتى يطرحونى من راحلتى . فقال أُسَيد : يا رسول الله ، فقد اجتمع الناسُ ونزلوا ، فمُرْ كلَّ بَطْنٍ أن يقتل الرجل الذى همّ بهذا ، فيكون الرجل من عشيرته هو الذى يقتله ، وإن أحببتَ ، والذى بعثك بالحقّ ، فنبِّئْنى بهم ، فلا تبرح حتى آتيكم برءوسهم ، وإن كانوا فى النَّبيت[2] فكفَيتُكَهم ، وأمرتَ سيّدَ الخزرج فكفاك مَن فى ناحيته ، فإنّ مِثل هؤلاء يُترَكون يا رسول الله ؟ حتى متى نُداهنهم وقد صاروا اليومَ فى القِلَّة والذِّلَّة ، وضَرَبَ الإسلام بجِرانه[3] ! فما

(١) الأنساع ، جمع نسعة ، وهى سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٤٠) .
(٢) أى فى ولد النبيت ، وهو عمرو بن مالك بن أوس . انظر البلاذرى . (أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٢٨٧) .
(٣) أى قر قراره واستقام، كما أن البعير إذ برك واستراح مد عنقه على الأرض . (النهاية ج ١ ، ص ١٥٨) .

يُستَبق من هؤلاء ؟ قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأُسَيد : إنِّى أكره أن يقول الناسُ إنَّ محمّدًا لمّا انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يدَه فى قتل أصحابه ! فقال : يا رسول الله ، فهؤلاء ليسوا بأصحاب ! قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أليس يُظهرون شهادة أن لاإله إلاَّ الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادةَ لهم ! قال : أليس يُظهرون أنِّى رسول الله ؟ قال : بلى ، ولا شهادةَ لهم ! قال : فقد نُهِيتُ عن قَتْل أُولئك .

قال : حدّثنى يعقوب بن محمّد ، عن رُبَيح[١] بن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخُدْرىّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كان أهل العَقَبَة الذين أرادوا بالنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثلاثةَ عشر رجلاً ، قد سمّاهم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لحُذَيفة وعَمّار رحمهما الله .

قال : حدّثنى ابن أبى حَبيبة ، عن داود بن الحُصَين ، عن عبد الرحمن ابن جابر بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : تنازع عَمّار بن ياسر ورجلٌ من المسلمين فى شىء فاستبّا ، فلمّا كاد الرجل يعلو عَمّارًا فى السِّباب قال عَمّار : كم كان أصحاب العَقَبَة ؟ قال : الله أعلم . قال : أخبِرنى عن علمكم بهم ! فسكت الرجل ، فقال مَن حضر : بَيِّنْ لصاحبك ما سألك عنه ! وإنما يُريد عَمّار شيئاً قد خَفِى عليهم ، فكره الرجل أن يُحدّثه ، وأقبل القوم على الرجل فقال الرجل : كنا نتحدّث أنّهم كانوا أربعة عشر رجلا . قال عَمّار : فإنّك إن كنت منهم فهم خمسةَ عشر رجلاً ! فقال الرجل : مهلاً ، أذكرك الله أن تَفضحنى ! فقال عَمّار : واللهِ ما سمّيتُ أحدًا ، ولكنى أشهد أنَّ الخمسة عشر رجلاً ، اثنا[٢] عشر منهم حَرْبٌ لله ولرسوله

---

(١) فى الأصل : « رشح » ؛ وما أثبتناه مضى من قبل .

(٢) فى الأصل : « اثنى عشر » .

فى الحياة الدنيا ؛ ويوم يقوم الأشهاد ، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[١] .

قال : حدّثنى مَعْمَر بن راشد ، عن الزُّهرىّ ، قال : نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن راحلته ، فأُوحى إليه وراحلته باركة . فقامت راحلته تجرّ زمامها حتّى لقيها حُذَيفة بن اليَمَان فأخذ بزِمامها فاقتادها حين رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالساً ، فأناخها ثم جلس عندها حتى قام النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ، فأتاه فقال : مَن هذا ؟ قال : أنا حُذَيفة . فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : فإنى مُسِرٌّ إليك أمرًا فلا تَذكُرَنّه ، إنى نُهيتُ أن أُصلّى على فلان ، وفلان ، وفلان – رهطٌ عدّة من المنافقين – ولا يُعلِم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذِكْرَهم لأحدٍ غير حُذَيفة . فلمّا تُوفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، كان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فى خلافته إذا مات رجلٌ ممّن يظنّ أنّه من أولئك الرهط أخذ بيد حُذَيفة فقاده إلى الصلاة عليه فإن مشى معه حُذَيفة صلّى عليه عمر ، وإن انتزع يده وأبى أن يمشى انصرف معه .

قال : حدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن سُلَيمان بن سُحَيم ، عن نافع بن جُبَير ، قال : لم يُخبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحدًا إلاّ حُذيفة ، وهم اثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشىّ . وهذا الأمر المُجتمَع عليه عندنا .

قال : حدّثنى عبد الحَميد بن جَعْفَر ، عن يزيد بن رُومان ، قال : أقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى نزل بذى أوان[٢] ، وقد كان جاءه أصحاب مسجد الضِرار ، جاءوا خمسة نفَر منهم : مُعَتِّب بن قُشَير ، وثعلبة ابن حاطب ، وخِذام بن خالد ، وأبو حَبيبة بن الأزْعَر ، وعبد الله بن نَبْتَل

---

(١) سورة ٤٠ غافر ٥٢

(٢) ذو أوان : موضع على ساعة من المدينة . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٢٥٠) .

ابن الحارث . فقالوا : يا رسول الله ، إنّا رُسُل مَن خَلْفَنا من أصحابنا ؛ إنّا قد بَنَينا مسجدًا لذى القِلّة والحاجة ، والليلة المَطيرة ، والليلة الشاتيَّة ، ونحن نُحِبّ أن تأْتينا فتُصلِّىَ بنا فيه ! ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتجهّز إلى تَبوك . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنىّ على جَناح سَفَرٍ وحالِ شُغْل ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلّينا بكم فيه . فلمّا نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بذى أَوانٍ راجعاً من تَبوك أتاه خَبَرُه وَخَبَرُ أهله من السماء ، وكانوا إنما بَنَوْه ؛ قالوا بينهم : يأْتينا أبو[١] عامرٍ فيتحدّث عندنا فيه ، فإنّه يقول : لا أستطيع آتى مسجدَ بنى عمرو بن عَوْف ، إنما أصحاب رسول الله يَلحظوننا بأبصارهم . يقول الله تعالى : ﴿وَإِرْصادًا لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[٢] يعنى أبا عامر . فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عاصمَ بن عَدِىّ العَجْلانىّ ، ومالك بن الدُّخْشُم السَّالِمىّ ، فقال : انطلِقا إلى هذا المسجد الظالمِ أهلُه فاهْدِماه ثم حَرِّقاه ! فخرجا سريعَيْن على أقدامهما حتى أتيا مسجد بنى سالم ، فقال مالك بن الدُّخْشُم لعاصم بن عَدىّ : أَنْظِرْنى حين أخرج إليك بنارٍ من أهلى . فدخل إلى أهله فأخذ سَعَفاً من النَّخْل فأشعل فيه النار . ثم خرجا سريعَيْن يعدُوَان حتى انتهيا إليه بين المغرب والعِشاء وهم فيه ، وإمامهم يومئذ مُجَمع بن جارية[٣] ، فقال عاصم : ما أنسى تشبّرفهم إلينا كأنّ آذانهم آذان السِّرحان[٤] . فأحرقناه حتى احترق ، وكان الذى ثبت فيه من بينهم زيد بن جارية بن عامر حتى احترقتْ أَلْيَتُه ، فهَدّمناه حتى وضعناه بالأرض . وتفرّقوا .

---

(١) أى أبو عامر الراهب الفاسق .

(٢) سورة ٩ التوبة ١٠٧

(٣) فى الأصل : « حارثة » ؛ وما أثبتناه عن كل مراجع السيرة الأخرى .

(٤) السرحان : الذئب . (الصحاح : ص ٣٧٤) .

فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة عرض على عاصم بن عَدىّ المسجدَ يتّخذه دارًا – وكان مِن دار وَديعة بن ثابت ودار أبي عامر إلى جنبهما فأحرقوهما معه – فقال : ما كنت لأتّخذَ مسجدًا قد نزل فيه ما نزل دارًا ، وإنّ بي عنه لَغِنىً يا رسول الله ! ولكن أعطِه ثابتَ بن أقرم فإنّه لا منزلَ له . فأعطاه ثابتاً . وكان أبو لُبابة بن عبد المُنذر قد أعانهم فيه بخَشَب ، وكان غيرَ مغموصٍ[1] عليه في النِّفاق ، ولكنه قد كان يفعل أمورًا تُكرَه له . فلمّا هُدِم المسجد أخذ أبو لُبابة خَشَبه ذلك فبنى به مَنزلاً ، وكان بيته الذى بناه إلى جنبه . قال : فلم يُولَد له فى ذلك البيت مولودٌ قَطُّ ، ولم يقف فيه حَمامٌ قَطُّ ، ولم تَحْضُن[2] فيه دجاجةٌ قَطُّ . وكان الذين بَنَوْا مسجد الضِّرار خمسة عشر رجلاً : جارية[3] بن عامر بن العَطَّاف – وهو حِمار[4] الدار – وابنه مُجمِّع بن جارية[3] وهو إمامهم ، وابنه زيد بن جارية[3] – وهو الذى احترقت أَلْيَتُه فأبى أن يخرج – وابنه يزيد بن جارية[3] ، ووَديعة بن ثابت ، [وخِذام بن خالد] ومن داره أُخرج ، وعبد الله بن نَبْتَل ، وبِجاد بن عُثمان ، وأبو حَبيبة بن الأزْعَر ، ومُعَتِّب بن قُشَير ، وعَبّاد بن حُنَيف ، وثعلبة بن حاطب .

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : زمامٌ خير من خِذام ، وسوطٌ خير من بِجاد ! وكان عبد الله بن نَبْتَل – وهو المُخبِّر بخَبَره – يأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فيسمع حديثَه ثم يأتى به المُنافقين ، فقال جبريل

(١) أى غير مطعون فى دينه متهم بالنفاق . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٧١) .
(٢) أى لم ترخم عليه للتفريخ . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢١٥) .
(٣) فى الأصل : « حارثة » ؛ وما أثبتناه عن كل مراجع السيرة الأخرى .
(٤) وكان يعرف بحمار الدار كما ذكر السهيلى . (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٣٢٢) .

عليه السلام : يا محمّد ، إنَّ رجلاً من المُنافقين يأتيك فيسمع حديثك ، ثم يذهب به إلى المُنافقين . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أيّهم هو ؟ قال : الرجل الأسود ذو الشَّعَر الكثير ، الأحمر العينين كأنهما قِدْران من صُفْر[١] ، كَبِدُه كَبِد حِمارٍ فينظر بعين شيطان .

وكان عاصم بن عَدىّ يُخبر يقول : كنّا نتجهّز إلى تَبوكَ مع النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فرأيت عبد الله بن نَبْتَل ، وثعلبة بن حاطب قائمَيْن على مسجد الضِّرار ، وهما يُصلحان ميزاباً قد فرغا منه ، فقالا : يا عاصم ، إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قد وعدنا أن يُصلِّى فيه إذا رجع . فقلت فى نفسى : واللهِ ، ما بَنى هذا المسجدَ إلَّا مُنافقٌ معروفٌ بالنِّفاق ، أسّسه أبو حَبيبة بن الأَزْعَر ، وأُخرِج من دار خِذام بن خالد ، وَوَديعةُ بن ثابت فى هؤلاء النفر — والمسجد الذى بنَى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بيده يُؤسّسه جبريل عليه السلام يؤمّ به البيت — فوالله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن بذمّه ، وذمّ أهله الذين جمعوا فى بنائه وأعانوا فيه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرارًا وَكُفْرًا ﴾[٢] إلى قوله ﴿ يُحِبُّ المُطَّهِّرينَ ﴾ . قالوا : كانوا يستنجون بالماء . ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾[٣] ، قال : يعنى مسجد بنى عمرو بن عَوف بقُباء ، ويقال : عَنَى مسجدَ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالمدينة . قال : وقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : نِعْمَ الرجلُ منهم عُوَيمُ بن ساعدة ! وقيل لعاصم بن عَدىّ : ولِمَ أرادوا بناءه ؟ قال : كانوا يجتمعون فى مسجدنا ، فإنما هم يَتناجَون فيما بينهم ويَلتفت بعضُهم إلى بعض ،

---

(١) الصفر بالضم : الذى تعمل منه الأوانى . (الصحاح ، ص ٧١٤) .

(٢) سورة ٩ التوبة ١٠٧

(٣) سورة ٩ التوبة ١٠٨

فيَلحَظهم المسلمون بأَبصارهم ، فشقّ ذلك عليهم وأرادوا مسجدًا يكونون فيه لا يَغشاهم فيه إلّا مَن يُريدون ممّن هو على مثل رأيهم . فكان أبو عامر يقول : لا أَقدر أن أَدخلَ مِرْبَدَكم(١) هذا ! وذاك أنّ أصحاب محمّد يَلحَظوننى وينالون منى ما أكره . [قالوا :] نحن نبنى مسجدًا تتحدّث فيه عندنا .

قالوا : قال كعب بن مالك : لمّا بلغنى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم توجّه قافلاً من تَبوكَ حضرنى [بَثّى](٢) فجعلت أتذكّر الكَذِب وأقول : بماذا أخرج من سَخَط رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غدًا ؟ وأستعين على ذلك كلَّ ذى رأىٍ من أهلى ، حتى ربّما ذكرتُه للخادم رجاء أن يأتينى شىءٌ أستريح إليه ، فلمّا قيل إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد أظلّ قادماً ، زاح عنى الباطلُ ، وعرفتُ أنّى لا أنجو منه إلّا بالصّدق ، فأجمعت أن أصدُقه . وصبّح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة ، وكان إذا قدم من سَفَرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتَيْن ثم جلس للناس ، فلمّا فعل ذلك جاءه المُخلَّفون فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عَلانيتهم وأيمانهم ، ويكِل سَرائرهم إلى الله تعالى .

ويقال من غير حديث كعب : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل بذى أوانٍ خرج عامّةُ المُنافقين الذين كانوا تخلّفوا عنه ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا تُكلِّموا أحدًا منهم تخلّف عنّا ولا تُجالسوه حتى آذنَ لكم . فلم يُكلّموهم ، فلمّا قدم المدينة جاءه المُعَذِّرون يحلفون له ، وأعرض عنهم ، وأعرض المؤمنون عنهم حتى إنّ الرجل لَيُعْرِض عن أبيه وأخيه وعمّه . فجعلوا يأتون النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويعتذرون إليه بالحُمّى

(١) المربد : الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٥٨) .
(٢) الزيادة من ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٧٧) .

والأسقام ، فيرحمهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فيقبل منهم علانيتهم وأيمانهم ، وحلفوا فصدّقهم واستغفر لهم ، ويَكِل سَرائرهم إلى الله عزّ وجلّ.

قالوا : وقال كعب بن مالك : فجئت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو جالسٌ في المسجد ، فسلَّمت عليه ، فلمّا سلَّمت عليه تبسّم تبسُّمَ المُغْضَب ، ثم قال لى : تعال ! فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى : ما خلّفك؟ ألم تكن ابتعتَ ظَهْرَك ؟ فقلت : يا رسول الله ، لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أنّى سأخرج من سَخَطه بعُذْر ، لقد أُعطِيتُ جَدَلاً ، ولكن واللهِ لقد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديثاً كاذباً لِتَرْضى عنّى لَيوشكنّ الله عزّ وجلّ أن يَسخط علىّ ، ولئن حدَّثتك اليوم حديثاً صادقاً تَجِد[1] علىّ فيه ، إنّى لأرجو عُقْبَى الله فيه . ولا واللهِ ما كان لى عذر ؛ واللهِ ما كنت أقوى ولا أيسرَ منّى حين تخلّفتُ عنك ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمّا أنت فقد صدقت ، فقُمْ حتى يقضى اللهُ عزّ وجلّ فيك ! فقمتُ وقام معى رجالٌ من بنى سَلِمَة ، فقالوا لى : واللهِ ما علمناك كنتَ أذنَبْتَ ذنباً قبل هذا! وقد عجزتَ ألّا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما اعتذر إليه المُخلَّفون ؛ قد كان كافيك ذَنْبَك استغفار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لك . فواللهِ ما زالوا بى يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأُكذّب نفسى . فلقيت مُعاذ بن جَبَل وأبا قَتادة فقالا لى : لا تُطِعْ أصحابك وأَقِمْ على الصِّدْق ، فإنّ الله سيجعل لك فرجاً ومَخرَجاً إن شاء الله ! فأمّا هؤلاء المُعذِّرون ، فإن يكونوا صادقين فسيرضى الله ذلك ويُعلِمه نبيّه ، وإن كانوا على غير ذلك يَذُمّهم أقبحَ الذمّ ويُكذِّب حديثَهم . فقلت لهم : هل لَقِىَ هذا غيرى ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثلَ مَقالتك ،

(١) تجد : أى تغضب . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٩٦) .

وقيل لهما مثلُ ما قيل لك . قلت : مَن هما ؟ قالوا : مُرارة بن الرَّبيع ، وهِلال بن أُمَيَّة الواقفيّ . فذكروا لى رجلَيْن صالحَيْن فيهما أُسْوَةٌ وقُدْوَة ، ونَهَى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن كلامنا أَيُّها الثلاثة من بين مَن تخلَّف عنه ، فاجتنبنا النّاسُ وتغيّروا لنا ، حتّى تنكَّرتْ لى نفسى ، والأَرض فما هى الأَرض التى كنت أَعرف ؛ فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأَمّا صاحباى فاستكانا فقعدا فى بيوتهما ، وأَمّا أَنا فكنت أَشدَّ القوم وأَجلدَهم ، وكنت أَخرج وأَشهد الصلوات مع المسلمين وأَطوف بالأَسواق ، فلا يُكلِّمنى أَحد ، حتّى آتى رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأُسلِّم عليه فأَقول فى نفسى : هل حرّك شفتَيْه بردّ السلام علىّ أَم لا ، ثم أُصلّى قريباً منه فأُسارقه النَّظَر ، فإذا أَقبلتُ على صلاتى نظر إلىّ ، وإذا التفتُّ نحوَه أَعرض عنِّى ، حتى إذا طال ذلك علىّ من جَفْوَة المسلمين مشيتُ حتّى تسوّرت حائط أَبى قَتادة – وهو ابن عمّى وأَحبُّ النّاس إلىّ – فسلَّمت عليه ، فوالله ما ردّ علىّ السلام ، فقلت له : يا أَبا قَتادة ، أَنشدُك الله ! هل تَعلَمنى أُحبّ اللهَ ورسولَه ؟ فسكت ، فعدتُ فقلت له : يا أَبا قَتادة ، أَنشدك الله ! هل تعلمنى أُحبّ اللهَ ورسولَه ؟ فسكت ، فعدت فنشدته الثالثةَ فقال : الله ورسوله أَعلم ! ففاضت عيناى ، فوثبتُ فتسوّرت الجدار ، ثم غدوت إلى السوق ، فبينا أَنا أَمشى بالسوق فإذا نَبَطىّ من نَبَط الشام ممّن قَدِم بالطعام يَبيعه بالسوق ، يسأَل عنِّى يقول : من يدُلُّنى على كعب ابن مالك ؟ فجعل النّاس يُشيرون له ، فدفع إلىّ كتاباً من الحارث بن أَبى شَمِر ملك غَسّان – أَو قال[1] من جَبَلَة بن الأَيْهَم – فى سَرَقَة[2] من حرير ؛

(١) فى الأصل : « وقال » .
(٢) السرقة : الشقة من الحرير ، وقال بعضهم : السرق أحسن الحرير وأجوده . (شرح أبى ذر ، ص ٤٢٦) .

فإذا فى كتابه : أمَّا بعد . فقد بلغنى أنَّ صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدارِ هَوانٍ ولا مَضيعةٍ ، فالحقْ بنا نُواسِك[١]. قال كعب : فقلت حين قرأته : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ منِّى ما وقعتُ فيه أن طَمِع فىّ رجالٌ من أهل الشرك . فذهبت بها إلى تَنُّور فسَجَرته[٢] بها ، وأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأتينى فقال : إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أُطلِّقها أَمْ ماذا ؟ قال : بل اعتزلْها فلا تَقْرَبْها . وكان الرسول إلىّ ، وإلى هِلال بن أُمَيّة ، ومُرارة بن الرَّبيع ، خُزَيمة بن ثابت . قال كعب : فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما هو قاضٍ . وأما هِلال بن أُمَيَّة فكان رجلاً صالحاً ، فبكى حتى إن كان يُرى أنَّه هالكٌ من البكاء ، وامتنع من الطعام ، فإن كان يُواصل اليومين والثلاثة من الصوم ما يذوق طعاماً ، إلَّا أن يشرب الشَّربة من الماء أو من اللَّبن ، ويُصلِّى الليلَ ويجلس فى بيته لا يخرج ؛ لأن أحدًا لا يُكلِّمه ، حتى إن كان الوِلْدانُ لَيَهْجُرونه لطاعة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . فجاءت امرأته إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت : يا رسول الله ، إنَّ هِلال بن أُمَيَّة شيخٌ كبيرٌ ضائعٌ ، لا خادمَ له ، وأنا أرفَق به من غيرى ، فإن رأيتَ أن تَدَعنى أن أخدُمه فعلت . قال : نعم ، ولكن لا تَدَعيه يصل إليك . فقالت : يا رسول الله ، ما به من حَرَكَة إلىّ ! والله ، ما زال يبكى منذ يوم كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، وإنَّ لِحيَتَه لتَقطُر دموعاً الليلَ والنهار ، ولقد ظهر البياض على عَيْنيه حتى تخوَّفتُ أن يذهب بصره . قال كعب : فقال

---

(١) فى الأصل : « نواسيك » .

(٢) سجرته ، أى ألهبت التنور بها ، يعنى أنه حرقها . (شرح أبى ذر ، ص ٤٢٦) .

لى بعض أهلى : لو استأْذنتَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لامرأتك ، فقد أذن لامرأة هِلال بن أُمَيّة أن تَخدُمه . فقلت : واللهِ ، لا أستأْذنه فيها ، ما يُدريني ما يقول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى ذلك إذا استأْذنته ، وأنا رجلٌ شابٌّ ، فواللهِ لا أستأْذِنه . ثم لبثنا بعد ذلك عشر ليال ، وكملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم المسلمين عن كلامنا ، ثم صلَّيت الصُّبح على ظَهْر بيتٍ من بيوتنا على الحال التى ذكر الله عزّ وجلّ ، وقد ضاقت علىّ الأرض بما رَحُبت ، وضاقت علىّ نفسى ، وقد كنت ابتنيت خَيْمَةً فى ظهر سَلْعٍ فكنت فيه ، إذ سمعت صارخاً أَوْفَى على سَلْعٍ ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أَبْشِرْ ! قال : فخررت ساجدًا ، وعَرفت أن [قد][1] جاء الفَرَج . فآذن رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بتَوْبَة الله علينا حين صلَّى الصُّبْح .

فكانت أُمّ سَلَمَة زوج النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم تقول : قال لى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من الليل : يا أُمّ سَلَمَة ، قد نزلتْ تَوْبَة كعب بن مالك وصاحِبَيْه . فقلت : يا رسول الله ، ألا أرسلتُ إليهم فأُبشِّرَهم ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يمنعونكِ النوم آخرَ الليل ، ولكن لا يُرَون حتى يُصبِحوا . قال : فلمّا صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الصُّبح أخبر الناسَ بما تاب الله على هؤلاء النفر : كعب بن مالك ، ومُرارة بن الرَّبيع ، وهِلال بن أُمَيّة . فخرج أبو بكر رضى الله عنه فوافى على سَلْعٍ فصاح : قد تاب الله على كعب ! يُبَشِّره بذلك . وخرج الزُّبَير على فرسه فى بطن الوادى ، فسمع صوت أبى بكر رضى الله عنه قبل أن يأتى الزُّبَير . وخرج أبو الأعْوَر سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل إلى هِلال يُبشِّره ببنى واقف . فلمّا أخبره

(١) الزيادة من ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٨٠) .

سجد . قال سَعيد : فظننت أنّه لا يرفع رأسه حتى تخرج نفْسه ، وكان بالسرور أكثرَ بكاءً منه بالحُزْن حتى خيف عليه ؛ ولقيه الناس يُهنِّئونه ، فما استطاع المشى إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لِما ناله من الضَّعف والحُزْن والبكاء ، حتى ركب حمارًا . وكان الذى بشّر مُرارة بن الرَّبيع سِلْكان بن سَلامة أبو نائلة ، وسَلَمَة بن سَلامة بن وَقْش ؛ ووافيا الصُّبْحَ مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من بنى عبد الأَشْهَل ، ثم انطلقا إلى مُرار فأخبراه ؛ فأقبل مُرارة حتى تَوافَوْا عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم .

قال كعب : وكان الصوت الذى سمعت على سَلْعٍ أسرع من الفارس الذى يركض فى الوادى — وهو الزُّبير بن العَوّام — والذى صاح على سَلْعٍ ، يقول كعب : كان رجلاً[(١)] من أسْلَم يقال له حمزة بن عمرو ، وهو الذى بشّرنى . قال : فلمّا سمعت صوته نزعتُ ثَوْبَىَّ فكسوتهما إياه لبشارته ؛ واللهِ ما أملك يومئذٍ غيرهما ! ثم استعرتُ ثوبَيْن من أبى قَتادة فلبستهما ، ثم انطلقت أتيمّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وتلقّانى الناس يُهنّئوننى بالتَّوْبَة يقولون : لِيَهْنِكَ تَوْبَة الله عليك ! حتى دخلت المسجدَ ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالسٌ حوله الناس ، فقام إلىّ طَلحة بن أبى طَلحة فحيّانى وهنّأنى ، ما قام إلىّ من المهاجرين غيرُه — فكان كعب لا ينساها لطَلحة . قال كعب : فلمّا سلّمتُ على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لى ، ووجهه يَبرُق من السرور : أبْشر بخير يومٍ مرّ[(٢)] عليك منذ وَلَدَتْك أُمُّك ! ويقال : قال له : تعال إلى خير يومٍ [ما] طلع عليك شَرْقُه قَطُّ . قال كعب : قلت : أمِنْ عندك يا رسول الله ، أو من عند الله ؟ فقال : من عند الله

---

(١) فى الأصل : « رجل » .

(٢) فى الأصل : « مر به عليك » .

عزَّ وجلّ ! قال : وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا سُرّ يستنير حتى كأنّ وجهه فِلْقَة القمر ، وكان يُعرَف ذلك منه . فلمّا جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إنّ من تَوْبَتى إلى الله وإلى رسوله أن أنْخَلع من مالى إلى الله ورسوله ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أمسك عليك [بعض](١) مالك ، هو خير لك ! قال قلت : إنّى مُمسِك بسَهْمى الذى بخَيْبَر ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لا ! قلت : النِّصْف ! قال : لا ! قلت : فالثُّلُث ! قال : نعم ! قال : إنّى يا رسول الله أحبس سَهْمى الذى بخَيْبَر . قال كعب : قلت : يا رسول الله إنّ الله عزّ وجلّ أنجانى بالصِّدْق ، فإنّ تَوْبَتى إلى الله ألّا أحدِّث إلّا صِدْقاً ما حييتُ . قال كعب : واللهِ ، ما أعلم أحدًا من الناس أبلاه الله فى صِدْق الحديث منذ ذكرتُ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أفضل مما أبلانى ، واللهِ ما تعمّدت من كَذْبةٍ منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عزّ وجلّ فيما بقى . وقال كعب :ـ قال الواقدىّ : أنشدنيه أيّوب بن النّعمان بن عبد الله بن كعب :

سبحانَ ربىّ إن لم يعفُ عن زَلَلى(٢) فقد خَسِرْتُ وتَبَّ القَوْلُ والعَمَل

قال : وأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَقَدْ تابَ اللّهُ عَلَى النَّبِىِّ والمُهاجِرِينَ والأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فى ساعَةِ العُسْرَةِ ﴾(٣) إلى قوله : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ ﴾. قال كعب : فواللهِ ما أنعم الله علىّ من نعمةٍ قَطُّ إذ هدانى للإسلام كانت أعظمَ فى نفسى من صِدْقى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم ، ألا أكون كذبتُه يومئذٍ ،

(١) الزيادة عن ابن إسحاق . (السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ١٨٠) .
(٢) فى الأصل : « عنى وعن زللى » .
(٣) سورة ٩ التوبة ١١٧ — ١١٩

فأهلك كما هلك الذين كذبوه . قال الله فى الذين كذبوه حين أنزل عليه الوَحْىَ شَرَّ ما قال : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾[1] إلى قوله ﴿ الفاسِقينَ﴾ . قال كعب : وكنّا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قَبِل منهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين حلفوا فعذرهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم أمرَنا حتى قضى اللهُ فيه ما قضى . فبذلك قال الله عزّ وجلّ : ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾[2]. قال : ليس عن الغزوة ، ولكن بتخليفه إيّانا ، وإرجائِه أمرَنا عمّن حلف له ، واعتذر إليه فقبِل منه .

قال كعب حين بنى الخيمة على سَلْعٍ ، فيما حدّثنى أيّوب من النعمان ابن عبد الله بن كعب بن أبى القَيْن :

أَبَعْدَ دور بنى القَيْنِ[3] الكِرامِ وما شادوا على تبتيت[4] البيتِ من سَعَفِ

قالوا : وقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة فى رمضان سنة تسع ، فقال : الحمد لله على ما رزَقَنا فى سفرنا هذا من أجرٍ وحسنةٍ وَمَن بَعْدَنا شركاؤُنا فيه . فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ، أصابكم السفر وشدّة السفر وَمَن بَعْدَكم شركاؤكم فيه ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرنا من مسيرٍ ولا هبطنا وادياً إلّا كانوا معنا ، حبسهم المَرَضُ ، أَوَ ليس الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿وما كانَ المُؤْمِنُونَ

---

(١) سورة ٩ التوبة ٩٥ – ٩٦

(٢) سورة ٩ التوبة ١١٨

(٣) كلمة غامضة ، شكلها فى الأصل : « انفيز » . ولعل ما أثبتناه أقرب الاحتمالات ، واسم أبى كعب عمرو بن القين . (الاستيعاب ، ص ١٣٢٣) .

(٤) هكذا فى الأصل .

لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾[1] ؛ فنحن غُزاتُهم وهم قعدتُنا . والذى نفسى بيده ، لدعاؤهم أنفذ فى عدوّنا من سلاحنا ! وجعل المسلمون يبيعون سلاحهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ! فجعل القوىّ منهم يشتريها لفَضْل قُوّته ، فبلغ ذلك رسولَ اللهصلّى الله عليه وسلّم فنهاهم عن ذلك وقال : لا تَزال عصابةٌ من أُمّتى يُجاهدون على الحقّ حتى يخرج الدّجّال !

قالوا : ومرض عبد اللهبن أُبَىّ فى ليالٍ بقين من شَوّال ، ومات فى ذى القعدة وكان مرضه عشرين ليلة ، فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعوده فيها ، فلمّا كان اليوم الذى مات فيه دخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يجود بنفْسه ، فقال : قد نهيتك عن حبّ اليهود . فقال عبد الله بن أُبَىّ : أبغضَهم سعد بن زُرارة فما نفعه . ثم قال ابن أُبَىّ : يا رسول الله ، ليس بحين عِتاب ! هو الموت ، فإن متُّ فاحضُرْ غُسْلى وأعطِنى قميصَك أُكفَّن فيه . فأعطاه الأعلى — وكان عليه قميصان — فقال : الذى يلى جلدك . فنزع قميصَه الذى يلى جلده فأعطاه ، ثم قال : صلّ علىّ واستغفرْ لى !

قال : وكان جابر بن عبد الله يقول خلاف هذا ، يقولُ : جاء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعدَ موت ابن أُبَىّ إلى قبره ، فأمر به فأُخْرِج ، فكَشَف من وجهه ونفث عليه من ريقه ، وأسنده إلى ركبتَيْه وألبسه قميصَه — وكان عليه قميصان — وألبسه الذى يلى جلده . والأوّل أثبت عندنا : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حضر غُسْلَه وحضر كَفْنَه ، ثم حُمِل إلى موضع الجنائز فتقدّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليُصلّى عليه ، فلمّا قام وثب إليه عمر بن الخطّاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله ، أتُصلّى على ابن أُبَىّ وقد قال يوم كذا كذا ويوم كذا كذا ؟ فعدّ عليه قَوْلَه . فتبسم النبىّ صلّى الله عليه

(١) سورة ٩ التوبة ١٢٢

وسلّم وقال : أخِّرْ عنِّى يا عمر ! فلمّا أكثر عليه عمر قال : إنى قد خُيِّرت فاخترتُ ، ولو أعلم أنىّ إذا زدتُ على السبعين غُفِر له زدت عليها ، وهو قوله عزَّ وجلّ : ﴿ اِسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾(١) . فيقال إنّه قال : سأزيد على السبعين . فصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم انصرف ، فلم يكن إلاّ يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من «بَراءَة» : ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾(٢) . ويقال إنّه لم تَزُلْ قدماه بَعْدَ دَفْنه حتى نزلت عليه هذه الآية ، فعرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى هذه الآية المنافقين ، فكان مَن مات لم يُصلِّ عليه .

وكان مُجَمِّع بن جارية يُحدّث يقول : ما رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أطال على جنازةٍ قَطُّ ما أطال عليها من الوقت ، ثم خرجوا حتى انتهوا إلى قبره ، وقد حُمِل على سرير يُحمَل عليه موتاهم عند آل نُبَيط .

وكان أنس بن مالك يُحدّث يقول : رأيت ابن أُبَىّ على السرير وإنَّ رجليه لَخارجتان من السرير من طوله .

وكانت أمّ عُمارة تُحدّث قالت : شهدنا مأْتم ابن أُبَىّ ، فلم تتخلّف امرأةٌ من الأوس والخزرج إلاّ أتت ابنتَه جميلة بنت عبد الله بن أُبَىّ ، وهى تقول : وا جَبَلاه ! — ما ينهاها أحدٌ ولا يُعَيِّب عليها — واجَبَلاه ! وارُكْناه ! قالوا : ولقد انتُهِى به إلى قبره .

فكان عمرو بن أُمَيّة الضَّمْرىّ يُحدّث يقول : لقد جَهِدنا أن ندنو من سريره فما نقدر عليه ، قد غَلَب عليه هؤلاء المُنافقون وكانوا قد

---

(١) سورة ٩ التوبة ٨٠

(٢) سورة ٩ التوبة ٨٤

أظهروا الإسلام ، وهم على النِّفاق[1] ، من بنى قَيْنُقاع وغيرهم : سعد بن حُنَيف ، وزيد بن اللُّصَيت ، وسَلامة بن الحُمام ، ونعمان بن أبى عامر ، ورافع بن حَرْمَلَة ، ومالك بن أبى نَوْفَل ، وداعِس ، وسُوَيد . وكانوا أخابث المُنافقين ، وكانوا هم الذين يُعرِّضونه . وكان ابنه عبد الله ليس شىءٌ أثقل عليه ولا أعظم من رؤيتهم ، وكان به بطن ، فكان ابنه يُغلِق دونهم الباب ، فكان ابن أُبَىّ يقول : لا يلينى غيرُهم . ويقول : أنت والله أحبّ إلىّ من الماء على الظّمأ . ويقولون : ليت أنّا نفديك بالأنفس والأولاد ، والأموال ! فلمّا وقفوا على حُفرته ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم واقفٌ يلحظهم ، ازدحموا على النزول فى حُفرته وارتفعت الأصوات حتى أُصيب أنف داعس ، وجعل عُبادة بن الصامت يذبّهم ويقول : اخْفِضوا أصواتكم عند رسول الله ! حتى أُصيب أنف داعس فسال الدم ، وكان يُريد أن ينزل فى حُفرته ، فنُحِّى ونزل رجالٌ من قومه ، أهل فَضْلٍ وإسلام ؛ وكان لِما رأوا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الصلاة عليه وحضوره ، ومن القيام عليه . فنزل فى حُفرته ابنه عبد الله ، وسعد بن عُبادة بن الصامت ، وأوس بن خَوْلىّ حتى سُوِّىَ عليه ، وإنّ عِلْيَة أصحاب النبىّ صلّى الله عليه وسلّم والأكابر من الأوس والخزرج يُدلونه فى اللَّحْد ، وهم قيامٌ مع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم . وزعم مُجَمِّع بن جارية أنّه رأى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يُدليه بيديه إليهم ، ثم قام على القبر حتى دُفِن ، وعزّى ابنَه وانصرف. فكان عمرو بن أُمَيّة يقول : ما لقى عليه أصحابه هؤلاء المُنافقون ، إنّهم هم الذين كانوا يَحثون فى القبر الترابَ ويقولون : يا ليت أنّا فديناك بالأنفس

(١) فى الأصل : « وهم على المنافقين » .

وكنّا قبلك ! وهم يَحثوب الترابَ على رؤوسهم . فكان الذى يحسن أمره يقول : قومٌ أهل فقر ، وكان يُحسِن إليهم !

ذكر ما يزل من القرآن فى غزوة تبوك

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فى سَبيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ..﴾(١) إلى آخر الآية . قال : غزا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى حرٍ شديدٍ وجهدٍ من الناس ، وحين طابت(٢) الثمار واشتُهيت الظلال ، فأبطأ الناس ، وكشفت «بَرَاءة» عنهم ما كان مستورًا ، وأبدت أضغانهم ونفاق مَن نافق منهم . يقول : ﴿إلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً﴾(٣) يقول : إلّا تخرجوا مع النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ؛ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أليماً﴾ يقول : فى الآخرة ؛ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ . قيل : يا رسول الله ، مَن هولاء القوم ؟ ﴿ما كانَ لأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ أنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ ..﴾(٤) الآية . قال : كان ناسٌ من أصحاب النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم خرجوا إلى البدو يُفقّهون قومَهم ، فقال المنافقون : قد بقى ناسٌ من أصحاب محمّد فى البوادى . وقالوا : هلك أصحاب البدو . فنزلت : ﴿وَما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ..﴾(٥) الآية . ونزل فيهم : ﴿وَالَّذِينَ يُحاجُّونَ فى اللهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ..﴾(٦) الآية ﴿إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾(٧)

(١) سورة ٩ التوبة ٣٨
(٢) فى الأصل: « طاب » .
(٣) سورة ٩ التوبة ٣٩
(٤) سورة ٩ التوبة ١٢٠
(٥) سورة ٩ التوبة ١٢٢
(٦) سورة ٤٢ الشورى ١٦
(٧) سورة ٩ التوبة ٤٠

يعنى من(١) نافق من الأوس والخزرج ؛ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى مشركى قُرَيش ؛ ﴿ثانِىَ اثْنَيْنِ﴾ يعنى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر رضى الله عنه ؛ ﴿إِذْ هُما فى الغارِ﴾ حيث كانت هجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿إِذْ يَقولُ لِصاحِبِهِ لا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنا فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ يقول الطُّمأْنينة ، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ يعنى الملائكة ؛ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ اللهِ هِىَ العُلْيا﴾ يقول : جعل ما جاءت به قرَيشٌ من آلهتهم باطلاً ، وما جاء به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من التوحيد هوالظاهر العالى . ﴿انفِرُوا خِفافًا وثِقالاً﴾(٢) يقول نشاطاًوغيرَ نشاط ، ويقال الخفاف : الشباب ، والثقال : الكهول ؛ ﴿وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وأَنفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللهِ﴾ يقول : أنفقوا أموالكم فى غزوتكم ، وجاهدوا فى سبيل الله : قاتلوا . ﴿لَوْ كانَ عَرَضًا قَرِيباً﴾(٣) يعنى غنيمة قريبة ؛ ﴿وَسَفَرًا قاصِدًا﴾ يعنى سفرًا قريباً ، ﴿لاَتَّبَعُوكَ﴾ يعنى المنافقين ؛ ﴿وَلٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ سفر تَبوك عشرون ليلة ؛ ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ﴾ يعنى المنافقين حين خرج رسول الله صلّى الله عليه سلّم إلى تَبوك جعلوا يعتذرون بالعسرة والمرض ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُم﴾ يعنى فى الآخرة ؛ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبونَ﴾ يعنى إنّهم مُقوون(٤) أصحّاء ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأْذن لهم ويقبل عذرهم . قال : ﴿عَفَا اللهُ

---

(١) فى الأصل : « ما نافق » .

(٢) سورة ٩ التوبة ٤١

(٣) سورة ٩ التوبة ٤٢

(٤) أى أصحاب دواب قوية ، كاملو أدوات الحرب . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٣٨٧ ،

عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ﴾[١] حتى تبلوَهم بالسفر وتعلمَ مَن هو صادقٌ ومَن هو كاذب ؛ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الكاذبينَ﴾ فتعلم من له قوّةٌ ممن لا قوّةَ له ، استأْذنك رجالٌ لهم قوّةٌ . ﴿لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ واللهُ عَليمٌ بالمُتَّقِينَ﴾[٢] ووصف المؤْمنين الذين أَنفقوا أَموالهم فى تلك الغزوة ، وكانت تُسمّى غزوةَ العُسْرَة . ﴿إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وارتابَتْ قلوبُهُمْ فَهُمْ فى رَيْبِهِمْ يتَردَّدُونَ﴾[٣] يعنى المنافقين فى شكّهم . ﴿وَلَوْ أَرادُوا الخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾[٤] يقول : كانوا أَقوياء بأَبدانهم وأَموالهم ولكن كره الله خروجهم فخذلهم ؛ ﴿وقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القاعِدِينَ﴾ يعنى مع النساء . ﴿لَوْخَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً﴾[٥] يعنى ابن أُبَىّ ، وعبد الله بن نَبْتَل ، والجَدّ بن قيس ، وكلّ هؤلاء استأْذن ورجع ، فيقول : لو كانوا فيكم ﴿ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً﴾ إلاَّ شرًّا ؛ ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ يقول : يدخل المنافق بين الراحلتَيْن فيَرْفَضُّ بهما ؛ ﴿يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ﴾ هؤلاء النفر ، يقول : لأَظهروا النفاق ولقالوه . ﴿وفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ يقول : من المنافقين ومِن دونهم من يأْتيهم بالأَخبار وهؤلاء من رؤساهم ؛ ﴿وَاللهُ عَليمٌ بِالظّالِمِينَ﴾ . ثم ذكر المنافقين ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾[٦] يقول : من قبل خروجك وتشاوروا فى

---

(١) سورة ٩ التوبة ٤٣
(٢) سورة ٩ التوبة ٤٤
(٣) سورة ٩ التوبة ٤٥
(٤) سورة ٩ التوبة ٤٦
(٥) سورة ٩ التوبة ٤٧
(٦) سورة ٩ التوبة ٤٨

كلّ ما يُلبس عليك وعلى أَصحابك ﴿حَتّى جاءَ الحَقُّ﴾ يعنى ظهر الحقّ ؛ ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ﴾ يعنى أَمرك يا محمّد ؛ ﴿وَهُمْ كارِهُونَ﴾ لظهورك واتّباع من اتّبعك من المسلمين . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لى وَلا تَفْتِنِّى أَلا فى الفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾[١] نزلت هذه الآية فى الجَدّ بن قيس ، وكان من أكثر بنى سَلِمَة مالاً وأعدّ عدّةً فى الظَّهْر ؛ وكان مُعجباً بالنساء ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أَلا تغزو بنى الأَصفر ؟ عسى أَن تَحْتَقب من بنات الأَصفر ! فقال : يا محمّد ، قد علم قومى أَنّه ليس رجلٌ أَعجب بالنساء منّى ؛ فلا تفتنّى بهنّ ! يقول عزّ وجلّ : ﴿أَلا فى الفِتْنَةِ سَقَطوا﴾ يتخلّفه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونفاقه ؛ يقول عزّ وجلّ : ﴿وَإِنَّ جَهَنَمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكافِرِينَ﴾ به وبغيره ممّن هو على قوله . ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾[٢] غنيمة وسلامة ؛ ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ يعنى الذين تخلّفوا واستأْذنوك ؛ ﴿وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ البلاء والشدّة ؛ ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا﴾ حِذْرنا ؛ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يعنى من استأْذنه ؛ ابن أُبَىّ وغيره ، والجَدّ بن قيس ، ومن كان منهم على رأيهم ؛ ﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ بتلك المصيبة التى أَصابتك . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿قُلْ لَنْ يُصيبَنا إِلّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا﴾[٣] يقول : إِلّا ما كان فى أُمّ الكتاب ؛ ﴿هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾ . يقول الله عزّ وجلّ لنبيّه : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ﴾[٤] الغنيمة أَو الشهادة ؛ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ القارعة تصيبكم ؛ ﴿أَوْ بِأَيْدِينا﴾ يُؤذن لنا فى قتلكم ؛ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يقول : انتظروا بنا وننتظر بكم وعيد الله فيكم .

---

(١) سورة ٩ التوبة ٤٩
(٢) سورة ٩ التوبة ٥٠
(٣) سورة ٩ التوبة ٥١
(٤) سورة ٩ التوبة ٥٢

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[١] كان رجالٌ من المنافقين من ذوى الطَّوْل يُظهرون النفقة ، إذا رآهم الناس ليبلغ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ويَدرأون بذلك عن أنفسهم القَتْل. يقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسالَى﴾[٢] يقول رياء : ﴿وَلا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كارِهُونَ﴾ يُريدون أن يظهر أنَّهم يُنفقون. ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ﴾[٣] أى ما أعطيناهم ؛ ﴿وَلا أَوْلادُهُمْ﴾ الذين أعطيناهم إيّاهم ؛ ﴿إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فى الحَياةِ الدُّنْيا﴾ يقول: تكون عليهم بيّنةً لأَن ما أكلوا منها أكلوه نِفاقاً ، وما أنفقوا ، فإنما هو رياء . يقول ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ أن يلقوا ربَّهم على نِفاقهم . ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾[٤] أى رؤساءهم وأهل الطَّوْل منهم مثل ابن أُبَىّ ، والجَدّ بن قيس وذَويه ، كانوا يأْتون النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيحلفون أنَّهم معه ، وإذا خرجوا نقضوا ، يقول: يَفْرَقون من أن يُقتلوا لِقِلَّتهم فى المسلمين. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾[٥] يقول : لو وجدوا جماعةً أو يقدرون على هربٍ من دارهم إلى قومٍ يعزّون فيهم، لذهبوا إليهم سِراعاً. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذاهُمْ يَسْخَطُونَ﴾[٦] نزلت فى ثعلبة بن حاطب ، كان

---

(١) سورة ٩ التوبة ٥٣
(٢) سورة ٩ التوبة ٥٤
(٣) سورة ٩ التوبة ٥٥
(٤) سورة ٩ التوبة ٥٦
(٥) سورة ٩ التوبة ٥٧
(٦) سورة ٩ التوبة ٥٨

يقول : إنما يُعطى محمّدٌ الصدقاتِ مَن يشاء ! يتكلَّم بالنِّفاق . فجاء النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم فأَعطاه فرضى ، ثم جاءه فلم يُعطِه فسَخِط . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾[١] يقول : لم يسخطوا إذا ردّه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أو أعطاه قليلاً بقدر ما يجد ؛ ﴿وَقالُوا حَسْبُنا اللهُ سَيُؤْتِينا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إلى اللهِ راغِبُونَ﴾ يقول : حَسْبُ نبيّه . وقال : إنَّ الله سيرزقنا ، وإذا جاءَ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مالٌ أعطانا . قال الله عزَّ وجلّ : ﴿إِنَّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والمَساكِينِ وَالعامِلِينَ عَلَيْها وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفى الرِّقابِ وَالغارِمينَ وَفى سَبيلِ اللهِ وَابنِ السَّبيلِ فَريضَةً مِنَ اللهِ﴾[٢] . ويُروَى عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ سائلاً سأَله ، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنَّ الله لم يَكِلْها إلى ملكٍ مُقرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرسَلٍ حتى جزَّأَها على ثمانية أجزاء ، فإن كنتَ من جزءٍ منها أعطيتك ، وإن كنتَ غنيًّا فصُداعٌ فى الرأس وأذىً فى البطن ، والفقراء فقراء المهاجرين الذين كانوا لا يسأَلون الناس والمساكين الذين كانوا فى الصُّفَّة فى عهد النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم . ﴿وَالعامِلِينَ عَلَيْها﴾ يُعطَوْن قدْر عمالتهم ونفقتهم فى سفرهم ؛ ﴿وَالمُؤَلَّفَةِ قُلوبُهُمْ﴾ ليس فى الناس اليوم ، وقد كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أعطى أقواماً ، يتألَّفهم على الإسلام ؛ ﴿وَفى الرِّقابِ﴾ يعنى المكاتَبين ؛ ﴿وَالغارِمينَ﴾ يعنى الذين عليهم الدَّين ، يقضى عن الرجل دينه ؛ ﴿وَفى سَبيلِ اللهِ﴾ يعنى المجاهدين ؛ ﴿وَابنِ السَّبيلِ﴾ الرجل المُنقطَع به فى غير بلده فيُعان ويُحمَل وإن كان فى أهله موسرًا . وهذه الصدقات

(١) سورة ٩ التوبة ٥٩

(٢) سورة ٩ التوبة ٦٠

يُنظَر فيها ، فإن كان أهل الحاجة والفاقة فى صنفٍ واحدٍ فوُضِع ذلك فيه أجزأه إن شاء الله . ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ويَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾[١] نزلت فى عبد الله بن نَبْتَل . قال ، كان يقول : إِنِّى لأَنال من محمّد ما أشاء ، ثم آتى محمّدًا فأحلف له فيقبل منِّى . يقول الله عز وجلّ : ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أنّه يقبل من المؤمنين ؛ ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ﴾ يعنى ابن نَبْتَل ؛ ﴿لَهمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ . ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ﴾[٢] حلفه للنبيّ ما قالوا ؛ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ يعنى النبيّ وأصحاب محمّد. ثم يقول : ﴿وَاللهُ وَرَسولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانوا مُؤْمِنِينَ﴾ ألَّا تُوذوا رسولَ الله ولا تقولوا إلَّا خيرًا . ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّه مَنْ يُحادِدِ اللهَ وَرَسولَهُ..﴾[٣] إلى آخر الآية ، يعنى عبد الله ابن نَبْتَل . ﴿يَحْذَرُ المنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمافى قُلُوبِهِمْ﴾[٤] قال : كان المنافقون يتكلّمون بردّ الكتاب والحقّ ، فإذا نزل على النبيّ شىءٌ من القرآن خافوا أن يكون فيما قالوا أو فيما تكلّموا . ﴿إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ يعنى ما يتكلّمون به . كان نفرٌ منهم فى غزوة تَبوك : وَديعة بن ثابت ، وجُلاس بن سُوَيد ، ومَخشىّ بن حُمَيّر الأشجعىّ حليف بنى سَلِمَة ، وثعلبة بن حاطب ، فقال ثعلبة : أتحسبون قتال بنى الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأنّهم غدًا مقرّنين فى الحبال ! وقال وَديعة : إنَّ قُرّاءَنا[٥]

(١) سورة ٩ التوبة ٦١
(٢) سورة ٩ التوبة ٦٢
(٣) سورة ٩ التوبة ٦٣
(٤) سورة ٩ التوبة ٦٤
(٥) فى الأصل : « أقرانا » .

هؤلاء أَوعبنا[١] بطوناً ، وأَحدثنا نِسبةً ، وأَجبننا عند اللقاء . فقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم لعَمّار بن ياسر : أَدركهم فقد احترقوا . ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٢] إلى قوله ﴿بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ﴾[٣] فالذى عُفِى عنه فى هذه الآية مَخشىّ بن حُمَيِّر ؛ والذى قال : « إنما كنّا نخوض ونلعب » وَديعة بن ثابت ، وجاءَ إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم يعتذر إليه ؛ فنزل ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ﴾ والذى قال كلمة الكفر الجُلاس بن سُوَيد بن الصامت ؛ والذى عُفِى عنه فى هذه الآية مَخشىّ بن حمَيّر ، فتِيب عليه فسمّاه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عبد الرحمن ، وسأَله أَن يُقتَل شهيدًا لا يُعلَم بمكانه فقُتِل يوم اليمامة شهيدًا . قال الله عزّ وجلّ : ﴿المُنافِقُونَ وَالمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ﴾[٤] قال : كان نساءٌ منافقات مع رجال . وقوله : ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَولياء بعض ؛ ﴿يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ﴾ بأَذى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتكذيبه ؛ ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ﴾ عن اتّباعه ؛ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ لا يتصدّقون على فقراء المسلمين ؛ ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ يقول: تركوا الله فتركهم الله. ﴿وَعَدَ اللهُ المُنافِقينَ وَالمُنافِقاتِ وَالكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فيها هِيَ حَسْبُهُمْ﴾[٥] يقول: هى جزاءهم ؛ ﴿وَلَعَنَهُمُ اللهُ﴾ يعنى فى الدنيا ؛ ﴿وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ﴾ فى الآخرة . ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ﴾[٦] يعنى مَن كان قبلكم من الأُمَم ممَّن كذب الأَنبياءَ واستهزى بهم ، وقد رزقهم

---

(١) فى الأصل : « أرعبنا » بالراء .
(٢) سورة ٩ التوبة ٦٥
(٣) سورة ٩ التوبة ٦٦
(٤) سورة ٩ التوبة ٦٧
(٥) سورة ٩ التوبة ٦٨
(٦) سورة ٩ التوبة ٦٩

الله الأَموال الكثيرة والأَولاد ، فذكر أَنَّهم استمتعوا بخَلاقهم ، ثم ذكر هولاء المنافقين أَنَّهم استمتعوا بخَلاقهم كما استمتع به أُولئك ، وقال : ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا﴾ يقول : استهزيتم كما استهزى أُولئك ؛ ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعمَالُهُمْ فى الدُّنْيا والآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾ يعنى الأُمَم التى كانت قبلهم ، وهم المنافقون . ﴿وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾[١] يقول : يأمرون بالإسلام وينهون عن الكفر ؛ ﴿وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾ يتصدّقون على الفقراء ﴿وَيُطيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ . يقول : ﴿يَا أَيُّها النَّبِىُّ جاهِدِ الكُفَّارَ﴾[٢] يعنى المشركين بالسيف ؛ ﴿وَالمُنافِقينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فأَمره أَن يَغلُظ على المنافقين بلسانه ؛ ﴿ومَأْواهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يعنى الكافرين والمنافقين . ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾[٣] وديعة بن ثابت ؛ ﴿وَهَمُّوا بما لَمْ يَنالُوا﴾ قالوا : نضع التاج على رأس عبد الله بن أُبَىّ فنتوّجه إذا رجعنا ، ويقال هم الذين همّوا بالنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فى العَقَبَة ؛ ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ نزلت فى الجُلاس بن سُوَيد ، كانت له دِية فى الجاهليّة فلمّا قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَخذها له وكان محتاجاً . ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحينَ﴾[٤] . ﴿فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[٥] إلى قوله ﴿وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ﴾[٦] نزلت فى ثعلبة

---

(١) سورة ٩ التوبة ٧١
(٢) سورة ٩ التوبة ٧٣
(٣) سورة ٩ التوبة ٧٤
(٤) سورة ٩ التوبة ٧٥
(٥) سورة ٩ التوبة ٧٦
(٦) سورة ٩ التوبة ٧٧

ابن حاطب ، وكان محتاجاً لا يجد ما يتصدّق به ، فقال : واللهِ لئن آتانى الله مالًا لأتصدّقنّ ولأكوننّ من الصالحين . فأصاب دِية ، اثنى عشر ألف درهم ، فلم يتصدّق ولم يكن من الصالحين . ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] قال : جاء زيد بن أسلم العَجْلانىّ بصدقة ماله ، فقال مُعَتّب ابن قُشَير وعبد الله بن نَبْتَل : إنّما أراد الرِّياء من المؤمنين فى الصدقات ؛ ﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ نزلت فى عُلْبَة بن زيد الحارثىّ ، رأى النبىّ صلَّى الله عليه وسلّم خميصَ البطن ، فجاء إلى رجلٍ من اليهود فقال : أُوجرُكَ نفسى أَجْرَ الجريرَ[٢] على أن تُعطينى صاعاً من تمر لا تُعطينى فيه خَدِرَة — الخَدِرَة التى فيها الدخان . أو يقال : جَديد[٣] ولا حَشَف[٤]. قال : نعم . فعمل معه إلى العصر ، ثم أخذ التمر فجاء به إلى النبىّ صلَّى الله عليه وسلّم ، فجعل عبد الله بن نَبْتَل يقول : انظروا إلى هذا وما يصنع ، ما كان الله يصنع بهذا ، أما كان الله غنيًّا عن هذا ؟ ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ..﴾[٥] إلى آخر الآية . قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم ودُعِى ليُصلِّى على عبد الله بن أُبَىّ فقال : لوأعلم أنّى إن زدت على السبعين غُفِر له ازدتُ ؛ إنّى خُيِّرْتُ فاخترت ! ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾[٦] إلى قوله ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٧] قال : نزلت فى الجَدّ بن قيس . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿فَإِنْ

---

(١) سورة ٩ التوبة ٧٩

(٢) أى أستقى الماء بالحبل . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٥٥) .

(٣) فى الأصل : « خديد » .

(٤) الحشف : اليابس الفاسد من التمر . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٣١) .

(٥) سورة ٩ التوبة ٨٠

(٦) سورة ٩ التوبة ٨١

(٧) سورة ٩ التوبة ٨٢

رَجَعَكَ اللهُ إلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾(١) يعني من سَفْرة تبوك ؛﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلخُرُوجِ﴾ يعني المنافقين الذين كانوا استأذنوه للقعود ؛ ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أوّل سفرى حين خرجت ؛ ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الخالِفِينَ﴾ مع النساء . ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ..﴾(٢) الآية . قال : لمّا مات ابن أُبَيّ وُضِع في موضع الجنائز ، فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليُصلّي عليه ، فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، تُصلِّي عليه وقد قال يوم كذا كذا ، ويوم كذا كذا ؟ فقال : يا عمر بن الخطّاب ، إنّي خُيِّرت فاخترتُ ، فلو أنِّي أعلم أني إن زدت على السبعين صلاة غُفِر له زدتُ ! وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾(٣). فصلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ودفنه ، فلمّا فرغ من دفنه فلم يَرِم مقامَه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ولا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَدًا..﴾(٣) الآية . ﴿ وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾(٤) إلى قوله ﴿بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِفِ﴾(٥) مع النساء ؛ ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ نزلت في الجَدّ بن قيس ، وكان مَيِّالاً ، كثيرَ المال . ﴿وجَاءَ المُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ﴾(٦) يعني المعتذرون ، وهم أحد وثمانون من غِفار ؛ ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في القعود ، يقول : ويُعذَروا في الخروج ؛ ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ يقول : قعد المنافقون الذين تخلّفوا ، وقالوا : أجلسوا إن أذِن

(١) سورة ٩ التوبة ٨٣
(٢) سورة ٩ التوبة ٨٤
(٣) سورة ٩ التوبة ٨٠
(٤) سورة ٩ التوبة ٨٦
(٥) سورة ٩ التوبة ٨٧
(٦) سورة ٩ التوبة ٩٠

لكم أو لم يأذن . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ﴾[١] أهل الزَّمانة والشيخ الكبير ؛ ﴿وَلا عَلَى المَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ﴾ يعنى المُعسِر ؛ ﴿حَرَجٌ إذا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى المُحْسِنِينَ مِنْ سَبيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ﴾ إذا كانوا هكذا . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ﴾[٢] هؤلاء البكّاؤون وهم سبعة : أبو ليلى المازنىّ ، وسَلَمَة بن صَخر الزُّرَقىّ ، وثعلبة بن عَنَمَة السُّلَمىّ ، وعبد الله بن عمرو المُزَنىّ ، وسالم بن عُمَير[٣] . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿إنَّما السَّبيلُ عَلَى الَّذينَ يَسْتَأْذِنونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِفِ﴾[٤] مع النساء ، يعنى الجدّ بن قيس . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إلَيْكُمْ إذا رَجَعْتُمْ إلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾[٥] أى لن نُصدّقكم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ﴾ يعنى ما أخبره من قصّتهم ، ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ يعنى المنافقين ؛ إلى قوله ﴿سَيَحْلِفُونَ باللهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ إلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾[٦] يعنى لا تلوموهم ؛ ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ يعنى اتركوهم ؛ ﴿إنَّهُمْ رِجْسٌ ومأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ

---

(١) سورة ٩ التوبة ٩١
(٢) سورة ٩ التوبة ٩٢
(٣) هكذا فى الأصل خمسة فقط
(٤) سورة ٩ التوبة ٩٣
(٥) سورة ٩ التوبة ٩٤
(٦) سورة ٩ التوبة ٩٥

لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ . . ﴾(١) إلى آخر الآية . يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللهُ . . ﴾(٢) إلى آخر الآية . قال : يعني الأعراب . ﴿ وَمِنَ الأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً ﴾(٣) إلى قوله ﴿ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ ﴾(٤) يعني دعاء الرسول ﴿ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فى رَحْمَتِهِ ﴾ . يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأَنْصارِ ﴾(٥) يعني مَن صلَّى القِبلتَيْن منهم ؛ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ .. ﴾ إلى آخر الآية . يعني مَن أسلم قبل الفتح . وفى الفتح يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرابِ مُنافِقُونَ ﴾(٦) كان رجال من العرب ، منهم عُيَيْنة بن حِصن وقومه معه يُرضون أصحاب النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ويُرونهم أنهم معهم ويُرضون قومَهم الذين هم على الشرك . ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينَةِ ﴾ يعني منافقى المدينة ؛ ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ ﴾ يقول مردوا فى النفاق ؛ ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ثم أعلمهم الله عزَّ وجلّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعدُ ، ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ يعني الأعراب ، يقول : الجوع وعذاب القبر ؛ ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذابٍ عَظِيمٍ ﴾ يقول : إلى النار . ﴿ وَآخَرونَ اعْتَرَفُوا بِذُنوبِهِمْ .. ﴾(٧) إلى آخر الآية ، نزلت فى أبى لُبابة بن عبد المُنذر حين أشار إلى بنى قُرَيْظَة أنَّه الذبح . ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾(٨) يعني المسلمين ، صدقات أموالهم يعني تُزكّيهم ؛

---

(١) سورة ٩ التوبة ٩٦
(٢) سورة ٩ التوبة ٩٧
(٣) سورة ٩ التوبة ٩٨
(٤) سورة ٩ التوبة ٩٩
(٥) سورة ٩ التوبة ١٠٠
(٦) سورة ٩ التوبة ١٠١
(٧) سورة ٩ التوبة ١٠٢
(٨) سورة ٩ التوبة ١٠٣

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ استغفر لهم . يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ ﴾(١) يقول : من أقبل وتاب ، ويقبل الصدقات ، ما يُراد بها وجهُ الله . يقول الله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ . . ﴾(٢) إلى آخر الآية . ﴿ وَآخَرُون مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ . . ﴾(٣) إلى آخر الآية ، يعنى الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أُمَيَّة ، ومُرارة بن الرَّبيع . ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المُؤْمِنِينَ وَإِرْصادًا لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾(٤) يعنى أبا عامر ، ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المُؤْمِنينَ ﴾ يعنى أن يُفرِّقوا بين بنى عمرو بن عوف ، ويُصلّى بعضهم فيه ، ﴿ وإِرْصادًا لِمَنْ حارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى أبا عامر ، يقول : يَقدَم علينا من الشام فيتحدّث عندنا فيه ! هو لا يدخل مسجد بنى عمرو ابن عوف . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الحُسْنَى . . ﴾ إلى آخر الآية . ﴿ لاتَقُمْ فيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾(٥) إلى قوله ﴿ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظّالِمِينَ ﴾ يقول : لا تُصلِّ فيه وصلِّ فى مسجد بنى عمرو بن عوف . قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لقد أسَّسْته بيدى ، وجبريل يؤمّ بنا البيت . وأمّا قوله عزَّ وجلّ : ﴿ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ كان رجال يستنجون بالماء ، منهم عُوَيم بن ساعدة . يقول الله عزَّ وجلّ : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلَى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ

(١) سورة ٩ التوبة ١٠٤
(٢) سورة ٩ التوبة ١٠٥
(٣) سورة ٩ التوبة ١٠٦
(٤) سورة ٩ التوبة ١٠٧
(٥) سورة ٩ التوبة ١٠٨

بِهِ فى نَارِ جَهَنَّمَ﴾(١) . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿لا يَزالُ بُنْيانُهُمْ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فى قُلُوبِهِمْ﴾(٢) يقول : شكٌّ فى قلوبهم ؛﴿إلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يقول : إلاّ أن يموتوا . قال : حدّثنا ابن أبى الزِّناد ، عن شَيْبَة بن نِصاح ، عن الأعرج ، قال : إنما عنى الرجلَيْن ولم يعْنِ المسجد ، أى فى قوله ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ﴾.

وقوله :﴿إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ﴾(٣) إلى قوله :﴿وذلك هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ يقول : اشترى من الذين يُجاهدون فى سبيله ويُنفقون أموالَهم فيه بأَنَّ لهم الجنَّة . قوله عزّ وجلّ : ﴿ما كانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِى قُرْبَى﴾(٤) إلى قوله :﴿أَصْحابُ الجَحِيمِ﴾. قال : لما مات أَبو طالب استغفر له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقال : لأَستغفرنَّ لك حتى أُنهَى ! فاستغفر المسلمون لموتاهم من المشركين ، فنزلت هذه الآية : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾ يقول : ماتوا على كفرهم فلا يتوبون . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وَمَا كانَ اسْتِغْفارُ إبراهِيمَ لأَبيهِ إلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاهُ﴾(٥) قال : وعده أن يُسلم ؛ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ لما مات على كفره تبرّأ منه ؛ ﴿إنَّ إبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ . قال : الأَوّاه الدَّعَّاء . قوله عزّ وجلّ : ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إذْ هَداهُمْ . .﴾ إلى آخر الآية . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿لَقَدْ تابَ اللهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالمُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فى ساعَةِ العُسْرَةِ﴾(٦) يعنى غزوة العُسْرَة ، وهى غزوة تَبوك ، وكانت فى زمنٍ شديدِ الحرّ ؛ ﴿مِنْ بَعْدِ ما

---

(١) سورة ٩ التوبة ١٠٩
(٢) سورة ٩ التوبة ١١٠
(٣) سورة ٩ التوبة ١١١
(٤) سورة ٩ التوبة ١١٣
(٥) سورة ٩ التوبة ١١٤
(٦) سورة ٩ التوبة ١١٧

كادَ يَزيغُ قُلوبُ فَريقٍ مِنْهُمْ﴾ يقول : أبى خَيْثَمَة وما حدّث نفسه بالتخلّف عن النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم لشدّة الحرّ وبُعد الشُّقَّة[1]، ثم عزم له على الخروج ؛ ﴿ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحيمٌ﴾ . ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ﴾[2] إلى قوله : ﴿التَّوّابُ الرَّحيمُ﴾ وهو كعب بن مالك ، وهلال بن أُمَيّة ، ومُرارة بن الرَّبيع . وأما قوله : ﴿الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ يعنى مَن تعذّر إلى النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ممّن قُبِل منهم . قوله : ﴿ما كانَ لأَهْلِ المَدينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ﴾[3] يعنى غِفار ، وأسلم ، وجُهَينة ، ومُزَينة ، وأشجع ؛ ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ﴾ فى غزوة تَبوك ؛ ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ يعنى عطش ؛ ﴿وَلا نَصَبٌ﴾ يعنى تعب ؛ ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ مَجاعة ؛ ﴿ولايَطَؤُنَ مَوْطِئاً﴾ بلاد الكفّار ؛ ﴿وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ﴾ . قوله عزّ وجلّ : ﴿وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً..﴾[4] إلى آخر الآية . قوله عزّ وجلّ : ﴿وَما كانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ..﴾[5] إلى آخر الآية ، يقول : ما كان المؤمنون إذا خرج رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى غزوةٍ أن يَنْفِروا كلُّهم ويتركوا المدينة خُلوفاً بها الذَّرارىّ ، ولكن يَنفِر من كلّ قبيلةٍ طائفةٌ . يقول : بعضهم لينظروا كيف سير رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى المشركين ويَعُوا ما سمعوا منه ؛ ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يعنى يخافون الله .

---

(١) فى الأصل : « المشقة » . والشقة : السفر البعيد . (لسان العرب : ج ١٢ : ص ٥١) .

(٢) سورة ٩ التوبة ١١٨

(٣) سورة ٩ التوبة ١٢٠

(٤) سورة ٩ التوبة ١٢١

(٥) سورة ٩ التوبة ١٢٢

يقول: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ ..﴾(١) إلى آخر الآية. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إيماناً﴾(٢) يعنى يقيناً وتسليماً؛ فيقول الذين آمنوا: زادتنا يقيناً وتسليماً؛ وأمّا المنافقون فزادتهم شكًّا وريبةً إلى ما كانوا فيه. ويقال إنّها فى المشركين، فزادتهم شكًّا وثباتاً على دينهم، وماتوا وهم كافرون. يقول الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فى كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾(٣) فأمّا مَن جعلها فى المنافقين فيقول: يَكذِبون فى السنة مرّة أو مرّتين، وأمّا من زعم أنّها فى المشركين يقول: يُبتَلون بالغزو فى السنة مرّة أو مرّتين؛ ﴿ثُمَّ لا يَتُوبُونَ﴾ يقول: لا يُسلمون. ﴿وَإذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ..﴾(٤) إلى آخر الآية. وكان عبد الله بن نَبْتَل يجلس عند النبىّ صلّى الله عليه وسلّم ومعه أصحابه المنافقون، فإذا خلا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خلا بعضهم ببعض؛ ﴿هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ يعنون المسلمين؛ يقول: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ يعنى استهزأوا فكذّبوا بالحقّ؛ ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عنه. يقول الله عزّ وجلّ وهو يذكر نبيّه: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾(٥) يقول: منكم؛ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ﴾ يقول: ما أخطأتم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾. ﴿فَإنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إلهَ إلّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ﴾(٦).

حَجّة أبى بكر رضى الله عنه سنة تسع

قال: حدّثنى مَعْمَر، ومحمّد بن عبد الله، وابن أبى حَبيبة، وابن أبى

(١) سورة ٩ التوبة ١٢٣
(٢) سورة ٩ التوبة ١٢٤
(٣) سورة ٩ التوبة ١٢٦
(٤) سورة ٩ التوبة ١٢٧
(٥) سورة ٩ التوبة ١٢٨
(٦) سورة ٩ التوبة ١٢٩

سَبْرَة ، وأُسامة بن زيد ، وحارثة بن أَبي عِمران ، وعبد الحَميد بن جَعفر ؛ وكلٌّ واحدٍ قد حدّثنى بطائفة من هذا الحديث ، وغيرُهم ، قالوا : كان قبل أن تنزل « براءة » ، قد عاهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ناساً من المشركين عَهدًا ؛ فاستعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر على الحجّ ، فخرج أَبو بكر رضى الله عنه فى ثلاثمائة من المدينة ، وبَعَث معه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بعشرين بَدَنَةً ، قلّدها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم النِّعالَ ، وأَشعَرها بيده فى الجانب الأَيمن ، واستعمل عليها ناجِيةَ بن جُنْدُب الأَسلمىّ ، وساق أَبو بكر رضى الله عنه خمسَ بَدَنات . وحَجّ عبد الرحمن بن عَوف فأَهدى بُدْناً ، وقومٌ أَهل قُوّة ، وأَهلّ أَبو بكر رضى الله عنه من ذى الحُلَيْفَة ، وسار حتى إذا كان بالعَرْج فى السَّحَر سمع رُغاء ناقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم القَصْواء ، فقال : هذه القَصْواء ! فنظر فإذا عَلىّ بن أَبى طالب عليه السلام عليها ، فقال : استعملك رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم على الحجّ ؟ قال : لا ، ولكن بعثنى أَقرأُ « براءة » على الناس، وأَنبِذُ إلى كلّ ذى عَهْدٍ عهدَه . وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عَهِد إلى أَبى بكر أَن يُخالف المشركين ، فيَقِف يوم عَرَفَة بعَرَفَة ولا يَقِف بجَمْعٍ [1] ، ولا يدفع من عَرَفَة حتى تَغرُب الشمس ، ويدفع من جَمْعٍ قبل طلوع الشمس . فخرج أَبو بكر حتى قدم مكّة وهو مُفْرِدٌ بالحجّ ، فخَطَب الناس قَبْلَ التَّروية بيومٍ بعد الظُّهر ، فلمّا كان يوم التَّروية حين زاغت الشمس طاف بالبيت سبعاً ، ثم ركب راحلتَه من باب بنى شَيْبَة ، وصلّى الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمِنًى . ثم لم يركب حتى طلعت الشمس على ثَبير ، فانتهى إلى نَمِرَة [2] ، فنزل فى قُبّة من شَعَرٍ فقال فيها ، فلمّا زاغت الشمس ركب راحلتَه فخَطَب ببَطْن عُرَنَة ، ثم أَناخ فصلّى الظُّهر والعصر بأَذانٍ وإقامتَيْن ،

---

(١) جمع : هو المزدلفة . (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣٨) .
(٢) نمرة : ناحية بعرفة معلوم . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٣١٧) .

ثم ركب راحلتَه ، فوقف بالهِضاب ــ الهِضاب : عَرَفَة ، والمُصلَّى من عَرَفَة ــ فلمّا أفطر الصائم دفع ، فكان يسير العَنَقَ[١] حتى انتهى إلى جَمْعٍ ، فنزل قريباً من النار التى على قُزَح[٢] . فلمّا طلع الفجر صلّى الفجر ، ثم وقف ، فلمّا أسفر[٣] دفع ، وجعل يقول فى وقوفه : يا أيّها الناس ، أسفِروا ! يا أيّها الناس ، أسفِروا ! ثم دفع قبل الشمس ، فكان يسير العَنَقَ حتى انتهى إلى مُحَسِّر[٤] فأوضع راحلته ، فلمّا جاز وادى مُحَسِّر عاد إلى مَسيره الأوّل ، حتى رمى الجَمْرَة راكباً ، سبع حَصَيات ، ثم رجع إلى المَنْحَر فَنَحَرَ ، ثم حَلَق . وقرأ علىُّ بن أبى طالب رضوان الله عليه يوم النحر عند الجَمْرَة « براءة » ، ونَبَذ إلى كلّ ذى عهد عهدَه . قال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : لا يَحُجّ بعد العام مُشرِكٌ ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان .

وكان أبو هُرَيرة يقول : حضرتُ ذلك اليوم ــ فكان يقول : هو يوم الحجّ الأكبر ــ فخَطَب أبو بكر رضى الله عنه يوم النَّحْر بعد الظهر على راحلته . فكان أبو بكر قد خَطَب فى حَجّته ثلاثةَ أيّام لم يَزِد عليها ؛ قبل التّروية بيومٍ بمكّة بعد الظهر ، وبعَرَفَة قبل الظهر ، وبمِنًى يومَ النَّحْر بعد الظهر . وأقام أبو بكر رضى الله عنه يَرمِى الجِمارَ ماشياً ، ذاهباً وجائياً ، فلمّا كان يوم الصَّدَر[٥] ــ قالوا : رمى ماشياً ــ فلمّا جاوز العَقَبَة رَكِب . ويقال : رمى يومئذٍ راكباً ، فلمّا انتهى إلى الأَبْطَح صلّى به الظُّهر ، ودخل مكّةَ فصلّى بها المغربَ والعشاء ، ثم خرج من لَيْلَتِه قافلاً إلى المدينة .

---

(١) العنق : ضرب من سير الدابة والإبل ، وهو سير مسبطر . (الصحاح ، ص ١٥٣٣) .
(٢) قزح : القرن الذى يقف الإمام عنده بالمزدلفة . (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٧٧) .
(٣) أسفر الصبح إذا انكشف وأضاء . والمعنى ها هنا : طول صلاة الفجر إلى الإسفار . (الصحاح ، ص ٦٨٧) .
(٤) محسر : واد بجمع . (معجم ما استعجم ، ص ٥٠٩) .
(٥) الصدر : اليوم الرابع من أيام النحر . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٦٨) .

سريّة عَلى بن أَبى طالب عليه السلام إلى اليمن

قالوا : بعث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عَلىّ بن أَبى طالب عليه السلام فى رمضان سنة عشر ، فأَمره رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعسكر بقُباء ، فعسكر بها حتّى تَتامَّ أَصحابُه ، فعقد له رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يومئذٍ لِواءً ، أَخذ عِمامةً فلفَّها مَثْنِيَّةً مُرَبَّعَةً فجعلها فى رأس الرُّمْح ، ثم دفعها إليه(١) وقال : هكذا اللِّواء ! وعمّمه عِمامةً ، ثلاثةَ أَكوار ، وجعل ذراعاً بين يدَيْه وشِبْرًا من ورائه ، ثم قال : هكذا العِمَّة !

قال : فحدّثنى أُسامة بن زيد ، عن أَبيه ، عن عَطاء بن يَسار ، عن أَبى رافع ، قال : لمّا وجّهه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : امضِ ولا تَلتفِتْ ! فقال عَلىٌّ عليه السلام : يا رسول الله ، كيف أَصنع ؟ قال : إذا نزلتَ بساحتهم فلا تُقاتِلْهم حتى يُقاتلوك ، فإن قاتلوك فلا تُقاتِلْهم حتى يَقتُلوا منكم قتيلاً ، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تُقاتِلهم ، تَلَوَّمْهُمْ تُرِهِمْ أَناةً(٢) ، ثم تقول لهم : هل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلاّ الله ؟ فإن قالوا نعم فقل : هل لكم أَن تُصَلُّوا ؟ فإن قالوا نعم فقل : هل لكم أَن تُخرجوا من أَموالكم صَدَقَةً تَرُدُّونها على فقرائكم ؟ فإن قالوا نعم ، فلا تَبْغِ منهم غيرَ ذلك . واللهِ ، لأَن يَهدِىَ الله على يدك رجلاً واحدًا خيرٌ(٣) لك ممّا طلعتْ عليه الشمس أَو غَرَبت !

قال : فخرج فى ثلاثمائة فارسٍ ، فكانت خيلهم أَوّل خيل دخلت تلك البلاد ، فلمّا انتهى إلى أَدنى الناحية التى يُريد — وهى أَرض مَذْحِج — فرّق

(١) فى الأصل : « إليهم » .
(٢) فى الأصل : « بلومهم برمهم اياه » . والتلوم : الانتظار والتمكث . (الصحاح ، ص ٢٠٣٤) . (٣) فى الأصل : « خيرا » .

أَصحابَه ، فأَتَوْا بِنَهْبٍ وغنائمَ وسَبْيٍ ونساءٍ وأَطفالٍ ونَعَمٍ وشاءٍ وغير ذلك . فجعل عَلِىٌّ على الغنائم بُرَيدة بن الحُصَيب ، فجمع إليه ما أَصابوا قبل أن يلقاهم جَمْعٌ ، ثم لقى جَمْعاً فدعاهم إلى الإسلام وحرّض بهم ، فأَبَوْا ورَمَوْا فى أَصحابه ، ودفع لِواءه إلى مسعود بن سِنان السُّلَمىّ فتقدّم به ، فبرز رجلٌ من مَذْحِجٍ يدعو إلى البِراز ، فبرز إليه الأَسود بن الخُزاعىّ السُّلَمىّ ، فتجاولا ساعةً وهما فارسان ، فقتله الأَسود وأَخذ سَلَبَه . ثم حمل عليهم عَلِىٌّ بأَصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً ، فتفرّقوا وانهزموا وتركوا لِواءهم قائماً ، فكفّ عن طلبهم ودعاهم إلى الإسلام ، فسارعوا وأَجابوا ، وتقدّم نَفَرٌ من رؤَسائهم فبايعوه على الإسلام ، وقالوا : نحن على مَن وراءنا من قومنا ، وهذه صَدَقاتنا فخُذْ منها حقّ الله !

قال : فحدّثنى عمر بن محمّد بن عمر بن عَلِىّ ، عن أَبيه ، قال : وجَمَع عَلِىٌّ عليه السلام ما أَصاب من تلك الغنائم فجَزَّأَها خمسة أَجزاءٍ ، فأَقرع عليها ، فكتب فى سَهْمٍ منها « لله » ، فخرج أَوّلَ السهام سهمُ الخُمُس ، ولم يُنفِّل أَحدًا من الناس شيئاً . فكان مَن قبله يُعطُون أَصحابهم ــ الحاضر دون غيرهم ــ من الخُمُس . ثم يُخبَر بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلا يردّه عليهم ، فطلبوا ذلك من عَلِىٍّ عليه السلام فأَبى وقال : الخمس أَحمِلُه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيرى فيه رأيه ، وهذا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُوافى المَوْسِم ، ونَلقاه ويَصنَع فيها ما أَراه الله . فانصرف راجعاً ، وحمل الخُمُس وساق معه ما كان ساق ، فلمّا كان بالفُتُق[1] تعجّل . وخلّف على أَصحابه والخُمُسِ أَبا رافع ، فكان فى الخُمُس ثيابٌ

(١) الفتق : قرية بالطائف . (معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٣٣٨) .

من ثياب اليمن ، أحمالٌ مَعكومة[١] ، ونَعَمٌ تُساق ممّا غَنِموا ، ونَعَم من صَدَقَة أموالهم .

قال أبو سَعيد الخُدْرِيّ — وكان معه فى تلك الغزوة — قال : وكان عَلِىٌّ عليه السلام ينهانا أن نركب على إبل الصَّدَقَة ؛ فسأل أصحاب عَلِىٍّ عليه السلام أبا رافع أن يَكسوَهم ثياباً فكساهم ثوبَيْن ثوبَيْن . فلمّا كانوا بالسِّدْرَة داخلين مكّة ، خرج عَلِىٌّ عليه السلام يتلقّاهم ليَقدَم بهم فيُنزلهم ، فرأى على أصحابنا ثوبَيْن ثوبَيْن على كلّ رجل ، فعرف الثياب فقال لأبى رافع : ما هذا ؟ قال : كلّمونى ففَرِقتُ من شِكايتهم ، وظننت أنّ هذا يسهل عليك ، وقد كان مَن كان قبلك يفعل هذا بهم . فقال : رأيتَ إبائى[٢] عليهم ذلك ! وقد أعطيتَهم ، وقد أمرتُك أن تحتفظ بما خلّفتُ ، فتُعطيهم ! قال : فأبى عَلِىٌّ عليه السلام أن يفعل ذلك حتى جَرّد بعضهم من ثَوْبيه ، فلمّا قَدِموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شَكَوْا ، فدعا عَلِيًّا فقال : ما لأصحابك يشكونك ؟ فقال : ما أشكيتُهم[٣] ؟ قسمتُ عليهم ما غَنِموا ، وحبست الخُمُس حتى يقدَم عليك وتَرى رأيكَ فيه ، وقد كانت الأمراء يفعلون أمورًا ، يُنفّلون مَن أرادوا من الخُمُس ، فرأيت أن أحمله إليك لتَرى فيه رأيك . فسكت النبىّ صلّى الله عليه وسلّم .

قال : فحدّثنى سَالم مولى ثابت ، عن سالم مولى أبى جعفر ، قال : لمّا[٤] ظهر عَلِىٌّ عليه السلام على عدوّه ودخلوا فى الإسلام ، جمع ما غَنِم واستعمل عليه بُرَيدة بن الحُصَيب ، وأقام بين أظْهُرهم ، فكتب إلى رسول الله صلّى

(١) عكمت الثياب إذا شددت بعضها على بعض . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٢١) .
(٢) فى الأصل : « أثوابى » .
(٣) يقال : أشكيت الرجل إذا أزلت شكواه ، وإذا حملته على الشكوى . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٣٤) .
(٤) فى الأصل : « إنما » .

الله عليه وسلَّم كتاباً مع عبد الله بن عمرو بن عَوف المُزَنىّ يُخبره أنَّه لقى جَمْعاً من زَبيدٍ وغيرهم ، وأنَّه دعاهم إلى الإسلام وأعلمهم أنَّهم إن أسلموا كفّ عنهم ، فأَبَوْا ذلك وقاتلهم . قال عَلىٌّ عليه السلام : فرزقنى اللهُ الظفر عليهم حتى قُتِل منهم مَن قُتِل . ثم أجابوا إلى ما كان عُرِض عليهم ، فدخلوا فى الإسلام وأطاعوا بالصَّدَقة ، وأتى بَشَرٌ منهم لِلدِّين ، وعلَّمهم قراءةَ القرآن . فأمره رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُوافيه فى الموسم ، فانصرف عبد الله بن عمرو بن عَوف إلى عَلىٍّ عليه السلام بذلك .

قال : فحدَّثنى سَعيد بن عبد العَزيز التَّنُوخىّ ، عن يونس بن مَيْسَرَة ابن حُلَيس ، قال : لمّا قدم عَلىّ بن أبى طالب عليه السلام اليمن خطب به ، وبلغ كعبَ الأحبار قيامُه بخُطْبَته ، فأقبل على راحلته فى حُلَّةٍ ، معه حَبْرٌ من أحبار اليهود ، حتى استمعا له فواقفاه ، وهو يقول : إنَّ مِن الناس مَن يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار . قال كعب : صدق ! فقال عَلىٌّ : وفيهم مَن لا يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار . فقال كعب : صدق ! فقال عَلىٌّ عليه السلام : ومَن يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة . فقال كعب : صدق ! فقال الحَبْر : وكيف تُصدِّقه ؟ قال : أمّا قوله : « من الناس مَن يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار » فهو المؤمن بالكتاب الأوّل ولا يومن بالكتاب الآخر . وأمّا قوله : « منهم من لا يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار » فهو الذى لا يؤمن بالكتاب الأوّل ولا الآخر . وأمّا قوله : « من يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة » فهو ما يقبل الله من الصَّدَقات . قال : وهو مَثَلٌ رأيتُه بيِّن ! قالوا : وجاء كعباً سائلٌ فأعطاه حُلَّته ، ومضى الحَبْرُ مُغضَباً ؟ ومثلت بين يدى كعب امرأةٌ تقول : مَن يُبادل راحلةً براحلة ؟ فقال كعب : وزيادة حُلَّة ؟ قالت : نعم ! فأخذ كعب وأعطى ، وركب الراحلة ولبس الحُلَّة ،

وأسرع السير حتى لحق الحَبْرَ وهو يقول : مَن يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة !

قال : فحدّثنى إسحاق بن عبد الله بن نِسْطاس ، عن عمرو بن عبد الله العَبْسىّ ، قال : قال كعب الأحبار : لمّا قدم عَلِىّ عليه السلام اليمن ، لقيته فقلت : أخبِرنى عن صفة محمّد . فجعل يُخبرنى عنه ، وجعلت أتبسّم فقال : مِمَّ تتبسّم فقلت : ممّا يُوافق ما عندنا من صفته . فقال[1] : ما يُحلّ وما يُحرِّم ، فقلت : فهو عندنا كما وصفتَ ! وصدّقت برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وآمنت به . ودعوت مَن قِبَلنا مِن أحبارنا ، وأخرجت إليهم سِفْرًا فقلت : هذا كان أبى يختمه علىّ ويقول : لا تفتحه حتى تسمع بنبىٍّ يخرج بيَثْرِب . قال : فأقمتُ باليمن على إسلامى حتى تُوفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وتُوفّى أبو بكر رضى الله عنه ، فقدمت فى خلافة عمر بن الخطابّ رضى الله عنه ؛ ويا ليتَ أنّى كنت تقدّمت فى الهجرة !

---

(١) فى الأصل : « فقلت » .

باب ما جاءَ فيما يُؤْخَذ من الصَّدَقات

أخبرنا ابن أَبى حَيَّة قال : حدّثنا أَبو عبد الله محمّد بن شُجاع الثَّلجىّ ، قال : حدّثنا الواقديّ قال : حدّثنى سالم مولى ثابت ، عن يحيى بن شِبْل ، قال : قرأت كتاباً عند أَبى جعفر فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أَمر به محمّد رسول الله ، أَن يُؤْخذ من صَدَقات المسلمين من سَوائم مواشيهم من كلّ أَربعين شاةٍ شاةٌ إلى عشرين ومائة ، فإذا زادت[1] ففيها شاةٌ إلى المائتين ، فإذا زادت ففيها ثلاث إلى ثلاثمائة ، فإذا زادت شاةٌ ففى كلّ مائةِ شاةٍ شاةٌ . وفى صَدَقة الإبل ، فى أَربع وعشرين فما دونها الغنم فى كلّ خمسٍ شاةٌ ، فإذا بلغت خمساً وعشرين ففيها بنتُ مَخاض ، فإن لم يُوجد بنت مَخاض فابنُ لَبون ذكرٌ إلى أَن تبلغ ستًّا وثلاثين ، فإذا بلغت ستّةً وثلاثين ففيها بنتُ لَبون إلى أَن تبلغ ستًّا وأَربعين ، ففيها حِقّةٌ إلى أَن تبلغ إحدى وستين ففيها جَذَعَة ، إلى أَن تبلغ ستًّا وسبعين ، ففيها ابنتا لَبون ، إلى أَن تبلغ إحدى وتسعين ، ففيها حِقّتان طَروقتا[2] الفحل ، ولا يُؤْخذ فى الصَّدَقَة هَرِمَةٌ ولا تَيْسٌ ، ولا ذات عَوار[3] ، إلّا أَن يشاء المُصدِّق ، ولا يُفَرّق بين مُجتمِع ولا يُجمَع بين متفرّقين ، وما كان من خَليطَيْن فإنّهما يتراجعان بينهما بالسَّويّة . فإذا زادت الإبل على عشرين ومائة ، ففى كلّ خمسين حِقّة ، وفى كلّ أَربعين بنتُ لَبون ، وليس فيما دون ثلاثين من البقر صَدَقَةٌ ، وفى كلّ ثلاثين جَذَعٌ

---

(١) فى الأصل : « فإذا زاد فيها » .

(٢) طروقة الفحل : أى يعلو الفحل مثلها فى سنها . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٣٦) .

(٣) فى الأصل : « ذات عور » . والعوار : العيب . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٣٨) .

أَو جَذَعَة ، وفى كلّ أَربعين مُسِنَّة . وفيما سَقَت السماء أَو سُقِى بالغَيْل[1] العُشْر ، وما سُقِى بالغَرْب[2] نصفُ العُشر ، ومَن كان على يهوديّة أَو نصرانيّة لم يُفتَن عنها ، وأُخِذ منه دينارٌ على كلّ حالِم ، أَو عِدْلُه من المَعافِرِىّ[3].

قال : حدّثنا إبراهيم بن أَبى بكر بن المُكَيْدِر ، عن حُسَين بن أَبى بَشير المازنىّ ، عن أَبيه ، عن أَبى سعيد الخُدْرىّ ، قال : كنّا مع عَلىٍّ عليه السلام باليمن ، فرأَيته يأْخذ الحَبّ من الحَبّ ، والبعير من الإبل ، والشاء من الغنم ، والبقرة من البقر ، والزّبيب من الزّبيب ، وكان لا يُكلّف الناس مَشقّة ، وكان يأْتيهم فى أَفنِيتهم[4] فيُصدّق مَواشِيَهم ويأْمر من يَسقَب بذلك ، وكان لا يُفرّق الماشية ، كان يقعد فما أُتِى به من شاةٍ فيها وفاءٌ له أَخذها ، ويأْمر مَن يَسقَب بذلك ويُقْسَم على فقرائهم — يسقب : يسعى عليهم — يأْخذ الصَّدَقة مِن ها هنا ومِن هاهنا ؛ يعرفهم .

قال : حدّثنا الحارث بن محمّد الفِهْرىّ ، عن إسحاق بن عبد الله بن أَبى فَرْوَة ، عن رَجاء بن حَيْوَة قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث خالد بن سَعيد بن العاص مع رُسُل حِمْيَر ، وبعث عَليًّا عليه السلام ؛ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: إن اجتمعتما فى مَكيدة فعَلىٌّ على الناس ، وإن افترقتما فكلٌّ على حِدة . قال رجاء : وكان قد قضى بها قضيّةً ؛ دية النفس مائةً من الإبل على أَهل الإبل ، وأَلفَى شاة على أَهل الغنم ؛ مائتى جَذَعَة — أَى ثم ضالع[5] الشاة جَذَعَة ، ثم ثنيّة — ومائتى بقرة نصفها تَبيع ونصفها مَسانّ . وعلى أَهل الحُلَل أَلْفَى ثوبٍ مَعافِرِيّة .

---

(١) الغيل : الماء الجارى على وجه الأرض . (القاموس المحيط ، ج ٤ ، ص ٢٧) .
(٢) الغرب : الدلو العظيمة . (الصحاح ، ص ١٩٣) .
(٣) هى برود اليمن منسوبة إلى معافر ، وهى قبيلة باليمن . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٠٩)
(٤) فى الأصل : « أقبيتهم » .
(٥) هكذا فى الأصل . ولعله : « صالغ » . انظر النهاية . (ج ٢ ، ص ٢٧٢) .

قالوا : احتفر قومٌ باليمن بئرًا ، فأصبحوا وقد سقط فيها أسد ، فأصبح الناس ينظرون إليه ، فسقط إنسان فى البئر ، فتعلّق بآخَر فتعلّق الآخَر بآخَر حتى كانوا فى البئر أربعة ؛ فحَرِب[1] الأسد بهم فقتلهم ، فأهوى له رجلٌ برمحه فقتله . فقال الناس : الأوّل عليه ديتهم فهو قتلهم . فأرادوا يُقتبلون ، فمرّ بهم علىٌّ عليه السلام فقال : أنا أقضى بينكم بقضاءٍ ، فمَن رضى فهو إلى قضائه ، ومَن تجاوز إلى غيره فلا حقٌّ له حتى يكون النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يقضى فيكم ؛ اجمعوا مَن حضر البئر من الناس ! فجمعوا كلّ مَن حضر البئر ، ثم قال : ربع دية ، وثلث دية ، ونصف دية ، ودية تامّة ؛ فالأسفل ربع دية ، من أجل أنّه هلك من فوقه ثلاثة ؛ وللثانى ثلث الدية ، لأنّه هلك اثنان ، وللثالث نصف الدية ، من أنّه هلك فوقه واحد ؛ وللأعلى الدية كاملة . فإن رضيتم فهو بينكم قضاء ، وإن لم ترضوا فلا حقٌّ لكم حتى يأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيقضى بينكم . فأتوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى حَجّته وهم عشرة نفر ، فجلسوا بين يديه وقصّوا عليه خبرهم ، فقال : أنا أقضى بينكم إن شاء الله ! فقام أحد النفر فقال : يا رسول الله ، إنّ عَليًّا قد قضى بيننا . فقال : فيم قضى بينكم ؟ فأخبروه بما قضى به ، فقال : هو ما قضى به . فقام القوم فقالوا : هذا قضاءٌ من رسول الله . فلزم المَقْضِىّ عليهم وسألهم عن الأُسْد ، أهى فى بلادهم . فقالوا : يا رسول الله ، إنّها لكثيرة تُغير على ماشيتنا . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ألا أُخبِركم عن الأَسد ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : فإنّه غدا على ابنٍ لِحَوّاء فأكله ، فأقبلت عليه حَوّاء فقالت : ويلك ، أكلت ابنى ! قال : وما يمنعنى أن آكل رزقاً ساقه الله إلىّ . فأقبل

---

(١) حرب : اشتد غضبه . (الصحاح ، ص ١٠٨) .

آدم فقال : ويلك ، تُخاطبها وقد أكلت ابنها ؟ اخْسَأْ ! فطأْطأَ رأسه ، فلذلك لا يمشى إلاّ مطأْطئاً رأسه . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إن شئتم وظَّفتُ له وظيفةً لا يعدوها إلى غيرها ، وإن شئتم تركته يُجالسكم وتحذرون منه . فخلا بعضهم ببعض فقالوا : وَظِّفْ[1] له وظيفة . فقال بعضهم : نَخشى ألاّ يحملها قومنا ولا يُطيعون بها ، فنكونَ قد قلنا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم قولاً لا نَفِى به . فقالوا : يا رسول الله ، دعه يُجالسنا ونتحذّر منه . فقال : فذاك! فولّى القومُ راجعين إلى قومهم ، فلمّا قدموا على قومهم أخبروهم فقالوا : واللهِ ما هُدِيتم لرُشْدكم ، لو قبلتم ما وظَّف له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أَمِنتم منه . فهيّأُوا رجلاً يبعثونه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى ذلك ، فتُوفى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل أن يلقاه الرسول .

قال : وحدّثنى أبو بكر بن عبد الله ، وحاتم بن إسماعيل مولى لآل الحارث بن كعب ، عن جعفر بن محمّد ، عن أبيه ، عن جابر بن عبدالله قال : قدم عَلِىٌّ عليه السلام من اليمن ، فوجد فاطمةَ ممّن حلّ ، ولبست ثياباً صَبيغاً[2] واكتحلت ، فأنكر ذلك عَلِىٌّ عليها فقالت : أمرنى بهذا أبى ! قال عَلِىٌّ ، وهو بالعراق : فذهبتُ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُحرِّشاً[3] على فاطمة للذى صنعت ، مُستَفْتِياً رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم للذى ذَكَرَتْ عنه ، وأخبرتُه أنّى أنكرت ذلك عليها فقالت « أبى أمرنى بذلك » . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : صدقتْ ! ماذا قلتَ حين فرضتَ الحجّ ؟ قال ، قلت : اللّهمّ إنّى أُهِلّ بما أَهَلَّ به رسولُك ! قال :

---

(١) فى الأصل : « وظفها » .
(٢) أى مصبوغة غير بيض ، وهو فعيل بمعنى مفعول . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥١) .
(٣) أراد بالتحريش ها هنا ذكر ما يوجب عتابه لها . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢١٧) .

فإنّ معى الهَدْى فلا تَحِلّ! فكانت جماعة الهَدْى الذى جاء به عَلِىٌّ عليه السلام والذى ساقه النبىّ صلّى الله عليه وسلّم من المدينة مائة بَدَنَة ، فحلّ الناس وقصّ مَن لم يكن معه هَدْى ، ثم نحر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هَدْيه ، وأشرك عليًّا عليه السلام فى هَدْيه .

حَجّة الوَداع

قال : حدّثنى مَعْمَر بن راشد ، وابن أبى سَبْرَة ، وأُسامة بن زيد ، وموسى ابن محمّد ، وابن أبى ذِئب ، وأبو حمزة عبد الواحد بن مَيمون ، وحِزام ابن هشام ، وابن جُرَيج ، وعبد اللهِ بن عامر ، فكلٌّ قد حدّثنى من هذا الحديث بطائفةٍ ، وبعضهم أوعى له من بعض ، وغير من سمّيت قد حدّثنا أيضاً ، قالوا : قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل ، فأقام يُضحّى بالمدينة كلّ عام ، لا يحلق ولا يُقصّره ويغزو المغازى ، ولم يحجّ حتى كان فى ذى القعدة سنة عشر من مُهاجَره ، فأجمع الخروج وآذَن الناسَ بالحجّ ، وقدم المدينة بَشَرٌ كثيرٌ كلّهم يُريد أن يأْتمّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويعمل بعمله . وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد اعتمر ثلاث عُمَر ، أوّلها عمرة الحُدَيبية ، نحر بالحُدَيبية وحلق فى ذى القعدة سنة ستّ ، ثم عمرة القضيّة سنة سبع فى ذى القعدة ، وأهدى ستّين بَدَنَة ، ونحر عند المَرْوَة وحلق ، واعتمر عمرة الجِعِرّانة فى ذى القعدة سنة ثمان .

قال : فحدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن الحارث بن الفُضَيل ، قال : سألت سَعيد بن المُسَيِّب : كم حجّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من لدن نُبِّئَ إلى

أن تُوفِّى؟ قال : حَجَّةً واحدةً من المدينة . قال الحارث : فسألت أبا هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفيَّة ، قال : حجّ حَجَّةً بمكّة قبل الهجرة وبعد النبوّة ، وحَجّته من المدينة . وكان مُجاهد يقول : حَجّتَيْن ، قبل الهجرة . والأمر المعروف عندنا الذى اجتمع عليه أهل بلدنا ، إنما حجّ حَجّةً واحدةً من المدينة ، وهى الحَجّة التى يقول الناس إنها حَجّة الوداع .

قال : فحدّثنى الثّورىّ ، عن لَيث ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، قال : كُرِه أن يقال حَجّة الوداع . فقيل : حَجّة الإسلام ؟ قال : نعم .

قال : فحدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن سَعيد بن محمّد بن جُبَير بن مُطعِم ، عن أبيه قال : خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المدينة يوم السبت لخمس ليالٍ بقين من ذى القعدة ، فصلّى الظّهر بذى الحُلَيفة ركعتَيْن ، وأحرم عند صلاة الظّهر من يومه ذلك ، وهذا الثبت عندنا . قال : فحدّثنا عاصم بن عبد الله ، عن عمر بن الحَكَم ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم انتهى إلى ذى الحُلَيفة عند الظّهر ، فبات لأن يجتمع إليه أصحابه والهَدْى حتى أحرم عند الظّهر من الغد .

قال : فحدّثنى إسماعيل بن إبراهيم بن عُقْبَة ، عن أبيه ، عن كُرَيب ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه قال : خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من بيته مُدَّهِناً مُترجِّلاً[1] مُتجرِّداً[2] حتى أتى ذا الحُلَيفة .

قال : حدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن يعقوب بن زيد ، عن أبيه ، أنّ رسول

---

(١) الترجل والترجيل : تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه . (لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٢٨٧) .

(٢) المتجرد : أى ما جرد عنه الثياب من جسده وكشف ؛ يريد أنه كان مشرق الجسد . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٥٣) .

الله صلَّى الله عليه وسلَّم أحرم فى ثوبَيْن صُحَارِيَّيْن(١)، إزارٍ ورِداءٍ وأبدلهما بالتَّنْعيم بثوبَيْن من جنْسهما .

قالوا : لمّا اجتمع إليه نساؤُه – وكان حجّ بهنّ جميعاً فى حَجّته فى الهَوادج – وانتهى إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم اجتماعُ أصحابه والهَدْى، دخل مسجد ذى الحُلَيفة بعد أن صلَّى الظُّهر وصلَّى ركعتَيْن ، ثم خرج فدعا بالهَدْى فأشعره فى الجانب الأيمن ، وقلَّد نعلَين . ثم ركب ناقته ، فلمّا استوى بالبَيْداء أحرم .

فقال : فحدّثنى خالد بن إلياس ، عن يحيى بن عبد الرحمن ، عن أبى سَلَمَة بن عبد الرحمن ، عن أُمّ سَلَمَة قالت : انتهينا إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بذى الحُليفة ليلاً ، ومعنا عبد الرحمن بن عَوف وعُثمان بن عَفّان ، فبتنا بذى الحُلَيفة ، فلمّا أصبح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رأيت الهَدْى يُعرَض عليه ، فلمّا صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الظُّهر أشعر هَدْيَه وقلَّده قبل أن يُحرم . والقول الأوّل أثبت عندنا أنّه لم يَبِت .

قال محمد بن نُعَيم المُجْمِر ، عن أبيه ، قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : لمّا أراد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُشعر بُدْنَه أتى ببَدَنَة فأشعرها هو بنفسه وقلَّدها . وكان ابن عبّاس يقول : أشعرها ووجهُه إلى القبلة ؛ وساق مائةَ بَدنَة . ويقال : إنّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمر بأن يُشعر ما(٢) فَضَل من البُدْن ناجيةُ بن جُنْدُب ، فاستعمله رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على الهَدْى .

قال : فحدّثنى الهَيْثَم بن واقد ، عن عَطاء بن أبى مَروان ، عن أبيه ،

---

(١) صحار : قرية باليمن نسب الثوب إليها ؛ وقيل : هو من الصحرة ،وهى حمرة خفية كالغبرة . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٣) .

(٢) فى الأصل : « بأن يشعرها » .

عن ناجية بن جُنْدُب ، قال : كنت على هَدْى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى حَجّته ، وكان معى فتيانٌ مِن أسلم ، كنَّا نَسوقها سَوْقاً نبتغى بها الرِّعْى ، وعليها الجلال[1] ، فقلت : يا رسول الله ، أرأيت ما عَطِب منها ، كيف أصنع به ؟ قال : تَنحره وتُلقى قلائدَه فى دمه ، ثم تَضرب به صَفْحَتَه اليُمْنى ، ثم لا تأْكل منها ولا أحدٌ من أهل رُفْقَتك .

قال : ثم قدمنا مكَّة بعد يوم ، ثم رحنا يوم التَّروية إلى عَرَفَة بالهَدْى ، ثم انحدرنا من عرَفَة حتى انتهينا إلى جَمْعٍ ، ثم انتهينا من جَمْعٍ إلى منزل النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمِنًى حيث ضُربت قُبَّتُه ، فأرسل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن سُقِ الهَدْىَ إلى المَنحر ! فرأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ينحر الهَدْى بيدَيْه وأنا أُقدّمها إليه تَعْتَب فى العَقْل[2] .

قالوا : ومرّ[3] النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم برجلٍ يسوق بَدَنَة فقال : اركبْها ويلك ! قال : إنَّها بَدَنَة ! قال : اركبْها ! وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأْمر المُشاة أن يركبوا على بُدْنه .

قالوا : وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : طيَّبتُ لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إحرامه بيدى . وكانت تقول : أحرمتُ مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتطيَّبتُ ، فلمّا كنَّا بالقاحة[4] سال من الصُّفْرَة على وجهى فقال : ما أحسنَ لونَكِ الآن يا شُقَيْراء . وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّى بين مكَّة والمدينة ركعتَيْن ، آمناً لا يخاف إلاَّ الله تعالى ، فلمّا قدم

---

(١) الجلال : جمع جل ، وجل الدابة : الذى تلبسه لتصان به . (لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ١٢٥) .

(٢) العتب : المشى على ثلاث قوائم . (النهاية ، ج ٣ ، ص ٦٤) . وعقل البعير ، ثنى وظيفه مع ذراعه وشدها جميعاً فى وسط الذراع . (لسان العرب ، ج ١٣ ، ص ٤٨٦) .

(٣) فى الأصل : « وأمر » .

(٤) القاحة ، موضع على ثلاث مراحل من المدينة قبل مكة . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٣٥٧) .

مكّة صلّى بهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ركعتَيْن ، ثم سلّم ، ثم قال : أتِمّوا صلاتَكم يا أهل مكّة ، فإنا سَفْرٌ ! وقد اختُلِف علينا فيما أهَلّ به صلّى الله عليه .

قال : فحدّثنى ابن أبى طَوالة ، عن حَبيب بن عبد الرحمن ، عن محمود ابن لَبيد ، عن أبى طَلحة ، أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قَرَن مع حَجّته عُمرة.

قال : وحدّثنى مالك بن أنس ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن حَفْصَة زوج النبىّ صلّى الله عليه وسلّم قالت ، قلت : يا رسول الله ، تأمر الناس أن يَحِلّوا ولم تَحِلّ أنتَ من عُمرتك ؟ قال : إنى لبّدت رأسى ، وقلّدت هَدْيى ، فلا أحِلّ حتى أنحَر هَدْيى .

حدّثنى مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، عن محمّد بن عبد الله بن نَوْفَل بن الحارث ، عن سعد بن أبى وَقّاص ؛ ومَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، عن سالم ، عن ابن عمر : قالا . أهَلّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالعُمرة وساق الهَدْى .

قال : فحدّثنى مالك بن أنس ، عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : أفرد رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم الحجّ ، فكان هذا الأمر الذى أخذ به أهل المدينة وثبت عندهم . قالت عائشة : وأصبح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحد بمَلَل ، ثم راح فتعشّى بشَرَف السَّيّالة ، وصلّى بالشَّرَف المغرب والعِشاء ، وصلّى الصبح بعِرْق الظُّبْيَة بين الرَّوْحاء والسَّيّالة — وهو دون الرَّوْحاء ، فى المسجد الذى عن يمين الطريق . ثم نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الرَّوْحاء ، فإذا بحِمار عَقيرٍ ، فذُكِر للنبىّ صلّى الله عليه وسلّم فقيل : يا رسول الله ، هذا حِمارٌ عَقير : قال : دعوه حتى يأتى صاحبُه . فجاء النَّهدىّ وهو صاحبه فأهداه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فأمر به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبا بكر

فقَسَمه بين أصحابه ، وقال : صَيْدُ البَرِّ لكم حَلالٌ ،إلاَّ ما صِدتم أو صِيد لكم . ثم راح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الرَّوْحاء فصلّى العصر بالمُنْصَرَف[١] ، ثم صلّى المغرب والعشاء وتعشّى به ، وصلّى الصُّبْح بالأُثايَة[٢] وأصبح يومَ الثلاثاء بالعَرْج .

قال : فحدّثنى أبو حمزة عبد الواحد بن مَيمون ، عن عُروة بن الزُّبَير ، عن أَسْماء بنت أبى بكر ، قالت : وكان أبو بكر رضى الله عنه قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالمدينة : إنّ عندى بعيرًا نحمل عليه زادَنا . قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : فذاك إذًا ! قالت : فكانت زامِلَةُ[٣] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبى بكر واحدة ، فأمر النبىّ صلّى الله عليه وسلّم بزادٍ ، دقيقٍ وسَويقٍ ، فجُعِل على بعير أبى بكر . وكان غُلامُه يركب عليه عُقْبَةً ، فلمّا كان بالأُثايَة عرّس الغلامُ وأناخ بعيره فغلبته عَيْناه ، فقام البعير يجرّ خِطامه آخِذًا فى الشِّعْب ، وقام الغلام فَلَزِم الطريق ، يظنّ أنه سَلَكها ، وهو يَنشده فلا يسمع له بذِكْر . ونزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى أبياتٍ بالعَرْج ، فجاء الغلام مُظهِرًا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أين بَعيرك ؟ قال : ضلَّ منّى ! قال : وَيْحَك ، لو لم يكن إلّا أنا لَهان الأمرُ علىّ ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأهلُه ! فلم يَلبَث أن طلع به صَفوان بن المُعَطَّل ، وكان صفوان على ساقةِ الناسِ ، وأناخه على باب منزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال لأبى بكر رضى الله عنه : انظر هل تَفْقِد شيئاً من متاعك ! فنظر فقال : ما نَفقِد شيئاً إلّا قَعْباً كنا نشرب

(١) المنصرف : موضع بين مكة وبدر بينهما أربعة برد . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ١٧٧) .
(٢) الأثاية : موضع فى طريق الجحفة بينه وبين المدينة خمسة وعشرون فرسخاً . (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٧) .
(٣) الزاملة : بعير يستظهر به الرجل ، يحمل متاعه وطعامه عليه . (الصحاح ، ص ١٧١٨) .

به ، فقال الغلام : هذا القَعْب معى . فقال أبو بكر رضى الله عنه : أدّى الله عنك الأمانة !

قال : حدّثنى يعقوب بن يحيى بن عَبّاد بن عبد الله بن الزُّبَير ، عن عيسى بن مَعْمَر ، عن عَبّاد بن عبد الله ، عن أسْماء بنت أبى بكر رضى الله عنه ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا نزل العَرْج جلس بفناء منزله ، ثم جاء أبو بكر رضى الله عنه فجلس إلى جنبه ، فجاءت عائشة رضى الله عنها فجلست إلى جنبه الآخر ، وجاءت أسْماء فجاسست إلى جنب أبى بكر رضى الله عنه ، وأقبل غلامُ أبى بكر متسربلاً ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه : أين بعيرك ؟ قال : أضلّنى . فقام إليه أبوبكررضى الله عنه يضربه ويقول : بعيرٌ واحدٌ[1] يضلُّ منك ؟ فجعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يتبسّم ويقول : ألا تَرَوْن إلى هذا المُحْرِم وما يصنع ؟ وما ينهاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال : فحدّثنى أبو حمزة ، عن عبد الله بن سعد الأسلمىّ ، عن آل نَضْلَة الأسلمىّ ، أنهم خُبِّروا أنّ زامِلَة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ضلّت ، فحملوا جَفْنَةً من حَيْسٍ فأقبلوا بها حتى وضعوها بين يدى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فجعل يقول : هَلُمّ يا أبا بكر ، فقد جاءك الله بغَداءٍ طيّبٍ ! وجعل أبو بكر رضى الله عنه يَغْتاظ على الغلام ، فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : هَوِّنْ عليك ، فإنّ الأمر ليس إليك ، ولا إلينا معك ! قد كان الغلام حريصاً ألاّ يضِلّ بعيرُه ، وهذا خَلَفٌ ممّا كان معه . فأكل

(١) فى الأصل : « بعيرا واحدا » .

رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم وأهله وأبو بكر ، وكلّ مَن كان مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حتى شَبعوا .

قال : وجاءَ سعد بن عُبادة وابنه قيس بن سعد بزامِلَةٍ تحمل زادًا ، يؤمّان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، حتى يجدا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم واقفاً عند باب منزله قد أتى اللهُ بزامِلَته ، فقال سعد : يا رسول الله ، قد بلغَنا أنَّ زامِلَتك أَضلَّت مع الغلام ، وهذه زامِلَةٌ مكانَها . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : قد جاءَ الله بزامِلَتنا فارجعا بزامِلَتكما باركَ الله عليكما! أما يكفيك يا أبا ثابت ما تصنع بنا فى ضِيافتك منذ نزلنا المدينة ؟ قال سعد : يا رسول الله ، المِنَّة للهِ ولرسوله ، واللهِ يا رسول الله ، لَلَّذى تأْخذ من أموالنا أحبُّ إلينا من الذى تَدَع . قال : صدقتم يا أبا ثابت ، أَبْشِرْ فقد أفلحتَ ! إنَّ الأَخلاق بيد الله عزَّ وجلّ ، ومَن أراد الله أن يَمنَحه منها خُلُقاً صالحاً مَنَحه ، ولقد مَنَحك الله خُلُقاً صالحاً . فقال سعد : الحمد لله الذى هو فعل ذلك! قال ثابت بن قيس : يا رسول الله ، إنَّ أهْلَ بيت سعد فى الجاهليّة سادتُنا والمُطعِمون فى المَحْلِ[1] منا . قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : الناس مَعادِن ، خِيارُهم فى الجاهليّة خِيارُهم فى الإسلام إذا فَقُهوا ، لهم[2] ما أسلموا عليه .

قال ابن أبى الزِّناد ، يقول له جميلٌ ذِكْرُه ، قال : واحتجم رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بلَحْيَى جَمَلٍ[3] ، وهو مُحْرِم ، فى وَسَط رأسه . قال : حدّثنى بذلك محمّد ، وعبد الرحمن بن أبى الزِّناد ، وسُلَيمان بن بِلال ،

---

(١) المحل : الجدب، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ. (الصحاح ، ص١٨١٧).
(٢) فى الأصل : « له » .
(٣) لحيا جمل : موضع بين مكة والمدينة . (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣٢٥) .

عن عَلْقَمَة بن أبي عَلْقَمَة ، عن الأعرج ، عن ابن بُحَيْنَة ، قالوا : ونزل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم السُّقْيا يومَ الأربعاء ، ثم أصبح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالأَبْواء ، فأهدى له الصَّعْب بن جَثَّامة عَجُزَ حِمارٍ يَقطُر دماً ، فردّه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقال : إنّا حُرُم . فكان مُعاوية يقول : رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يأكل بالأَبْواء لِبَاءً مُقَشّى[1] أهدِيَ له من وَدّان ، ثم قام فصلَّى ولم يتوضّأْ ، فصلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى المسجد الذى ينظر وادى الأَبْواء ، على يسارك وأنت مُوجّهٌ إلى مكّة . ثم راح النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم من الأَبْواء فصلَّى بتَلَعات[2] اليمن ، وكان هناك سَمُرَة . كان ابن عمر يُخبر أنّ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم جلس تحتَها ، وكان ابن عمر يصبّ الإداوة تحتها إذا مرّ بها ، يسقيها.

قال : حدّثنى أفلح بن حُمَيد ، عن أبيه ، قال : كان ابن عمر يُخبر أنّ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم جلس تحتها ، وأنّ ابن عمر كان يصبّ الإداوة تحتها فى أصل السَّمُرَة ، يُريد بقاءها .

قال : فحدّثنى أفلح بن حُمَيد ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، قال : صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فى المسجد الذى هناك حين يهبط من ثنيّة أراك[3] على الجُحْفَة ، ونزل يوم الجمعة الجُحْفَة ، ثم راح منها فصلَّى فى المسجد الذى يُحرَم منه مُشرِفاً خارجاً من الجُحْفَة ، والمسجد الذى دون خُمّ عن يسار الطريق ، فكان يوم السبت بقُدَيد ، فصلَّى فى المسجد المُشَلَّل ،

---

(١) فى الأصل : « لبا مقشا » . واللياء حب كالحمص ؛ ولياء مقشى أى مقشور . (النهاية ج ٣ ، ص ٢٥٦) .

(٢) تلعات : جمع تلعة وهى ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها، ضد ، ومسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ١٠) .

(٣) فى الأصل : « ثنية عراك » . وأراك : واد قرب مكة يتصل بغيقة ، كما ذكر ياقوت . (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٦٩) .

وصلّى فى المسجد الذى أسفل من لَفْت .

قال : حدّثنى إسماعيل بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن كُرَيب ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه ، قال : مرّ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يومئذٍ بامرأةٍ فى مِحَفَّتِها(١) ، ومعها ابنٌ لها صغير ، فأخذت بعَضُدِه فقالت : يا رسول الله ، ألهذا حَجّ ؟ فقال : نعم ، ولكِ(٢) أجْرٌ ! وكان يوم الأحد بعُسْفان ، ثم راح . فلمّا كان بالغَميم اعترض المشاة ، فصفّوا له صُفوفاً فشكَوا إليه المَشْى ، فقال : استعينوا بالنَّسَلان(٣) . ففعلوه فوجدوا لذلك راحة . وكان يومَ الاثنينِ بمَرّ الظَّهْران ، فلم يبرح منها حتى أمسى ، وغربت له الشمس ، فلم يُصلِّ المغرب حتى دخل مكّة . فلمّا انتهى إلى الثَّنِيَّتَيْن بات بينهما ، بين كُدىً وكَداء ، ثم أصبح فاغتسل ، ودخل مكّة نهاراً .

قال : فحدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن موسى بن سعد ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دخل مكّة نهاراً من كُدىً على راحلته القَصواء إلى الأبطح ، حتى دخل من أعلى مكّة حتى انتهى إلى الباب الذى يقال [له] باب بنى شَيْبَة . فلمّا رأى البيت رفع يديه ، فوقع زِمام ناقته فأخذه بشِماله . قالوا : ثم قال حين رأى البيت : اللّهمّ زِدْ هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومَهابةً وبِرًّا !

قال : فحدّثنى محمّد بن عبد الله ، عن الزُّهرىّ ، عن سالم ، عن ابن عمر ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين دخل المسجد بدأ بالطّواف قَبْلَ الصلاة . قالوا : ولمّا انتهى إلى الرُّكْن استلَمه وهو مُضْطَبِعٌ(٤) بِردائه ،

(١) المحفة : مركب للنساء كالهودج إلا أنها لا تقبب . (القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ١٢٨) .
(٢) فى الأصل : « ولكى » .
(٣) أى الإسراع فى المشى . (النهاية ، ج ٤ ، ص ١٤١) .
(٤) هو أن يأخذ الإزار أو البرد فيجعل وسطه تحت إبطه الأيمن ويلقى طرفيه على كتفه الأيسر من جهتى صدره . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٢) .

وقال : بسمِ اللهِ ، واللهُ أكبر ! ثم رَمَل(١) ثلاثةً من الحَجَر . وكان يأمر مَن يستلم الرُّكْن أَن يقول : بسم اللهِ ، واللهُ أكبر ! إيماناً بالله ، وتصديقاً بما جاء به محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم .

قال : حدّثني ابن جُرَيج ، عن يحيي بن عبد الله ، عن أبيه ، عن عبد الله بن السائب المَخزوميّ ، أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول فيما بين الرُّكْن اليَمانيّ والأسود : ﴿ رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَفى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النّارِ ﴾ (٢) .

قال : فحدّثني عبد الله بن جعفر ، عن عاصم بن عبد الله ، عن عبد الله ابن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، قال : رَمقتُ النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم فلم يَستلِم من الأركان إلّا اليَمانيّ والأسود ، ومشى أربعة . قالوا : ثم انتهى إلى خلْف المقام فصلّى ركعتَيْن ، يقرأ فيهما : ﴿ قُلْ يا أيُّها الكافِرُونَ ﴾(٣) و﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾(٤) ، ثم عاد إلى الرُّكْن فاستَلَمه . وقد قال لعمر : إنّك رجلٌ قويٌّ ؛ إن وجدت الرُّكْن خالياً فاستَلِمْه ، وإلاّ فلا تُزاحم الناسَ عليه فتُؤْذِيَ وتُؤْذَى . وقال لعبد الرحمن بن عوف : وكيف صنعتَ بالرُّكْن يا أبا محمّد ؟ قال : استلمتُ وتركتُ . قال : أصبتَ ! ثم خرج إلى الصَّفا من باب بني مَخزوم ، وقال : أَبْدأُ بما بدأ الله به .

قال : فحدّثني عبد الله بن وَفْدان ، عن عِمران بن أبي أنس ، عن عبد الله بن ثعلبة ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سعى بين الصَّفا والمَرْوَة على راحلته من فَوْره ذلك .

---

(١) رمل : أي أسرع في المشي . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٤) .
(٢) سورة ٢ البقرة ٢٠١ .
(٣) سورة ١٠٩ الكافرون ١ .
(٤) سورة ١١٢ الإخلاص ١ .

قال : حدّثنى الثّوْرىّ ، عن حَمّاد ، عن سعيد بن جُبَير ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قدم ، وهو ساكنٌ ، فطاف بين الصّفا والمَرْوَة على راحلته .

قال : حدّثنى ابن أبى جُرَيج ، عن مُجاهد ، قال : طاف يومئذٍ على بغلته . والأوّل أثبت عندنا ، وهو المعروف — على راحلته .

قالوا : فصعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الصّفا ، فكبّر سبعَ تكبيراتٍ ، وقال : لا إله إلاّ الله وحدَه ، لا شريكَ له ، له المُلْكُ ، وله الحمدُ ، وهو على كلّ شىءٍ قدير ؛ صَدَق الله وَعْدَه ، ونَصر عَبْدَه ، وهَزَم الأحزابَ وحدَه ! ثم دعا بين ذلك ، ثم نزل إلى المَرْوَة ، فلمّا انصبّت قَدَماه فى الوادى رَمَل .

قال : فحدّثنى علىّ بن محمّد ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطّاب ، عن مَنصور بن عبد الرحمن ، عن أُمّه ، عن بَرّة بنت أبى تِجْراة[1] قالت : لمّا انتهى النبىّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المَسعى قال : أيّها الناس ، إنّ الله كتب عليكم السَّعْىَ فاسْعَوْا ! فسعى حتى رأيت إزاره انكشف عن فَخِذه . وقالوا : قال فى الوادى : ربِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ ، وأنت الأعَزّ الأكرم ! فلمّا انتهى إلى المَرْوَة فعل عليها مثلَ ما فعل على الصّفا ، فبدأ بالصّفا وخَتَم بالمروة ؛ وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد اضطرب[2] بالأبْطَح .

قال : فحدّثنى بُرْد أنّ إبراهيم بن أبى النّضْر حدّثه ، عن أبيه ، عن أبى مُرّة مولى عُقَيل ، عن أُمّ هانئ ، قالت ، قلت[3] : يا رسول الله ، ألا تنزل فى بيوت مكّة ؟ فأبى واضطرب بالأبْطَح حتى خرج يوم التّروية ، ثم رجع

(١) فى الأصل : « نجراة » ؛ وما أثبتناه من ابن عبد البر . (الاستيعاب ، ص ١٧٩٣) .
(٢) أى قبة .
(٣) فى الأصل : « قال قلت » .

من مِنىً فنزل بالأَبْطَح حتى خرج إلى المدينة ، ولم ينزل بيتاً ولم يُظِلّه .

قال : ودخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الكعبة ، فلمّا انتهى إلى بابها خلع نعليْه ، ودخل مع عثمان بن أبى طلحة ، وبلال ، وأسامة بن زيد ، فأغلقوا عليهم البابَ طويلاً ثم فتحوه . قال ابن عمر : فكنت أوّل الناس سبق إليه ، فسألت بلالاً : أصَلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيه ؟ قال : نعم ، ركعتَيْن بين الأُسطوانتَيْن المُقدَّمتَيْن — وكان على ستّة أعمدة.

فحدّثنى ابن جُرَيج ، عن عَطاء ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه ، عن أسامة بن زيد ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كبّر فى نواحيه ولم يُصلِّ .

قالوا : وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : دخل علىّ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم حزيناً فقلت : ما لك يا رسول الله ؟ قال : فعلتُ اليومَ أمرًا ليتنى لم أكُ فعلته ! دخلت البيت فعسى الرجل من أُمّتى لا يقدر أن يدخله ، فتكون فى نفسه حزارةٌ ، وإنما أُمرنا بالطّواف ولم نُؤْمَر بالدخول . وكسا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم البيتَ .

قال : فحدّثنى ابن أبى سَبْرَة ، عن خالد بن رَباح ، عن المطّلب بن عبد الله بن موسى ، قال : سمعت العبّاس بن عبد المطّلب رضى الله عنه يقول : كسا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم البيتَ فى حَجّته الحِبَرات[١] .

قالوا : وكانت الكعبة على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمانية عشرَ ذراعاً .

قالوا : وقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس والجُمُعة — وهو يوم التّروية ، فيما اجتمع لنا عليه — وخطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل التّروية بيوم بعدَ الظّهر بمكّة .

---

(١) الحبرات : جمع حبرة ، وهى ضرب من برود اليمن . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢) .

قال : فحدّثنى هشام بن عُمارة ، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن عُمارة بن حارثة الظَّفَرِىّ ، عن عمرو بن يَثْرِبِىّ الضَّمْرِىّ[١] ، قال : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطب قبل التَّروية بيوم بعدَ الظُّهر ، ويوم عَرَفَة بعَرَفَة حين زاغت الشمس على راحلته قبل الصلاة ، والغد من يوم النحر بمِنًى بعد الظُّهر . قال الواقدىّ : هذا الأمر المأخوذ به المعروف . ويُقال : إنّ يوم الجُمُعة وافق يوم التَّروية ، فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بين الرُّكْن والمَقام ، فوعظ الناس وقال : مَن استطاع منكم أن يُصلّى الظُّهْر بِمنًى فليفعلْ . وركب حين زاغت الشمس بعدَ أن طاف بالبيت أسبوعاً ، فصلّى الظُّهْر والعصر والمغرب والعشاء والصبح بمِنًى ، ونزل بموضع دار الإمارة اليوم . فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله ، ألا نبنى لك كَنيفاً[٢] ؟ فأبى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال : مِنًى مَنزِلُ مَن سَبَق !

قال : حدّثنى ابن جُرَيج ، عن محمّد بن قيس بن مَخْرَمَة ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يركب من مِنًى حتى رأى الشمس قد طلعت ، ثم ركب فانتهى إلى عَرَفَة فنزل بنَمِرَة ، وقد ضُرِب له بها قُبَّة من شَعَر . ويقال : إنما قال إلى فَىءِ صَخْرَةٍ ، ومَيْمونةُ زوجتُه تَتبَّع ظلَّها حتى راح ، وأزواجُه فى قِباب — أو فى قُبَّة — حوله . فلمّا كان حين زاغت الشمس أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم براحلته القَصْواء ، فَرُحِلَتْ إلى بطن الوادى — بطن عُرَنَة .

---

(١) فى الأصل : « غمرة بيرى الضميرى » . وما أثبتناه عن ابن عبد البر . (الاستيعاب ، ص ١٢٠٦) .

(٢) الكنيف : الساتر ، وهى حظيرة من خشب أو شجر تتخذ للإبل . (لسان العرب ، ج ١١ ، ص ٢٢٠) .

قالوا : وكانت قُرَيْش لا تشكّ أَنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا يُجاوز المُزْدَلِفَة يقف بها ، فقال له نَوْفَل بن مُعاوية الدِّيلىّ ، وهو يسير إلى جنبه : يا رسول الله ، ظنّ قومك أَنّك تقف بجَمْع . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : لقد كنت أَقفُ بعَرَفَة قبل النُّبوّة خلافاً لهم ! وقال جُبَير بن مُطْعِم : رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقف بعَرَفَة قبل النُّبوّة ، وكانت قُرَيْش كلُّها تقف بجَمْعٍ إلّا شَيبة بن ربيعة . وإنّ موسى بن يعقوب حدّثنى ، عن عمّه ، عن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عَفّان ، عن أَسْماء بنت أَبى بكر ، قالت : كان شَيبة بن رَبيعة من بين قُرَيْش يقف بعَرَفَة ، عليه ثوبان أَسودان ، وزِمام بعيره من شَعَرٍ بين غَرْزَيْن[1] أَسودَيْن ، حتى يقف مع الناس بِعَرَفة ثم يدفع بدَفْعهم ، فإننا لا نتكلّم مع الناس — يعنى العرب — كانت تقف بعَرَفَة : وقُرَيْش بجَمْعٍ تقول : نحن أَهل الله !

قال : فحدّثنى ابن أَبى سبْرَة ، عن يعقوب بن زيد ، عن أَبيه ، قال : خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين زاغت الشمس ببطن عرفَة على ناقته القَصْواء ، فلما كان آخر الخُطْبَة أَذّن بلالٌ وسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من كلامه ، فلما فرغ بِلالٌ من أَذانه تكلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بكلماتٍ وأَناخ راحلتَه ، وأَقام بِلال ، فصلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الظُّهر ، ثم أَقام فصلّى العصر ، جمع بينهما بأَذانٍ وإقامتَيْن .

فحدّثنى أُسامة بن زيد ، عن عمرو بن شُعَيب ، عن أَبيه ، عن جدّه ، أَنّه رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يخطب يومئذٍ فى وادى عَرَفَة ، ثم ركب . قال : فرأَيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُشير بيده إلى الناس أَن يَقِفوا — إلى عَرَفَة .

---

(١) فى الأصل : « شعر بين غرارتين سودا » . والغرز : ركاب الرحل من جلد . (الصحاح ، ص ٨٨٥) .

خُطْبَة النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بعَرفَة قبل الصلاتَيْن

وكان من خُطْبَته يومئذ : أَيّها الناس ، إنّي واللهِ ما أدرى لعلّى لا ألقاكم بمكانى هذا بعد يومكم هذا ! رحم الله امرءًا سَمِعَ مَقالتِى فوَعاها ، فرُبَّ حاملِ فِقْهٍ لا فِقْهَ له ، ورُبَّ حاملِ فِقْهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه ! واعلموا أنَّ أموالكم ودماءَكم حَرامٌ عليكم كحُرْمَة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بَلَدكم هذا ! واعلموا أنَّ الصُّدور لا تُغِلّ[1] على ثلاث : إخلاص العَمَل لله ، ومُناصحة أهل الأمر ، ولزوم جَماعة المسلمين ، فإنَّ دَعْوَتَهم تُحيط مِن وَرائهم ! ألا إنَّ كلّ شىءٍ من أمر الجاهليّة تحتَ قدمىَّ موضوع ، وأوّل دماءِ الجاهليّة أَضَعُ دمُ إياس بن ربيعة بن الحارث ـ كان مُسْتَرْضَعاً فى بنى سعد ، فقتلته هُذَيل ـ وربا الجاهليَّة موضوعٌ كلُّه ، وأوّل رباً أَضعه ربا العباس بن عبد المطَّلب . اتَّقوا الله فى النساءِ ، فإنما أخذتموهنَّ بأمانة الله ، واسْتَحْلَلْتم فُروجَهنَّ بكلمة الله ، وإنَّ لكم عليهنَّ أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تكرهونه ، فإن فعلْنَ فاضربوهنَّ ضرباً غيرَ مُبرِّح ؛ ولهنَّ عليكم رِزْقُهنَّ و كِسْوَتُهنَّ بالمعروف ؛ قد تركتُ فيكم ما لن تَضِلُّوا بعده إن اعتصمتم به ـ كتاب الله تبارك وتعالى ! وأنتم مسؤولون عنِّى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنْ قد بلَّغت وأدّيت ونَصَحت ! ثم قال ، بإصبعه السَّبَّابة إلى السماء ، يرفعها ويكبّها ثلاثاً : اللَّهمَّ ، اشهدْ !

قال : فحدّثنى محمّد بن عبد الله ، عن عمّه الزُّهرىّ ، عن أبى سَلَمَة ابن عبد الرحمن ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه ، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقف بالهِضاب من عَرَفَة فقال : كلُّ عَرَفَة مَوقفٌ إلاَّ بطنَ عُرَنَة ،

(١) هو من الإغلال ، الخيانة فى كل شىء . انظر النهاية . (ج ٣ ، ص ١٦٨).

وكلّ المُزْدَلِفَة موقفٌ إلّا بطنَ مُحَسِّر ، وكلّ مِنًى مَنْحَرٌ إلاّ خَلْفَ العَقَبَة .

قالوا : وبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى مَن هو بأقصى عَرَفَة فقال : الزَموا مَشاعركم ، فإنكم على إرْثٍ من إرْث إبراهيم .

قال : فحدّثنى إسحاق بن حازم ، عن أبى نَجيح ، عن مُجاهد ، عن ابن عباس ، قال : عَرَفَة أوّل جبل ممّا يلى عُرَنَة إلى جبل عَرَفَة ، كلّه من عَرَفَة . قال : وقال ابن عبّاس : نظرت إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو واقفٌ بعَرَفَة ، وهو مادٌّ يديه ، يُقبل براحتيه[1] على وجهه .

وقالوا : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ أفضل دُعائى ودعاء مَن كان قبلى من الأنبياء : لا إلهَ إلاّ اللهُ وحدَه ، لا شريكَ له ، له المُلْك ، وله الحمد ، بيده الخير ، يُحيي ويُميت ، وهو على كلّ شيء قدير !

قال : فحدّثنى ابن أبى ذِئب ، عن صالح مولى التَّوْءَمَة ، عن ابن عبّاس ، أنّ ناساً اختلفوا فى صِيام النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم عَرَفَة . فقالت أمّ الفَضْل : أنا أعلم لكم عن ذلك ! فأرسلتْ إليه بعُسٍّ[2] من لبن ، فشرب وهو يَخطُب . قالوا : ووقف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على راحلته حتى غربت [الشمس] يَدعو . وكان أهل الجاهليّة يدفعون مِن عَرَفَة إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كهيئة العَمائم على رووس الرجال . فظنّت قُرَيشٌ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدفع كذلك ، فأخّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دَفْعَه حتى غربت الشمس ، وكذلك كانت دفعة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

قال : حدّثنى عبد الرحمن بن أبى الزِّناد ، عن أبيه ، عن عُروة بن

(١) فى الأصل : « من احسه » .
(٢) العس : القدح العظيم . (الصحاح ، ص ٩٤٦) .

الزُّبَير ، عن أُسامة بن زيد ، قال : سمعته يسأَل عن سير النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم عشيّةَ عَرَفَة ، فقال : كان يَسير العَنَقَ ، وإذا وجد فَجْوَةً نَصَّ - والنَّصّ : فوق العَنَق .

قال : فحدّثنى إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن طاوس ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أيّها الناس ، على رِسْلِكم[1] ! عليكم بالسَّكينة ، لِيَكُفَّ قويُّكم عن ضعيفكم .

قال : فحدّثنى مَعْمَر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، قال : ما رفعت ناقة النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم يديها فى شىء من الدفعتين واضعةً حتى رمى جَمْرَة .

قال : فحدّثنى محمّد بن مُسلم الجُهَنىّ ، عن عُيَيْم بن جُبَير بن كُلَيب الجُهَنىّ ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقد دفع من عَرَفَة إلى جَمْعٍ ، والنارُ تُوقَد بالمُزْدَلِفَة وهو يؤمّها حتى نزل قريباً منها .

قال : فحدّثنى إسحاق بن عبد الله بن خارجة ، عن أبيه ، قال : لما أبصر سُلَيمان بن عبد الملك النارَ ، قال لخارجة بن زيد : متى كانت هذه النار يا أبا يزيد ؟ قال : كانت فى الجاهليّة ، وضعتها قُرَيشٌ ؛ لا تخرج من الحرم إلى عَرَفَة [إلاّ] تقول : نحن أهل الله ! ولقد أخبرنى حَسّان بن ثابت وغيره فى نَفَرٍ من قومى أنّهم كانوا يحجّون فى الجاهليّة فيرَوْن تلك النار .

قال : فحدّثنى إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن

(١) أى اثبتوا ولا تعجلوا . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٨١) .

عبّاس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إلى الشِّعْب ! قال : وهو شِعْب الإِذْخِرِ يسارَ الطريق بين المَأْزِمَيْن ، ولم يُصلّ .

قال : فحدّثنى ابن أَبى ذِئب ، عن الزُّهرىّ ، عن سالم ، عن ابن عمر ، أَنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم صلَّى المغرب والعِشاء بالمُزْدَلِفَة بإقامة ، ولم يُسبِّح بينهما ، ولا على إِثْرِ واحدةٍ منهما .

قال : فحدّثنى ابن أَبى سَبْرَة ، عن يحيى بن شِبْل ، عن أَبى جعفر قال : صلاّهما[1] رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بأَذانٍ وإقامتَيْن .

قالوا : ونزل رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قريبًا من النار — والنار على قُزَح ، وهو الجبل ، وهو المَشعر الحرام — فلمّا كان فى السَّحَر أَذِن لمن استأْذنه من أهل الضَّعْف من الذُّرّية والنساء .

قال : حدّثنى أَفلح بن حُمَيد ، عن القاسم ، عن عائشة رضى الله عنها ، أَنَّ سَودة بنت زَبيعة استأْذنت النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فى التقدّم من جَمْعٍ قبل حَطْمَة[2] الناس ، وكانت امرأَةً ثَبِطَة[3] ، فأَذن لها وحبس نساءه حتى دفعن بدَفْعِه حين أَصبح . قالت عائشة رضى الله عنها : فلأَن أَكونَ استأْذنت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم كما استأْذنتْه سَودة أَحبّ إلىّ من مفروحٍ به .

قال : فحدّثنى ابن أَبى سَبْرَة ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن عِمران ابن أَبى أَنَس ، عن أُمّه ، قالت : تقدّمت مع سَودة زوج النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم فى حَجته فرَمينا قبل الفجر .

قال : فحدثنى ابن أَبى ذِئب ، عن شُعبة ، عن ابن عبَّاس رضى الله

---

(١) فى الأصل : « صلا ها » .
(٢) أى قبل أن يزدحموا ويحطم بعضهم بعضاً . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٣٧) .
(٣) امرأة ثبطة : ثقيلة بطيئة ، من التثبيط . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٢٥) .

عنه ، أنّه كان يقول : بعثَنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم مع أهله فرَمَوْا الجَمْرَة مع الفجر.

قال : فحدّثني جُبير بن زيد ، عن أبي جعفر ، قال : لما بَرَق الفجر ، صلَّى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الصبح ، ثم ركب على راحلته القَصْواء ، ثم وقف على قُزَحَ . وكان أهل الجاهليّة لا يدفعون من جَمْعٍ حتى تَطْلُع الشمس على ثَبيرٍ ، ويقولون : أَشْرِقْ ثَبير ، كَيْما نُغير ! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : إنّ قُريشاً خالفت عهدَ إبراهيم ! فدفع قبل طلوع الشمس ، وقال : هذا الموقف ، وكلّ المُزْدلِفَة مَوقف !

قال : وحدّثني ابن أبي سَبْرة ، عن عمر بن عَطَاء ، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : جَمْعٌ مِن أقصى المَأْزِمَيْن إلى القَرْن الذى خلف وادى مُحَسِّر .

قال : فحدثني الثَّوْرىّ ، عن ابن الزُّبَير ، عن جابر أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أوضع فى وادى مُحَسِّر .

قال : فحدّثني أبو مَروان ، عن إسحاق بن عبد الله ، عن أبان بن صالح ، أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم حمل حَصَى العَقَبَةِ من المُزْدلِفَة .

قال : حدّثني الثَّورِى ، عن أيمن بن نائل ، قال : سمعت قُدامة ابن عبد الله الكِلابىّ يقول : رأيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يرمى جَمْرَة العَقَبَة يوم النحر على ناقةٍ صهباء ، لا ضَرْبَ ، ولا طَرْدَ ، ولا إليْك إلَيْك[1]

قال : فحدّثني ابن أبي سَبْرَة ، عن الحارث بن عبد الرحمن ، عن مُجاهد ، عن أبي مَعْمَر عبد الله بن سَخْبرة ، عن ابن مسعود ، أنّ النبىّ

(١) قال ابن الأثير : هو كما يقال : الطريق الطريق ، ويفعل بين يدى الأمراء ، ومعناه : تنح وأبعد . وتكريره للتأكيد . (النهاية ، ج ١ ، ص ٤٠) .

صلَّى الله عليه وسلَّم لم يقطع التَّلبية حتى رَمَى الجَمْرَة .

قال : فحدّثنى ابن أبى ذِئب ، عن شُعْبَة ، عن ابن عباس ، أنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يقطع التَّلبية حتى رمى الجَمْرَة . قال : ولمّا انتهى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المنْحَر قال : هذا المَنْحَر ، وكلّ مِنىً مَنْحَر ، وكلّ فِجاج مكّة طريقٌ ومَنْحَر . ثم نحر بيده ثلاثاً وستّين بالحَرْبَة ، ثم أعطى رجلاً فنحر ما بقى ، ثم أمر من كلّ بَدَنَةٍ ببَضْعَة ، من البُدْن التى نحر ، فجُعِل فى قِدْرٍ فطبخه ، فأكل من لحمها وحَسَا من مَرَقها .

قال : فحدّثنى مَعْمَر ، عن عبد الكَريم الجَزَرىّ ، عن مُجاهد ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن علىٍّ عليه السلام قال : أمرنى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أتصدّق بجِلال بُدْنِه وجلودها ولحومها ، ولا أُعطى منها فى جَزْرها شيئاً .

حلْق شَعَر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم

قالوا : لمّا نحر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم الهَدْى دعا الحلاَّق ، وحضر المسلمون يطلبون من شَعَر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فأعطى الحلاّقَ شِقّ رأسه الأيمن ، ثم أعطاه أبا طَلْحة الأنصارىّ . وكلّمه خالد ابن الوليد فى ناصيته حين حَلَق فدفعها إليه ، فكان يجعلها فى مُقدَّم قَلَنْسُوَته ، فلا يلقى جَمْعاً إلَّا فَضَّه . فقال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه : كنت أنظر إلى خالد بن الوليد وما نلقى منه فى أُحُدٍ ، وفى الخَنْدَق ، وفى الحُدَيبية ، وفى كلّ مَوْطِنٍ لاقانا ، ثم نظرت إليه يوم النَّحْر يُقدّم إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بَدَنَةً ، وهى تَعْتِب فى العَقْل ، ثم نظرت إليه ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يحلق رأسه ، وهو يقول : يا رسول الله ، ناصيتك ! لا

تُؤْثر بها علىَّ أحدًا ، فداك أَبى وأُمّى ! فأَنظرُ إليه أَخذ ناصية رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فكان يضعها على عينيْه وفيه .

قال : وسأَلتُ عائشة رضى الله عنها : من أَين هذا الشَّعر الذى عندكنَّ؟ قالت : إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا حلق رأْسه فى حَجّته فرّق شَعره فى الناس ، فأَصابنا ما أَصاب الناس . فلما حلق رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم رأْسه أَخذ من شاربه وعارضَيْه ، وقلَّم أَظفارَه ، وأَمر بشَعَره وأَظفاره أَن يُدْفَنا . وقصَّر قومٌ من أَصحابه وحلَّق آخرون ؛ فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : رَحِم الله المحلِّقين ! ثلاثاً ، كلّ ذلك يقال : المقصِّرين يا رسول الله ! فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : والمقصّرين ! فى الرابعة .

قالوا : وأَصاب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم الطِّيبَ بعد أَن حَلَق ، ولبس القميص ، وجلس للناس ، فما سُئِل يومئذٍ عن شىءٍ قُدِّم أَو أُخِّر إلاَّ قال : افْعَلوه ولا حرَج !

قال : فحدّثنى أُسامة بن زيد ، عن عَطاء ، عن جابر بن عبد الله ، أَنَّ رجلاً جاءَ فقال : يا رسول الله ، حلقتُ قبل أَن أَنحرَ . فقال : انحرْ ولا حرَج ! قال : يا رسول الله ، نحرتُ قبل أَن أَرمى . قال : ارْمِ ولا حرج !

قال : فحدّثنى ابن أَبى ذئب ، عن الزُّهرى ، قال : بعث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عبد الله بن حُذافة السهْمىّ ينادى فى الناس : أَيُّها الناس ، إنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : إنَّها أَيّامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ الله . قال : فانتهى المسلمون عن صِيامهم إلاَّ مُحْصَرًا[1] بالحَجّ ، أَو مُتمَتِّعًا إلى الحَجّ ؛ فإنَّ الرُّخصة من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أَن يَصوموا أَيام مِنًى . فأَفاض رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يوم النَّحْر ، ويقال : أَفاض

(١) فى الأصل : « محصر . . . . متمتع » .

ليلاً فى نسائه مساءَ يوم النَّحْر ، وأمر أَصحابه فأَفاضوا بالنهار ؛ فأَتى زَمْزَم فأَمر بدَلْوٍ فنُزِع له ، فشرب منه وصَبَّ على رأسه ، وقال : لولا أن تُغلَبوا عليها يا ولدَ عبد المطَّلب لنزعتُ منها .

قال : حدّثنا ابن جُريج ، عن عَطاء ، قال : نزع النبىّ صلّى الله عليه وسلّم دَلْوًا لنفسه من زَمْزَم . قال عَطاء : فكنت أَنتزعه لنفسى ، فلمّا كبِرتُ وضعفتُ كنتُ آمر مَن يَنزِعه لى . وكان يرمى الجِمار حين تزيغ الشمس قبل الصلاة ، فكان إذا رمى الجمرتَيْن عَلاهما ، ويَرْمى جَمْرَةَ العَقَبَة من بطن الوادى . وكان يقف عند الجمرة الأُولى أكثر ممّا يقف عند الثانية ، ولا يقف عند الثالثة ، فإذا رماها انصرف .

قال : حدّثنى مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا رمى الجمرتَيْن وقف عندهما ورفع يديه ، ولا يفعل ذلك فى رَمْى العَقَبَة ، فإذا رماها انصرف. ورخّص رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للرِّعاء أن يَبيتوا عن مِنًى ، ومَن جاءَ منهم فرمى بالليل ، ورخّص له رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم فى ذلك .

قال : فحدّثنى عبد الرحمن بن عبد العزيز ، عن أَبى بكر بن حَزم ، بن عاصم بن عَدىّ ، عن أبيه ، أَنّ رسول الله صلّى الله عليه رعاءِ فى البَيْتوتة عن مِنىً .

را : وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ارْموا بمثل حَصَى الخَذْف[1] ! وكان أزواجه يرمين مع الليل .

خُطْبَة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم يوم النَّحْر

قال : فحدّثنى هشام بن عُمارة ، عن عبد الرحمن بن أَبى سعيد ،

---

(١) الخذف بالحصى : الرمى به بالأصابع . (الصحاح ، ص ١٣٤٧) .

عن عُمارة بن حارثة ، عن عمرو بن يَثْرِبىّ[1] ، قال : وحدّثنا ابن أبى ذِئب ، عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عبّاس رضى الله عنه ، قالا : خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الغد من يوم النحر بعدَ الظهر على ناقته القَصْواء . وزاد أحدهما على صاحبه فى القصّة ، قالا : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أيّها الناس ، اسْمعوا من قَوْلى فاعْقِلوه ، فإنى لا أدرى ، لعلّى لا ألقاكم بعدعامى هذا فى هذا الموقف ! أيّها الناس ، أىُّ شهر هذا ؟ قال : فسكتوا ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هذا شهرٌ حرام ! فأَىّ بَلَد هذا ؟ فسكتوا ، فقال : بَلَدٌ حرام ! ثم قال : أى يومٍ هذا ؟ فسكتوا ، فقال : يومٌ حرام . ثم قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنَّ الله قد حرّم دماءَكم ، وأموالكم ، وأعراضَكم ، كحُرْمَة شهركم هذا ، فى بلَدِكم هذا ، فى يومكم هذا ، إلى أن تَلْقَوْا ربَّكم ، ألا هل بلّغتُ ؟ قالوا : نعم ! قال : اللّهمَّ ، اشهدْ ! ثم قال : إنّكم سوف تَلْقَون[2] ربّكم فيسألكم عن أعمالِكم ، ألا هل بلغتُ ؟ قالوا : نعم ! قال : اللّهمَّ اشهدْ ؛ ألا ومَن كانت عنده أمانةٌ فَلْيُؤَدِّها إلى مَن ائتَمَنَه عليها ، ألا وإنَّ كلَّ رِباً فى الجاهليّة موضوعٌ ، وإنَّ كلَّ دَمٍ فى الجاهليّة موضوعٌ ؛ وأوّل دِماءكم أَضعُ ، دم إياس بن ربيعة بن الحارث - كان مُسترضَعاً فى بنى سعد ابن ليثٍ ، فقتلتْه هُذَيل - ألا هل بلَّغْتُ ؟ قالوا : اللّهمَّ ، نعم ! قال : اللّهمَّ اشهدْ ! فليُبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ ! ألا إنَّ كلَّ مسلمٍ مُحرَّم على كلّ مسلم ، ولا يحلّ مالُ مسلمٍ إلاّ ما أعطى عن طِيب نفس .

فقال عمرو بن يَثرِبىّ ، فقلت : يا رسول الله ، أرأيتَ إن لقيتُ غنم

(١) فى الأصل : « عمرو بن بيزى » ؛ وما أثبتناه عن ابن عبد البر . (الاستيعاب ، ص ١٢٠٦) .

(٢) فى الأصل : « تلقوا » .

ابن عمي ، أجزرُ منها شاة ؟ قال : وعرفني فقال : إن لقيتَها نَعْجَةً(١) تَحمِلُ شَفْرَةً(٢) وزِناداً(٣) بخَبْت الجَميش(٤) ـ الجميش وادٍ قد عرفه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بالساحل كثيرُ الحطب ، وهو وادٍ لبني ضَمْرَة ، وهو منزل عمرو بن يَثْرِبيّ(٥) ، ويقال : خَبْت الجميش موضع صحراء ، يقال جنب كَداء ـ فلا تَهِجْها ! ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يا أيّها الناس ﴿ إنّما النَّسيءُ زِيادةٌ في الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِئُوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللهُ ﴾(٦). ألا وإنَّ الزمان قد استدار كهَيْئتِه يومَ خَلَقَ الله السمواتِ والأرضَ ، وإنَّ عِدة الشهور اثنا عشر شهراً في كتاب الله ، منها أربعةٌ حُرُمٌ ، ثلاثةٌ متواليةٌ : ذو القعدة ، وذو الحِجَّة ، والمحرّم ، ورجب الذي يُدعَى شهرَ مُضَر ، الذي بين جُمادى الآخرة وشعبان ؛ والشهر تسعة وعشرون يوماً ، وثلاثون ، ألا هل بلَّغتُ ؟ فقال الناس : نعم ! فقال : اللّهم اشهدْ ! ثم قال : أيّها الناس ، إنَّ للنساء عليكم حقًّا ، وإنَّ لكم عليهنَّ حقًّا ، فعليهنَّ ألَّا يُوطِئن فُرُشَكم أحداً ، ولا يُدخِلن بيوتَكم أحداً تكْرَهونه إلَّا بإذنكم ، فإن فعلن فإنَّ الله قد أذِن لكم أن تهجروهُنَّ في المَضاجع ، وأن تضربوهنَّ ضرباً غيرَ مُبرِّحٍ ، فإن انتهين وأطعْنكم فَلَهُنَّ رِزْقُهن وكِسْوَتُهنَّ بالمعروف ؛ وإنما النساء عندكم عَوانٍ(٧) لا يَمْلِكْنَ لأنفسهنَّ شيئاً ، وإنما أخذتموهنَّ بأمانةِ الله ، واستحللتم فروجَهنَّ بكلمةِ الله ، فاتّقوا

---

(١) النعجة : الأنثى من الضأن . (لسان العرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٣) .
(٢) في الأصل : « شعرة » ؛ وما أثبتناه من مراجع السيرة الأخرى . والشفرة : السكين العريضة . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٢٧) .
(٣) في الأصل : « الزباد » . والزناد : كالزند .
(٤) في الأصل : « بجنب الحميش » . وما أثبتناه من ياقوت . (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٩٦) .
(٥) في الأصل : « عمرو بن يبزى » .
(٦) سورة ٩ التوبة ٣٧ .
(٧) عوان : هو جمع عانية ، وهي الأسيرة . (شرح أبي ذر ، ص ٤٤٩) .

الله فى النساء واسْتوصُوا بهنّ خيرًا ، ألا هل بلّغتُ ؟ قال الناس : نعم ! قال : اللّهمّ ، اشهدْ ! أيّها الناس ،إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأَرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يُطاع فيما سِوى ذلك ممّا تَحقِرونه ، فقد رضى به . إنّ كلّ مسلم أخو المسلم ، وإنما المسلمون إخْوَة ،ولا يَحِلّ لامرىءٍ مسلمٍ دَمُ أخيه ولا مالهُ ، إلّا بطِيب نفس منه ، وإنما أُمِرْتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا اللهُ ، فإذا قالوها عَصَموا دماءهم وأموالهم ،وحِسابُهم على الله . ولا تَظلموا أنفسكم ، ولا ترجعوا بَعْدِى كُفّارًا ، يضرب بعضُكم رِقَاب بعض . إنى قد تركتُ فيكم ما لا تَضلّون به ، كتابَ الله ، ألا هل بلّغت ؟ قال الناس : نعم ! قال : اللّهمّ ، اشهدْ ! ثم انصرف إلى منزله .

عن ابن جُرَيج قال : سُئِل عَطاء : ما الضرب غيرُ المُبرِّح ؟ قال : بالسِّواك وبالنَّعْل . قال عَطاء : وسُئِل ابن عبّاس عن قوله عزّ وجلّ : ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾[1] قال: كلمة النِّكاح . قال : ونهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يَبيتَ أحدٌ ليالِيَ مِنًى بسِوى مِنًى .

قال : حدّثنى سُلَيمان بن بِلال ، عن عمرو بن أبى عمرو، عن عِكْرِمَة ، عن ابن عبّاس ، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى الظُّهر والعصر يوم الصَّدَر[2] بالأَبطح .

قال : حدّثنى سفيان بن عُيَيْنَة ، عن صالح بن كَيسان ، عن سُلَيمان بن يَسار ، عن أبى رافع ، قال : ما أمرنى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن أنزل منزلاً ؛ جئت الأَبطح فضربت قُبّته . فجاء فنزل . قال : وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : إنما نزل[3] بالمُحَصَّب[4] لأنه كان أسمحَ لِخُروجه .

---

(١) سورة ٤ النساء ٢١ .
(٢) يوم الصدر : اليوم الذى يقضى فيه نسكه . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٥٥) .
(٣) فى الأصل : « نزلت » .
(٤) فى الأصل : « بالمهضب » . والمحصب : الشعب الذى مخرجه إلى الأبطح بين مكة ومنى . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٣٢) .

قال : حدّثنى ابن أفلح بن حُمَيد ، عن القاسم ، عن عائشة رضى الله عنها أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذكر صَفيّة بنت حُيَيّ ، فقيل له : قد حاضت ! قال : أحابِسَتُنا هى ؟ فقيل : يا رسول الله ، إنها قد أفاضت . قال : فلا إذًا ! فلمّا جاءت عائشة رضى الله عنها من التّنعيم وقَضَتْ عُمْرَتها ، أمر بالرّحيل ؛ ومرّ صلّى الله عليه وسلّم بالبيت فطاف فيه قَبْلَ الصُّبح ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة .

قالوا : وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنما هى ثلاثٌ يُقيم بها المهاجر بعد الصَّدَر . وكان سائلٌ سأله أن يُقيم بمكّة ، فلم يُرخّص له أن يُقيم إلاّ ثلاثة أيّام ، قال : إنها ليست بدارِ مُكْثٍ ولا إقامة !

قال : فحدّثنى خالد بن إلياس ، عن سعيد بن أبى سعيد ، عن عُبَيد ابن جُرَيج ، أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا وَدّع البيت فكان فى الشَّوْط[1] السابع خَلْفَ البيت يُمنَى الباب . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : تعوّذ بين الرُّكْن الأسود والباب ، وألصق بطنه وجبهته بالبيت .

قالوا : وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا قفل من حَجٍّ أو عُمرةٍ أو غَزْوةٍ ، فوافى على ثَنيّةٍ أو فَدْفَدٍ[2] ، كبّر ثلاثاً ثم قال : لا إلهَ إلاّ اللهُ وحده ، لا شريكَ له ، له المُلْك ، وله الحَمْد ، يُحيِي ويُميت وهو حيّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كلّ شيءٍ قدير : آيبون ، تائبون ، ساجدون ، عابدون ، لربّنا حامدون ! صدق الله وعدَه ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزاب وحدَه ! اللّهمّ ، إنّا نعوذ بك من وَعْثاء السَّفَر ، وكآبة المُنقَلَب ،

---

(١) الشوط : الجرى مرة إلى غاية ؛ والمعنى هنا الطواف بالبيت . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٣٦٩) .

(٢) الفدفد : الموضع الذى فيه غلظ وارتفاع . (النهاية ، ج ٣ ، ص ١٨٨) .

وسوء المَنظر فى الأَهل والمال ! اللّهمّ ، بَلِّغنا بلاغاً صالحاً نبلغ إلى خير مَغْفِرَةٍ منك ورِضوانٍ[١] !

قالوا : ولمّا نزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المُعَرَّس[٢] نهى أصحابه أن يَطرُقوا النساءَ ليلاً ، فطرق رجلان أَهلَهما ، فكِلاهما وجد ما يكره . وأَناخ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالبطحاء ، وكان إذا خرج إلى الحجّ سلك على الشَّجَرَة[٣] ، وإذا رجع من مكّة دخل المدينة من مُعرَّس الأَبطح . فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى مُعَرَّسه فى بطن الوادى ، فكان فيه عامّةَ الليل ، فقيل له : إنك ببطحاءَ مُبارَكة ! قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لنسائه : هذه الحجّة ، ثم ظُهور الحُصْر[٤]! وكن يَحْجُجْنَ إلّا زينبَ بنت جَحْش ، وسودةَ بنت زَمعة ، قالتا : لا تُحرّكنا دابّةٌ بعدَ النبىّ صلّى الله عليه وسلّم .

عيادة النبىّ صلّى الله عليه وسلّم لسعد بن أبى وَقّاص بعد حَجّة الوداع

قال : حدّثنى مَعْمَر ، ومحمد بن عبد الله ، ومالك ، عن الزُّهرى ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه ، قال : جاءنى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعودنى عامَ حَجّة الوداع من وَجَعٍ أصابنى ، فقلت : يا رسول الله ، قد بلغ بى ما ترَى من الوَجَع ، وأنا ذو مالٍ ولا يرثنى إلّا ابنةٌ لى ، فأَتصدَّق بثُلُثَىْ مالى؟ قال : لا ! قلت : فالشَّطْر ؟ قال : لا ! ثم قال : الثُّلُث ، والثُّلُث كثير ! إنك أَن تتركَ ورثتَك أَغنياءَ خيرٌ من أن تتركهم عالةً يتكفّفون ، وإنك لن

(١) فى الأصل : « ورضوانا » .
(٢) المعرس : مسجد ذى الحليفة على ستة أميال من المدينة . (معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٩٤)
(٣) أى مسجد الشجرة بذى الحليفة . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ١٦٢) .
(٤) أى أنكن لا تعدن تخرجن من بيوتكن ، وتلزمن الحصر ، وهى جمع الحصير الذى يبسط فى البيوت . (النهاية ، ج ١ ، ص ٢٣٣) .

تُنفِق نفقةً تَبْتَغِي بها وجهَ الله إلّا أُجِرتَ بها ، حتى ما تجعل فى فى امرأتك !
فقلت : يا رسول الله ، أُخَلَّف بعد أصحابى ؟ فقال : إنك إن تُخلَّفْ فتعمل صالحاً تَزْدَدْ خيرًا ورِفْعَة . ولعلَّك أن تُخَلَّف حتى يَنْتَفِع بك أقوامٌ أو يُضَرّ بك آخرون . اللهمّ ، أَمْضِ لأصحابى هِجْرَتَهم ، ولا تردَّهم على أعقابهم!
لكن البائس سعد بن خوْلَة — يرثى له أن مات بمكّة[1] .

قال : فحدّثنى سفيان بن عُيَيْنَة ، عن إسماعيل بن محمّد بن الأعرج . قال : خلَّف رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم على سعدٍ رجلاً وقال : إن مات سعد بمكّة فلا تَدْفِنْه بها .

قال : فحدّثنى سفيان ، عن محمّد بن قيس ، عن أبى بُرْدَة بن أبى موسى ، قال : قال سعد بن أبى وَقّاص للنبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : أَيُكْرَه أن يموت الرجل فى الأرض التى هاجر منها[2] ؟ قال : نعم !

قال : حدّثنى سفيان بن عُيَيْنَة ، عن ابن أبى نُجَيح ، عن مُجاهد ، عن سعد ، قال : مرضتُ فأتانى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعودنى . فوضع يده بين ثَدْيَىَّ فوجدتُ بَرْدَها على فؤادى ، ثم قال : إنك رجلٌ مفؤود — المفؤود وَجِعُ[3] الفؤاد — فائتِ الحارث بن كَلَدة أخا ثَقيف ، إنه رجل يُطبِّب ؛ فَمُرْهُ فليأْخذ سبع تَمَرات من عَجْوَة المدينة فليَجأْهُنّ بنَواهنّ — أى[4] يدقّهنّ — ثم لِيُدلّكك[5] بهنّ .

(١) يقصد أن النبى صلى الله عليه وسلم يرثى لسعد . انظر شرح النووى على صحيح مسلم . (ج ٣ ، ص ١٢٥١) .
(٢) فى الأصل : « التى حرمتها » ؛ وما أثبتناه من مسلم . (الصحيح ، ج ٣ ، ص ١٢٥٢) .
(٣) فى الأصل : « وضع » .
(٤) فى الأصل : « أن يدقهن » .
(٥) فى الأصل : « ليدلك » .

غزوة أُسامة بن زيد مُؤْتَة

قالوا : لم يزل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يذكر مقتل زيد بن حارثة وجعفر وأصحابه ، ووَجَد عليهم وَجْدًا شديدًا ؛ فلما كان يوم الاثنين لأربع ليالٍ بقين من صَفَر سنة إحدى عشرة أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس بالتّهيّوء لغزو الروم ، وأمرهم بالانكماش(١) فى غزوهم . فتفرّق المسلمون من عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهم مُجِدّون فى الجهاد ، فلما أصبح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الغد ، يوم الثلاثاء لثلاث بقين من صَفَر ، دعا أُسامة بن زيد فقال : يا أُسامة ، سِرْ على اسم الله وبركته حتى تَنتهى إلى مَقتل أبيك ، فأَوْطِئْهم الخيل ، فقد ولّيتُك على هذا الجيش . فأَغِرْ صباحاً على أهل أُبْنَى وحَرِّقْ عليهم ، وأَسْرِع السّير تسبق الخبرَ ، فإن أظفرك الله فأَقْلِل اللبْث فيهم ، وخُذْ معك الأَدِلّاءَ ، وقَدِّم العُيون أمامَك والطَّلائع . فلما كان يوم الأربعاء لليلتَيْن بقيتا من صفر ، بُدِئ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فصُدِّع وحُمَّ . فلمّا أصبح يوم الخميس لليلةٍ بقيت من صَفَر عَقَد له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيده لِواءً ، ثم قال : يا أُسامة ، اغْزُ بسمِ الله فى سبيل الله ، فقاتِلوا مَن كَفر بالله ؛ اغْزُوا ولا تَغْدِروا ، ولا تقتلوا وَليدًا ولا امرأة ، ولا تَمَنَّوا لقاءَ العدوّ ، فإنكم لا تدرون لعلّكم تُبْتَلَوْن بهم ، ولكن قولوا : اللّهمّ ، اكفِناهم ، واكْفُف بأْسهم عنّا ! فإن لَقُوكم قد أَجْلَبوا وصَيَّحوا ، فعليكم بالسّكينة والصَّمْت .. ولا تَنازَعوا ولا تَفْشَلوا فتذهب(٢) ريحُكم . وقولوا : اللّهم ، نحن عِبادك وهم

(١) الانكماش : الإسراع . (القاموس المحيط ، ج ٢ ، ص ٢٨٧) .

(٢) فى الأصل : « فيذهب » . وانظر سورة ٨ الأنفال ٤٦ .

عِبادك ، نَواصينا ونَواصيهم بيدك ، وإنما تغلبهم أنت ! واعلموا أَنَّ الجَنَّة تحت البارِقة

قال : حدّثنى يحيى بن هِشام بن عاصم الأَسلميّ ، عن المُنذر بن جَهم ، قال : قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : يا أُسامة ، شُنّ[1] الغارة على أَهل أُبْنَى !

قال : فحدّثنى عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن أَزهر بن عَوف ، عن الزُّهرىّ ، عن عروة ، عن أُسامة بن زيد ، أَنَّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَمره أَن يُغير على أُبْنَى صباحاً وأَن يُحرق .

قالوا : ثم قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأُسامة : امضِ على اسمِ الله ! فخرج بلوائه معقودًا فدفعه إلى بُرَيدة بن الحُصَيب الأَسلمىّ ، فخرج به إلى بيت أُسامة ، وأَمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أُسامة فعسكر بالجُرْف ، وضرب عسكرَه فى سِقاية سليمان اليوم . وجعل الناس يُجِدُّون[2] بالخروج إلى العسكر ، فيخرج مَن فَرَغ من حاجته إلى مُعَسْكَره ، ومَن لم يقضِ حاجته فهو على فراغ ، ولم يبق أَحدٌ من المهاجرين الأَوّلين إلاَّ انتَدب فى تلك الغزوة : عمر بن الخطَّاب ، وأَبو عُبَيدة بن الجَرّاح ، وسعد بن أَبى وَقَّاص ، وأَبو الأَعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل ؛ فى رجالٍ من المهاجرين والأَنصار عِدة : قَتادة بن النعمان ، وسَلَمَة بن أَسلم بن حَريش . فقال رجالٌ من المهاجرين ، وكان أَشدّهم فى ذلك قولاً عَيّاش بن أَبى رَبيعة : يستعمل[3] هذا الغلام على المهاجرين الأَوّلين ؟ فكثرت القالة فى ذلك ، فسمع عمر بن الخطّاب رضى الله عنه بعضَ ذلك القول ، فردّه على مَن

---

(١) شن الغارة عليهم : فرقها عليهم من جميع جهاتهم . (النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٣٩) .
(٢) فى الأصل : « يوجدون » .
(٣) فى الأصل : « تستعمل » .

تكلَّم بـه ، وجاء إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبره بقول مَن قال ، فغضب رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم غَضَباً شديدًا ، فخرج وقد عَصَب على رأسه عِصابةً وعليه قَطيفَةٌ ، ثم صَعِد المِنْبَر فحَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعدُ، يا أيّها الناس ، فما مَقالةٌ بلغتْنى عن بعضكم فى تأميرى أسامةَ بن زيد ؟ واللهِ ، لئن طَعَنتم فى إمارتى أسامةَ لقد طعنتم فى إمارتى أباه من قبله ؛ وايمُ اللهِ ، إن كان للإمارة لَخَليقاً[1] وإنَّ ابنه من بعده لَخليقٌ للإمارة ، وإن كان لَمِنْ أَحبّ الناس إلىَّ ، وإنَّ هذا لمن أحبّ الناس إلىّ ، وإنهما لَمُخِيلان[2] لكلّ خير ، فاستوصوا به خيرًا فإنه من خِيارِكم ! ثم نزل صلَّى الله عليه وسلَّم فدخل بيته ، وذلك يوم السبت لعشر ليالٍ خلوْن من ربيع الأوّل . وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يُودعون رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فيهم عمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : أنْفِذوا بَعْثَ أسامة ! ودخلتْ أمّ أيْمَن[3] ، فقالت: أىْ رسولَ الله ، لو تركتَ أسامةَ يُقيم فى مُعَسْكَره حتى تَتماثل ، فإنَّ أسامة إن خرج على حالته هذه لم ينتفع بنفسه . فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم : أنْفِذوا بعثَ أسامة ! فمضى الناس إلى المُعَسْكَر فباتوا ليلة الأحد ، ونزل أسامة يوم الأحد ورسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثَقيلٌ مغمورٌ ، وهو اليوم الذى لَدُّوه[4] فيه ، فدخل على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وعيناه تَهْمُلان ، وعنده العباس والنساء حولَه ، فطأطأ عليه أسامة فقبّله ، ورسول

---

(١) فى الأصل : « لخليق » .

(٢) فلان مخيل للخير : أى خليق له . (الصحاح ، ص ١٦٩٢) .

(٣) وهى أم أسامة ، كما ذكر السهيلى . (الروض الأنف ، ج ٢ ، ص ٣٥٢) .

(٤) فى الأصل : « الذى ولدوه فيه » . والمعنى هنا أعطوه الدواء ؛ واللدود ما يصب بالمسعط من الدواء فى أحد شقى الفم . (القاموس المحيط ، ج ١ ، ص ٣٣٥) .

الله صلّى الله عليه وسلّم لا يتكلّم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يَصُبُّها[١] على أسامة . قال : فأعرف أنه كان يدعو لى . قال أسامة : فرجعت إلى مُعَسْكَرِى . فلما أصبح يوم الاثنين غدا من مُعَسْكَرِه وأصبح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُفيقاً ، فجاءه أسامة فقال : اغْدُ على بَرَكَةِ الله ! فودّعه أسامةُ ، ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم مُفيقٌ مُرِيحٌ[٢] ، وجعل نساءه يتماشطْنَ سُروراً براحته . فدخل أبو بكر رضى الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، أصبحتَ مُفيقاً بحمد الله ، واليوم يوم ابنة خارجة فائذن لى ! فأَذِن له فذهب إلى السُّنْح[٣] ، وركب أسامة إلى مُعَسْكَرِه ، وصاح فى الناس أصحابه باللُّحوق بالعسكر ، فانتهى إلى مُعَسْكَرِه ونزل ، وأمر الناس بالرَّحيل وقد مَتَع[٤] النهار . فبينا أسامة يُريد أن يركب من الجُرْف أتاه رسول أُمّ أيْمَن - وهى أمّه - تُخبره أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يموت . فأقبل أسامة إلى المدينة معه عمر وأبو عُبَيدة بن الجَراح ، فانتهَوْا إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يموت ، فتُوفّى رسول الله حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتَىْ عشرة خلتْ من ربيع الأوّل . ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرْفِ المدينة ، ودخل بُرَيدة بن الحُصَيب بلواء أسامة مَعقودًا حتى أتى به باب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فغرَزَه عنده ، فلما بويع لأبى بكر رضى الله عنه أمر بُرَيدةَ أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة وألاّ يَحُلَّه أبدًا حتى يغزوَهم أسامة . قال بُرَيدة : فخرجت باللواء حتى انتهيت به إلى بيت أسامة ، ثم خرجت به إلى الشام معقودًا مع أسامة ، ثم رجعت به إلى بيت أسامة ، فما زال فى بيت أسامة

---

(١) فى الأصل : « يصيبها » . ويصبها : أى يميلها . (لسان العرب ، ج ٢ ، ص ٥) .
(٢) يقال : أراح الرجل إذا رجعت نفسه إليه بعد الإعياء . (النهاية ، ج ٢ ، ص ١٠٩) .
(٣) السنح : موضع بعوالى المدينة . (وفاء الوفا ، ج ٢ ، ص ٣٢٥) .
(٤) متع النهار إذا طال وامتد وتعالى . (النهاية ، ج ٤ ، ص ٧٦) .

حتى تُوفِّى أُسامة . فلمّا بلغ العربَ وفاةُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وارتدَّ من ارتدّ عن الإسلام ، قال أبو بكر رضى الله عنه لأُسامة رحمة الله عليه : انْفُذْ فى وجهك الذى وجَّهك فيه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم . وأخذ الناس بالخروج وعسكروا فى موضعهم الأَوّل ، وخرج بُرَيدة باللِّواء حتى انتهى إلى مَعَسْكَرهم الأَوّل ، فشقّ على كبار المهاجرين الأَوّلين ، ودخل على أبى بكر عمرُ ، وعثمان ، وسعد بن أبى وَقَّاص ، وأبو عُبَيدة بن الجَرّاح ، وسَعيد ابن زيد ، فقالوا : يا خليفةَ رسول الله ، إنَّ العرب قد انتقضت عليك من كلّ جانبٍ ، وإنك لا تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلْهم عُدَّةً لأَهل الرِّدَّة ، ترمى بهم فى نحورهم ! وأُخرى ، لا نأْمن على أهل المدينة أن يُغار عليها وفيها الذَّرارىّ والنساء ، فلو استأْنيت لغزو الروم حتى يضرب الإسلامُ بجِرانه[1] ، وتعود الرِّدَّة إلى ما خرجوا منه أو يُفْنِيهم السَّيفُ ؛ ثم تبعث أُسامة حينئذٍ فنحن نأْمن الرومَ أن تزحف إلينا ! فلمّا استوعب أبو بكر رضى الله عنه منهم كلامهم قال : هل منكم أحدٌ يُريد أن يقول شيئاً ؟ قالوا : لا ، قد سمعتَ مقالتنا . فقال : والذى نفسى بيده ، لو ظننت أنَّ السباع تأْكلنى بالمدينة لأَنفذتُ هذا البعْث ، ولا بدأتُ بأَوّلَ منه ؛ ورسول الله ينزل عليه الوَحْىُ من السماء يقول : أَنْفِذوا جيشَ أُسامة ! ولكن خَصْلَة ؛ أُكلّم أُسامة فى عمر يُخلِّفه يُقيم عندنا ، فإنه لا غَناءَ بنا عنه . واللهِ ، ما أدرى يفعل أُسامة أم لا ، واللهِ إن رأى لا أُكرهه ! فعرف القوم أنَّ أبا بكر قد عزم على إنفاذ بعْث أُسامة . ومشى أبو بكر رضى الله عنه إلى أُسامة فى بيته ، وكلّمه أن يترك عمر ، ففعل

---

(١) الجران : باطن عنق البعير ؛ أى حتى يقر قراره ويستقيم ، كما أن البعير إذا برك واستراح مد عنقه على الأرض . (النهاية ، ج ١ ، ص ١٥٨) .

أسامة ، وجعل يقول له : أَذِنتَ ونفسك طيّبة ؟ فقال أُسامة : نعم ! وخرج وأمر مُناديه يُنادى : عَزْمَةٌ منِّى ألاّ يتخلَّفَ عن أُسامة من بَعْثِه مَن كان انتدب معه فى حياة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإنى لن أُوتَى بأَحدٍ أبطأَ عن الخروج معه إلاّ ألحقتُه به ماشياً . وأرسل إلى النفر من المهاجرين الذين كانوا تكلّموا فى إمارة أُسامة ، فغلَّظ عليهم وأخذهم بالخروج ، فلم يتخلَّف عن البعث إنسانٌ واحدٌ .

وخرج أبو بكر رضى الله عنه يُشيّع أُسامة والمسلمين ، فلمّا ركب أُسامة من الجُرْف فى أَصحابه — وهم ثلاثة آلاف رجل وفيهم ألف فرس — فسار أبو بكر رضى الله عنه إلى جنب أُسامة ساعةً ، ثم قال : أَستودِع اللهَ دينَك وأمانتَك وخواتيم عَمَلك ؛ إنّى سمعت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُوصيك ، فانْفُذْ لأمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فإنى لست آمُرُكَ ولا أَنهاكَ عنه ، وإنما أنا مُنفذٌ لأَمر أمر به رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم . فخرج سريعاً فوطِئ بلادًا هادئةً لم يرجعوا عن الإسلام — جُهَينة وغيرها من قُضاعة — فلمّا نزل وادى القُرى قدّم عَيْناً له من بنى عُذْرَة يقال له حُرَيثٌ ، فخرج على صَدْر راحلته أَمامَه مُغِذًّا[1] حتى انتهى إلى أُبْنَى ؛ فنظر إلى ما هناك وارتاد الطريق ، ثم رجع سريعاً حتى لقى أُسامة على مسيرة ليلتَيْن من أُبْنَى ، فأخبره أنَّ الناس غارّون ولا جُموعَ لهم ، وأمره أن يُسرع السير قبل أن تجتمع[2] الجُموع ، وأن يَشُنَّها غارة .

قال : فحدّثنى هشام بن عاصم ، عن المُنذِر بن جَهم قال : قال بُرَيدة لأُسامة : يا أَبا محمّد ، إنى شهدت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُوصى

---

(١) فى الأصل : « معدا » .
(٢) فى الأصل : « يجتمع » .

أباكَ أن يدعوَهم إلى الإسلام ، فإن أطاعوه خيّرهم ، وإن أحبّوا أن يُقيموا فى دارهم ويكونوا كأعراب المسلمين ، ولا شىء لهم فى الفىء ولا الغنيمة إلاَّ أن يُجاهدوا مع المسلمين ؛ وإن تحوّلوا إلى دار الإسلام كان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . قال أُسامة : هكذا وصيّة رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم لأَبى ، ولكنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أمرنى ، وهو آخر عهده إلى ، أن أُسرِع السير وأَسْبِق الأَخبار ، وأن أَشُنَّ الغارةَ عليهم بغير دُعاءٍ ، فأُحرّق وأُخرّب . فقال بُرَيدة : سمعاً وطاعةً لأَمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم .

فلمّا انتهى إلى أُبْنَى فنظر إليها منظرَ العين عبَّأَ أصحابَه وقال : اجعلوها غارةً ولا تُمْعِنوا فى الطلب ولا تفترقوا ، واجْتَمِعوا واخفوا الصوت ، واذكروا الله فى أنفسكم ، وجَرِّدوا سُيوفَكم وضَعُوها فيمن أشرف لكم . ثم دفع عليهم الغارة ، فما نَبَح كلبٌ ولا تحرّك أحدٌ ، وما شعروا إلاَّ بالقوم قد شنّوا عليهم الغارةَ يُنادون بشعارهم : يا مَنصور أَمِتْ ! . فقتل من أشرف له ، وسَبَى مَن قَدَر عليه ، وحَرق فى طوائفهم[1] بالنار ، وحرّق منازلَهم وحَرْثَهم[2] ونَخْلَهم ، فصارت أعاصير من الدَّخاخِين[3]. وأجال الخيلَ فى عَرَصاتهم ، ولم يُمعِنوا فى الطلب ؛ أصابوا ما قَرُب منهم وأقاموا يومهم ذلك فى تعبئةِ ما أصابوا من الغنائم . وكان أُسامة خرج على فرس أبيه التى قُتِل عليها أبوه يومَ مُؤْتَة كانت تُدْعَى سَبْحَة ؛ وقتل قاتلَ أبيه فى الغارة ، خبّره به بعض

---

(١) فى الأصل : « طرافقهم » ؛ وما أثبتناه عن ابن سيد الناس . (عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ٢٨٢) .

(٢) فى الأصل : « وخربوهم » ؛ وما أثبتناه عن ابن سيد الناس . (عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ٢٨٢) .

(٣) فى الأصل : « آعاصى من الدخاخين وأبال » . والتصحيح عن ابن سيد الناس . (عيون الأثر ، ج٢ ، ص ٢٨٢) .

من سَبَى ؛ وأسهم للفرس سهمَيْن ولصاحبه سهماً ، وأخذ لنفسه مثل ذلك . فلمّا أمسَوْا أمر الناس بالرَّحيل ، ومضى الدليل أمامَه ، حُرَيث العُذْرىّ ، فأخذوا الطريق التى جاء منها ، ودانَوْا ليلتَهم حتى انتهَوْا بأرضٍ بعيدة ، ثم طَوَى البلادَ حتى انتهى إلى وادى القُرَى فى تسع ليال ، ثم قصد بعدُ فى السير فسار[١] إلى المدينة ، وما أُصيب من المسلمين أحد . فبلغ ذلك هِرَقْل وهو بحِمْص ، فدعا بَطارِقته فقال : هذا الذى حذّرتكم ، فأبيتم أن تقبلوه منى . قد صارت العرب تأتى مسيرةَ شهرٍ تُغير عليكم ، ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَم . قال أخوه : سأقوم[٢] فأَبعثُ رابطة[٣] تكون بالبَلْقاء[٤] فبعث رابطةً واستعمل عليهم رجلاً من أصحابه ، فلم يزل مُقيماً حتى قدمت البعوثُ إلى الشام فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

قالوا : واعترض لأُسامة فى مُنصَرَفه قومٌ من أهل كَثْكَث – قرية هناك – قد كانوا اعترضوا لأبيه فى بدأته فأصابوا من أطرافه ، فناهضهم أُسامة بمن معه ، وظَفِر بهم وحرّق عليهم ، وساق نَعَماً من نَعَمهم ، وأسر منهم أسيرَيْن فأوثقهما ، وهرب مَن بقى ، فقدم بهما المدينة فضرب أعناقهما .

قال : فحدّثنى أبو بكر بن يحيى بن النَّضْر ، عن أبيه ، أنَّ أُسامة بن زيد بعث بَشيرَه من وادى القُرَى بسلامة المسلمين ، وأنهم قد أغاروا على العدوّ فأصابوهم ، فلمّا سمع المسلمون بقدومهم خرج أبو بكر رضى الله عنه فى المهاجرين ، وخرج أهل المدينة حتى العَواتق سُرورًا بسلامة أُسامة

(١) جملة غامضة شكلها فى الأصل : « بعد اعديه السير إلى المدينة » . وما أثبتناه من ابن سيد الناس . (عيون الأثر ، ج ٢ ، ص ٢٨٢) .
(٢) فى الأصل : « ساق » .
(٣) الرابطة : أى الخيل . (لسان العرب ، ج ٩ ، ص ١٧٣) .
(٤) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى قبتها عمان . (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٦) .

ومَن معه من المسلمين ، ودخل يومئذٍ على فَرَسه سَبْحَة كأنما خرجتْ من ذى خُشُب ، عليه الدِّرْع ، واللِّواءُ أمامه يحمله بُرَيدة ، حتى انتهى به إلى المسجد ، فدخل فصلّى ركعتَيْن وانصرف إلى بيته معه اللواء . وكان مَخرجه من الجُرْف لهلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ، فغاب خمسة وثلاثين يوماً ، عشرون فى بدأته ، وخمسةَ عشر فى رَجْعَته .

قال : فحدّثنى محمّد بن الحسن بن أُسامة بن زيد ، عن أهله ، قال : تُوفِّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأُسامة ابن تسعَ عشرةَ سنة ، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم زوجه وهو ابن خمسَ عشرة سنة امرأةً من طيىء ، ففارقها وزوّجه أخرى . ووُلِد له فى عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأَوْلم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على بِنائه بأهله .

قال : فحدّثنى أبو الحُرّ عبد الرحمن بن الحُرّ الواقفىّ ، من ولد السائب ، عن يزيد بن خُصَيفة ، أنّ ابناً لأُسامة بن زيد بن حارثة رحمه الله دخل به على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فى بيت أُمّ سَلَمَة ، وهو أسود ، فقالت أُمّ سلَمَة : يا رسول الله ، لو كان هذا جاريةً ما نَفَقَتْ . فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : بلى ، إن شاء الله يُجعَل لها مَسَكان من وَرِقٍ ، وقُرْطان[1] ، ويُجعل على المسلمين خُلوقٌ ، فكأنه ذَهَب .

قال : حدّثنى محمّد بن حَوْط ، عن صفوان بن سُلَيم ، عن عَطاء بن يَسار ، قال : كان أُسامة بن زيد قد أصابه الجُدَرىّ أوّلَ ما قدم المدينة وهو غلامٌ ، مُخاطه يسيل على فيه ، فتَقَذَّر به عائشة رضى الله عنها ، فدخل

---

(١) فى الأصل : « مسكين من ورق وقرطين » . والمسك : الأسورة من الذبل والقرون والعاج . والقرط : نوع من حلى الأذن . (لسان العرب ، ج ١٢ ص ٣٧٥ ؛ ج ٩ ، ص ٢٥١) .

رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم فطَفِق يغسل وجهه ويُقبّله . قالت عائشة : أَما واللهِ ، بعد هذا فلا أُقصيه أَبدًا .

عن محمّد بن الحَسن ، عن حُسَين بن أَبى حُسَين المازنىّ ، عن ابن قُسَيط ، عن محمّد بن زيد ، قال : سقط أُسامة فأَصاب وجهَه شَجّة ، فكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يمصّ الدم ويَبصُقه .

عن ابن جُرَيج ، وسفيان بن عُيَيْنَة ، عن عمرو بن دينار ، عن يحيى ابن جَعْدَة ، أَنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لفاطمة وهى تمسح عن وجه أُسامة شيئاً ، فكأَنها تأَذّتْ به ، فاجْتَذَبه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلَّم وانْتَهَرها ، فقالت : لا أَتأَذّى به أَبدًا .

قال : حدّثنى مَعْمَر ، عن الزُّهرىّ ، عن عُروة ، عن عائشة رضى الله عنها ، أَنّ مُجَزِّز المُدْلِجىّ نظر إلى زيد وأُسامة ، وعليهما قطيفةٌ وهما مضطجعان ، قد خمّرا رؤُوسهما وأَرجلهما فقال : إنّ هذه الأَقدام بعضها من بعض . فسُرّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لشبه أُسامةَ زيدَ بن حارثة .

عَن محمّد ، عن الزُّهرىّ ، عن عُروة ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : ما رأَيت رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عُرياناً قَطُّ إلّا مرّةً واحدةً ، جاء زيد بن حارثة من غزوة يستفتح ، فسمِع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم صوتَه فقام عُرياناً يجرّ ثوبَه فقبّله .

قال : حدّثنى موسى بن يعقوب ، عن أَبى الحُوَيْرِث ، ومَخْرَمَة بن بُكَير ، عن أَبيه ، عن عُروة بن الزُّبَير ، قالا : إنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأُمّ كُلثوم بنت عُقبة : تَزوّجى زيدَ بن حارثة فإنه خيرٌ لك .

فكرهتْ ذلك ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿وَما كان لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ ورَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾[1] . صدق الله العظيم .

تمّ كتاب المغازى بحمد الله ومنّه

(١) سورة ٣٣ الأحزاب ٣٦

فهرست موضوعات

الجزء الثالث

الفهارس العامة

للكتاب

١ - فهرست الأعلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

* انظر ابن سعد (الطبقات ، ج ٣ ، ص ٨٥ ، ص ١٢٩) وابن عبد البر (الاستيعاب ، ص ٦٨٩) .

(ص)

(ض)

(ط)

(غ)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٢ ـ القبائل والأمم

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

٣ ـ الأصنام

(ا)

(ذ)

(س)

(ع)

(ف)

(ل)

(م)

٤ ـ الأماكن

(ا)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٥ — الأيام والغزوات

(ص)

(ع)

(غ)

(ق)

(و)

(ى)

٦ ــ الشعراء

(غ)

(ك)

(ل)

(م)

٧ – القوافى

استدراكات وتصويبات

ص	س	المستدرك	ص	س	المستدرك
٢٣	٣	الصواب : « بحسيكةَ »	٢٢٠	١١	الصواب : « عمارة بن زياد »
٥٢	١٢	« : « عبيدة »	٢٤٠	١٧	« : « عمر بن قتادة »
٧٣	٣	« : « الرَّجَّال »	٣٠٧	٥	« : « بن عبد عمرو »
٨٦	٤	« : « ضبيرة »	٣٠٧	١١	« : « عثمان بن أبي طلحة »
٨٩	٧	« : « عبد الله بن أبي عبيدة »	٣٣٢	٥	« : « قَطَن »
١٠٠	١٣	« : « عمرو »	٣٤١	١٥	« : « نصر »
١٠٧	١٩	« : « الحياة »	٣٤٩	٢	« : « من أحد ؟ »
١٠٨	٢	« : « أو يفادنا »	٣٤٩	١٦	« : « بئر معونة »
١١٤	٢	« : « سَلِمَة »	٣٤٩	٢١	« : « مضرَ »
١١٦	٦	« : « لَتهيَبَتْهُم »	٣٥٣	٢	« : « أنس بن معاذ »
١٣٤	٢٢	« : « إظهاره »	٣٧٢	٢٠	« : « الله »
١٣٩	١	« : « الوليدُ »	٤١٢	١٩	« : « برَّةَ »
١٤٤	٥	« : حذف « أبي »	٤١٥	(٢)	« : « ص ٢٦٨ »
١٤٦	٥	« : « محرزُ »	٤٣٢	٢	« : « خزمة »
١٤٧	٤	« : « الدَّبَة » بتخفيف الباء	٤٤٠	٦	« : « أبي عنبَسَة »
١٤٧	١٢	« : « قتله »	٤٦٧	٤	« : « رُخَيْلَة »
١٤٨	٩، ١٩	« : « قتله »	٥١٦	١	« : « نصر »
١٤٩	٢	« : « المجذَّر »	٥٦٠	٤	« : « بسر »
١٥٠	١٢	« : « حباب بن المنذر » وانظر الاستيعاب ص ١٣٦	٥٦١	٢٠	« : « عون »
١٥٤	٨	« : « ثقف »	٥٦٣	٥	« : « عُميلة »
١٨٥	٩	« : « فأخرجَ »	٥٦٣	١١	« : « قلباً »
١٩٥	٢	« : « وذراريهم »	٥٦٤	٤	« : « الحسن بن الحسن »

ص	س	المستدرك	ص	س	المستدرك
٥١	٨	الصواب : « الحصيب»	٧٥١	١٧	الصواب : « بابن البرصاء »
٥/	٤	» : « عبيدة »	٧٦٠	٢٠	» : « أقرم »
٥٩	٦	» : « الحكم بن أبى العاص »	٧٦٣	٧	» : « أقرم »
			٧٦٩	١٠	» : « حسيل »
٥٩	١٩	» : « غدرتك »	٧٨٣	١	» : « شجّتّه »
٦٠	١٨	» : « حاطب بن عمرو بن عبد الشمس »	٧٨٣	١٤	» : « الدّيلي »
			٧٨٥	٨	» : « كأنّ »
٦٠	١	الصواب : « أتيَ »	٧٩١	٦	» : « عن عمران »
٦١	٣	» : « أقام »	٧٩٥	٢٠	» : « تلعّب »
٦٥	١	» : « جارية »	٧٩٩	٣	» : « عمرو بن سعد »
٦٦	١٤	» : « أبو ضيّاح »			
٦٧	٧	» : « ينصب »	٨٠١	١	» : « بسر »
٦٧	١٤	» : « المرّى »	٨٠٣	١٢	» : « ركوبةَ »
٦٨	٥	» : « أم مطاع »	٨١٦	١١	» : « وأشدُّ »
٧٠	١٤	» : « أم سليم »	٨٢١	٤	» : « غثبَرة » أو « غُبثْرةَ »
٧٢	١٩	» : « الخيار »			
٧٣	٦	» : « حبّان »	٨٢٨	٥	» : « الأشعر »
٧٣	١٢	» : « عن عبد الرحمن ابن عبد الله»	٨٣٧	١٠	» : « بن طلحة »
			٨٤٨	١	: «خمّانة» بالتشديد
٧٣	٧	» : « أبو ضيّاح »	٨٥٢	٨	» : « بيرّا »
٧٣	٩	» : « ابن واثلة »	٨٩٢	٦	» : « إلهَ »
٧٣	١٢	» : « بدَنة »	٩٢٣	٧	» : « الكفّين »
٧٤	١٨	» : « ابن أبى حية»	١٠٦٠	٣	» : « نزل » .

Oxford University Press, Ely House, London, W. 1

GLASGOW NEW YORK TORONTO MELBOURNE WELLINGTON
CAPE TOWN SALISBURY IBADAN NAIROBI LUSAKA ADDIS ABABA
BOMBAY CALCUTTA MADRAS KARACHI LAHORE DACCA
KUALA LUMPUR HONG KONG

THE KITĀB AL-MAGHĀZĪ

OF

AL-WĀQIDĪ

VOLUME THREE

EDITED BY

MARSDEN JONES

LONDON

OXFORD UNIVERSITY PRESS

1966